

دكتور محمود إسماعيل

الأغالبة

١٨٤هـ - ٢٩٦هـ

سياستهم الخارجية



(١٨٤ - ٢٩٦ هـ)
سياستهم الخارجية

دكتور محمود اسماعيل

الطبعة الثالثة
٢٠٠٠ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم - رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

يسعدنى أن أقدم للمهتمين بتاريخ الإسلام فى المغرب هذا الموضوع الجديد بحق عن «سياسة الأغالبة الخارجية» . كيف ارتبطوا بعالم البحر الأبيض المتوسط ؟ وكيف أصبحت القيروان فى عهدهم من المراكز السياسية الكبيرة فى هذا العالم ؟ ، وكيف مكنتهم السيادة البحرية التى أحرزوها من السيطرة على طرق التجارة البحرية ؟، وكيف قاموا بدور الوسيط بين الشرق والغرب ؟، وكيف أصبحت مراكزهم فى بلرم وبارى وموانئ الساحل الإفريقى شرايين للحياة الاقتصادية ؟ وكيف اتصلوا بالتيارات الحضارية فنهلوا منها ما طاب لهم دون تعصب أو جمود ، وكيف أصبحت القيروان فى ظلهم مشعلا للفكر الإسلامى فى الغرب؟

كل ذلك فى دراسة عميقة أصيلة معتمدة على أوثق المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة بالإضافة إلى الحشد الكبير من المصادر الإفرنجية والدوريات، مشفوعة بالملاحق والخرائط .

كما يسرنى أن أقدم للقراء نجما جديداً يطلع فى سماء الدراسات الإسلامية ثابت القدمين عميق النظرة يستكنه النصوص ويغوص وراء الحقائق ، يجنح إلى التحليل ونقد الأصول وإعمال الرأى فيما رواه السلف وهو تلميذى الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب- جامعة عين شمس - عرفته طالبًا من أنبه الطلاب الذين جلسوا منى مجلس الدرس فى قسم التاريخ بجامعة القاهرة، ثم أشرفت على البحث الذى أعده لدرجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى حتى نال الدرجة بامتياز ، ثم واصلت الإشراف على بحثه لدرجة الدكتوراة فنالها بمرتبة الشرف الأولى.

وبحثه هذا عن سياسة الأغالبة الخارجية هو خطوته الأولى وأرجو أن تتلوها خطوات كما آمل أن يتقبل الدارسون والمتخصصون والقراء هذا العمل قبولاً حسنًا والله ولى التوفيق .

دكتور حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب جامعة القاهرة



مقدمة الطبعة الثانية

ما كنت أتوقع أن يحرز هذا العمل المتواضع ما أحرز من صدى طيب لدى المهتمين بتاريخ وحضارة الإسلام بعامة والمتخصصين فى تاريخ المغرب والأندلس بخاصة . ذلك أن هذا الكتاب يعد باكورة ما أنجزت من دراسات، فكان موضوعه هو رسالتى للماجستير التى حرصت أن أنشرها دون أدنى تعديل أو تغيير لا لشئ إلا لتقف شاهداً على مبلغ تفكيرى ومدى تمرسى فى البحث فى مرحلة معينة .. والحق- أعترف أن كثيراً من نواحى القصور وعدم النضج كانت تشوب هذا العمل ، وكنت أشعر أحيانًا بعدم الرضى وأنا أقوم بتدريس الموضوع على طلبتى بالجامعة ، ولا أنسى بعض الملاحظات الذكية التى أبداها بعض طلبتى النجباء فى انتقاد بعض الآراء التى تضمنها الكتاب، وكان ذلك لى حافزاً على معاودة البحث لتوضيح ما كان مبهما واستيفاء ما كان ناقصاً .

وقبل ذلك كان قد توفر لى الوقوف على مادة جديدة وأنا بصدد الإعداد لدرجة الدكتوراة عن تاريخ الخوارج فى المغرب ، أفدت منها فى تعديل بعض الآراء وخاصة المتعلقة بعلاقة الأغالبة مع الدول المغربية المعاصرة لها . إن مرور ما ينيف على عشرة أعوام علىِ إعداد هذه الدراسة قمين بإلقاء أضواء جديدة على الموضوع حين فكرت فى مراجعته تمهيدا لنشره للمرة الثانية بعد مزيد من التمرس والخبرة المنهجية فى حقل الدراسات الإسلامية . وأنوه بأن الطبعة الثانية خلو من كثير من الأخطاء اللغوية والمطبعية التى زخرت بها الطبعة الأولى للكتاب ، واعتقد أن الكتاب فى صورته الجديدة حرى باثارة اهتمام القراء العرب فى هذه الأيام، إذ يقدم تجربة ثرية لدولة إسلامية فتية سجلت صفحة مشرقة فى التاريخ بجوانبه السياسية والعسكرية والحضارية ؛ ما أحرانا بتمثلها ونحن ننقب فى التراث عن نواحى أصالتنا لتكون ركيزة للانطلاق نحو اللحاق بعجلة العصر.

د. محمود اسماعيل

فاس- يوليو ١٩٧٨



مقدمة الطبعة الأولى

تعتبر دولة الأغالبة فى إفريقية أولى دول المغرب الإسلامى إسهاما فى العلاقات الدولية، ومشاركة فى أحداث العالمين الإسلامى والمسيحى، وبخاصة فى عالم البحر المتوسط . وقد عبرت هذه الدولة عن شخصية المغرب الإسلامى عقب التغيير السياسى والاجتماعى الشامل الذى أحدثه الفتح العربى، فمع أن قيام دول المدراريين والرستميين والأدارسة سابق على قيام دولة الأغالبة ، إلا أنه لم يكن لهم نفس التأثير الذى تركه الأغالبة، فدولتى الخوارج اتسمتا بالطابع المحلى، وعاشتا فى عزلة سياسية بعد أن أولتا ظهريهما لعالم البحر المتوسط، وانشغلتا بالمسائل الداخلية المتعلقة بالحكم والنواحى الإقتصادية . ومن هنا كانت علاقاتها الخارجية قاصرة على الجنوب ، ولم يتعد دورها التاريخى المشاركة فى تجارة الصحراء. كذلك فقد أملت الظروف المحيطة بدولة الأدارسة ، ووجودها بين أعداء سياسيين ومذهبين ، أن تعتكف داخل حدودها وتتخذ من الوسائل الدفاعية ما يكفل لها البقاء، ومن هنا كان دورها قاصراً على مجرد إقرار الإسلام فى المغرب الأقصى.

أما الأغالبة ، ففضلاً عن تحقيقهم الاستقلال السياسى للبربر فى إفريقية ، تطلعوا إلى عالم البحر الأبيض المتوسط بما خاضوه من حروب مع القوى المطلة على شاطئه ، ودانت لهم بعض جزره ، وهبطت جيوشهم جنوب إيطاليا لتنشر الإسلام والحضارة العربية . كما دخلوا ميدان الصراع الدولى، وأصبحت القيروان من المراكز السياسية الكبرى فى عالم البحر المتوسط.

وقد خرج الأغالبة من هذا الاحتكاك السياسى بمكاسب عسكرية، كما أتيح لهم نوع من السيادة البحرية مكنتهم من السيطرة على طرق التجارة، فورثوا دور بيزنطة فى الوساطة بين تجارة الشرق والغرب ، وأصبحت مراكز الأغالبة فى بلرم وموانئ الساحل الإفريقى بمثابة شرايين الحياة الاقتصادية فى عالم البحر المتوسط.

وفضلا عن ذلك فقد أتاح لهم الاحتكاك السياسى والعسكرى الاتصال بالتيارات الحضارية فنهلوا منها، وأضافوا إليها، لم يثنهم عن ذلك تعصيب أو جمود ، وصارت القيروان مشعلا للحضارة الإسلامية فى الغرب. فوفد العلماء إليها والدارسون من سائر البلاد الإسلامية ،

وأصبحت قبلة للمشارقة والأندلسيين يقصدونها للعلم والدراسة. كما قدر للأغال
على مختلف الأنماط والتقاليد الفنية ، فتأثروا بها فى فنونهم سواء أكانت إس
مسيحية ، ثم تكونت لهم مدرسة فى الفن تركت أثرها فى فنون الإسلام بالمغرب والأ

وعلى الرغم من أهمية دور الأغالبة فى تاريخ العلاقات الدولية، سياسية كانت
فإن أحداً من المؤرخين- فيما نعلم- لم يول هذا الموضوع ما يستحق من عناية ودراس

حقيقة أن بعض المستشرقين تناولوا بعض جوانبه السياسية من خلال دراسة
الإسلامية البيزنطية على العموم، كما أن بعضهم عرض لأطراف منها معتمدا ع
تاريخ الأغالبة فقط، فجاءت دراساتهم - فى هذا الصدد- غير متكاملة . وحسبنا
مثل فندرهيدن لم يعرض إلا للجانب السياسى من هذه العلاقات - وهو يؤرخ لدولة
فى إيجاز شديد.

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الجوانب الحضارية من العلاقات الأغلبية لم يعرض لها
ولم يكتب فيها إلا ما ورد عفواً فى تاريخ التجارة والثقافة والفن بعامة . وبقيت ذ
الطبقات- التى تعطى صورة واضحة عن حضارة الأغالبة- كما مهملا لايلتفت إليه

وعلى العموم ، فإن هذا الموضوع رغم تشعبه وغموضه ، أمكننى جمع شتاته
الدراسة التفصيلية لتواريخ الدول ذات العلاقات بالأغالبة ، وفى ضوء العلاقات ا
كما أمكن التغلب على التضارب فى الروايات ، وتوضيح بعض الحقائق الهامة لأول
عرضت العلاقات الإقتصادية فى ضوء ما قدمته كتب الجغرافيا والرحلات من معلو
عن أحوال إفريقية الإقتصادية فى عهد الأغالبة . وعنيت أيضا بالعلاقات الثقافية
من المادة العلمية الوفيرة التى حفلت بها كتب الطبقات .

وقد حتم ذلك المنهج أن نفرد الباب الأول لدراسة قيام دولة الأغالبة والظروف ال
فيها، ومدى انعكاس هذه الظروف على اتجاهاتها السياسية، ووضعها الإقتصادى
الدينى . وأن نخصص الباب الثانى لدراسة العلاقات مع المشرق الإسلامى، وتت
الأغالبة بالخلافة العباسية، ثم العلاقات بينها وبين مصر . أما الباب الثالث فقد أفر
بينها وبين دول المغرب والأندلس . وشمل الباب الرابع علاقات الأغالبة بالعالم المسي
حين خصص الباب الخامس لدراسة سقوط دولة الأغالبة.

هذا- ولم ندخر وسعا فى الاطلاع على المصادر التى تمس الموضوع من قريب أو بعيد، فاستعنت بعدد من المخطوطات التى تتناول كثيرا من جوانبه. وعلى الرغم من أن ما كتبه النويرى[١] والمنصورى[٢] يرجع إلى عصر متأخر من تاريخ الدولة التى نحن بصددها، وعلى الرغم من اعتمادهما على مؤرخين سابقين كابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون، فقد حفلا - وخاصة النويرى- بمعلومات وفيرة عن الجانب السياسى من العلاقات الأغلبية . وما كتبه أبو زكريا[٣] والدرجينى[٤] - الذى نقل عنه كثيرا- كان جل اعتمادنا عليه فى دراسة العلاقات مع الرستميين، مع تحيزهما الواضح للدولة الرستمية . ونفس الشئ يقال عن صاحب تاريخ[٥] مدينة فاس وبناء جامع القرويين والأندلسيين بصدد دراسة العلاقات مع الأدارسة . أما القاضى عياض [٦]، فقد أمدنا بمادة غزيرة عن فقهاء المالكية، وبالتالى عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإفريقية الأغلبية ، فضلا عن العلاقات مع البيزنطيين التى استشففنا الكثير من مادتها من خلال ما ذكره حول الرباطات والمرابطين .

وفى دراسة علاقات الأغالبة بالمشرق الإسلامى، أمدنا ابن الأثير والبلاذرى والسيوطى وابن الصابئ والكندى والبلوى وابن الداية وابن طيفور والقلقشندى وابن تغرى بردى بمادة وفيرة أمكن الاستفادة بها فى تفسير أحوال المشرق الإسلامى التى شكلت طبيعة علاقته بالأغالبة .

أما أشهر المؤرخين الذين كتبوا عن المغرب والأندلس فلا شك فى أن فى طليعتهم ابن عذارى وابن خلدون - رغم تحيزه ، وعدم دقة كثير من تواريخه - وابن الخطيب وابن الآبار والسلاوى .

١- نهاية الأرب : ج٢٢ ، ج٢٦ مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢- زبدة الفكرة ج٤ ، ج٥ مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة .

٣- كتاب السيرة ، وأخبار الأئمة مخطوط بدار الكتب المصرية.

٤- طبقات الإباضية ج١ مخطوط بدار الكتب المصرية.

٥- مؤلف مجهول : مخطوط بدار الكتب المصرية .

٦- ترتيب المدارك وتقريب المسالك . قسم ١ من ج٢ مخطوط بدار الكتب المصرية.

وقد أمدتنا كتب الجغرافيا والرحلات بفيض من المعلومات عن النواحى الاقتصادية ، وحسبنا أن البكرى يعتبر من أهم مصادر تاريخ الأغالبة ، ويأتى الإدريسى واليعقوبى وابن حوقل وابن خرداذبة والاصطخرى فى مرتبة تالية.

كما اعتمدنا على كتب الطبقات للتأريخ للعلاقات الثقافية، فقد أمدتنا طبقات المالكية بالشئ الكثير عن المجتمع الأغلبى وثقافاته وأنماط الحياة فيه، وحياة الأمراء والفقهاء ونظم القضاء والإدارة والمعاملات... الخ. ومن أهم هذه الكتب ما ألفه ابن الفرضى وابن فرحون وأبو العرب تميم والخشنى والمالكى والدباغ .

ولم نغفل الاطلاع على كتابات من أرخوا للمذاهب والفرق الإسلامية كالشهرستانى وعبد القاهر البغدادى وأبى غانم الصفرى. وكذلك على المصادر الأدبية وكتب النقود. هذا، فضلا عن كتابات المستشرقين الذين أرخوا للمغرب والأندلس كبروفنسال ودوزى ومارسيه وجوليان وفورنل وأمارى وغيرهم.

وقد حفلت دوائر المعارف والدوريات العربية والإفرنجية بأبحاث ومقالات طيبة أنارت الكثير من غوامض هذا الموضوع . ومن أهم هذه الموسوعات والدوريات دائرة المعارف الإسلامية، ومجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ومجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، والمجلة التاريخية المصرية. ومن الدوريات الإفرنجية

Revue Tunisienne, Revue des etudes islamiques, Amercan Journal of Archeology.

ولايفوتنى فى هذا المقام أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان لأستاذى الدكتور حسن محمود أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة لإشرافه على هذا البحث الذى حصلت به على درجة الماجستير فى عام ١٩٦٧م.

والله يوفقنا فى متابعة دراسة التاريخ الإسلامى، إنه ولى التوفيق .

الباب الأول

قيام دولة الأغالبة

أولا - إفريقية قبيل قيام دولة الأغالبة

يرتبط قيام دولة الأغالبة فى إفريقية عام ١٨٤هـ ارتباطا وثيقا بما ساد البلاد من فوضى واضطراب أثناء حكم الخلفاء العباسيين الأوائل .

والواقع أن الخلافة العباسية انشغلت بمشاكل المشرق، فكان عليها أن تواجه مطامع القواد من الفرس والخراسانيين، وتحارب الزندقة، وتصفى حركات العلويين، وتواجه أخطار البيزنطيين والترك، لذلك لم يعن الخلفاء كثيرا بما حدث فى المغرب، ولم يواجهوا المشاكل فى سرعة وحزم، فالخليفة أبو العباس السفاح مثلا اكتفى بمبايعة عبد الرحمن بن حبيب إياه ، فأقره على ولايته[1]، ولم يكن سلطان ابن حبيب يتجاوز القيروان، لهذا لم يخضع المغرب كله للخلافة فى ذلك الحين.

ولما ولى المنصور الخلافة، كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة فاستجاب له بشرط الاكتفاء بالدعاء له فى الخطبة دون التزامات مالية، ولما كتب إليه المنصور يتوعده ، انشق عليه وخلع طاعته ، ونزع السواد شعار العباسيين[2]، دون أن ينفذ المنصور وعيده .

وفى ظل هذا الوضع الجديد وجد الخوارج الفرصة مواتية لاستئناف ثوراتهم- التى أخمدها الأمويين من قبل- ففى عام ١٤٠هـ نجحت قبيلة ورفجومة من الخوارج الصفرية فى الاستيلاء على القيروان، وسوم أهلها سوء العذاب [3]، واستطاع الخوارج السيطرة على إفريقية كلها[4].

١- ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص٦٣ .

٢- نفسه ص٦٧ .

٣- ابن خلدون : العبر ج٦ ص١١٢ .

٤- البيان المغرب ج١ ص٨٣ .

غير أن انشقاقهم إلى صفرية وإباضية حال دون القضاء على نفوذ الخلافة من المغرب نهائيا. ذلك أن الإباضية بقيادة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى نازعوا ورفجومة الصفرية وأقصوهم عن القيروان فى صفر سنة ١٤١هـ[٥].

ولما تفاقم خطر الإباضية ، أرسل المنصور عامله على مصر محمد بن الأشعث على رأس جيش عظيم لتأديب الثوار واستعادة سلطان الخلافة ، ونجح بن الأشعث بعد معارك عدة فى استرداد القيروان سنة ١٤٢هـ [٦].

ولم يستطع المنصور القضاء على الخوارج نهائيا ، إنما درج على إرسال حملات انتقامية كلما تفاقمت الأخطار ، لكن الثورات كانت لاتلبث أن تندلع من جديد . حقيقة أنه حرص على اختيار ولاة القيروان من خاصته[٧] رغبة منه فى استرداد نفوذ الخلافة هناك، غير أنه لم يقم بجهد حاسم لاقتلاع المشاكل من جذورها . فاستمرت ثورات الخوارج فى وجه الخلافة العباسية إلى أن قضى عليها الأمراء المهلبيون بعد جهود متواصلة وحروب كثيرة [٨].

وإزاء تنكيل يزيد بن حاتم وابنه داود وأخيه روح [٩]، ترك الخوارج أسلوب الثورة وعمدوا إلى إقامة دول مستقلة عن الخلافة فى المغربين الأوسط والأقصى .

ومما لاشك فيه أن نجاح عبد الرحمن الأموى فى الاستقلال بالأندلس دون أن يعبأ بانتقام الخلافة العباسية ، شجع البربر على اتباع هذا الأسلوب فى بلاد المغرب .

على كل حال انسلخ المغربين الأوسط والأقصى عن نفوذ الخلافة بعد قيام الخوارج الصفرية بتأسيس دولة بنى مدرار فى سجلماسة سنة ١٤٠هـ [١٠]، كما نجح الخوارج الإباضية فى

٥- العبر ج٦ ص١١٣ .

٦- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٥ ، أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٠ .

٧- البيان المغرب ج١ ص٢٧ .

٨- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٥١٠ .

٩- العبر ج٦ ص١١٤ .

١٠- السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج١ ص١١١ .

إقامة الدولة الرستمية بتاهرت سنة ١٦٢هـ[11] فى حين تجمعت قبائل المغرب الأقصى حول إدريس بن عبد الله لتنشأ دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ[12].

ويبدو أن الخلافة لم تحاول استرداد هذا الجزء من ممتلكاتها بالمغرب، فلم تتخذ من الوسائل ما يكفل لها القضاء على المدرارين الرستميين، فالدولة المدرارية ظلت منفصلة عن الخلافة حتى سقوطها فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ولم نسمع عن جيش عباسى عمل وراء الزاب ليقوم بالحيلولة دون قيام الدولة الإباضية[13]. بل وادع روح بن حاتم - عامل الرشيد على القيروان- إمام تاهرت واكتفى منه بحسن الجوار[14]. ولم يكن بوسع الرشيد أن يبعث جيوشه لمواجهة خطر الأدارسة بعد استيلاء إدريس الأول على تلمسان «باب إفريقية» ، إنما استخدم أسلوب الدهاء والغدر حتى تم له اغتياله[15].

وثمة ظاهرة جديدة فى تاريخ إفريقية زمن الأمراء المهلبيين ظهرت بوادرها إبان ولاية ابن الأشعث ألا وهى فتن الجند . والواقع أن هذه الظاهرة ترتبط إلى حد كبير بإخماد ثورات الخوارج ، إذ يبدو أن الأمراء المهلبيين لم يستأصلوا الفتنة تماماً [16] ، فتشير المصادر[17] إلى أن «هرثمة بن أعين سير إلى الثوار البربر يحيى بن موسى فى جيش كبير تمكن من قمع ثورتهم». لكن الأمر الذى لاشك فيه أن الخوارج لم يعد لهم أثر كبير فى توجيه الأحداث بإفريقية منذ عهد آل المهلب، إنما الخطر الذى استجد كان خطر الجند الخلافى .

وقيام دولة الأغالبة ارتبط بفتن الجند وثوراتهم على عامل القيروان ؛ حتى أن مؤرخا مثل تيراس[18] يذهب إلى أنها وليدة تطاحن العصبيات. لكن الثابت أن المشاحنات بين الجند ترجع

١١- الدرجينى : طبقات الإباضية ج١ ورقة ١٨ مخطوط .

١٢- الاستقصا ج١ ص١٤١ .

١٣- طبقات الإباضية : ج١ ورقة ١٧ .

١٤- العبر ج٦ ص١١٣ .

١٥- مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ١٦ مخطوط .

١٦- ابن أبى زرع ج٦ ص٣٢ ، البيان المغرب ج١ ص١٤ ، العبر ج٦ ص١١٣ .

١٧- انظر : الكامل ج٦ ص٣٢ ، البيان المغرب ج١ ص١٤ ، العبر ج٦ ص١١٣ . Vonderheden, La Berberie Orientale p. 9 .

١٨- L' Art Hespano Mauresque. p. 232 .

إلى العصر الأموى، فالخلاف بين القيسية واليمنية وجد طريقه إلى البلاد منذ الفتح . ولما كانت غالبية الجند من اليمنية ، فقد نظروا إلى القيسية – الذين حظوا بمؤازرة الخلافة– نظرتهم إلى عدو دخيل .

وبقيام الخلافة العباسية لم يجد العنصر العربى فى إفريقية – قيسية وعنية – سندا من الدولة[١٩] . كما وفدت عناصر أخرى من الفرس والخراسانيين فى الحملات التى كان العباسيون يرسلونها إلى إفريقية بين الحين والآخر [٢٠]، ولهذا سادت الاضطرابات بين العرب وبين الفرس والخراسانيين . ففى سنة ١٤٨ هـ قامت أولى ثورات الجند على ابن الأشعث وأرغمه الثوار على الرحيل عن القيروان ، ونصبوا عيسى بن موسى واليا دون إذن المنصور[٢١]. كما قتلوا الأغلب بن سالم سنة ١٥٠هـ وهو يحاول تدعيم نفوذ الخلافة فى المغرب الأقصى [٢٢]، وبلغ خطرهم ذروته فى ثورة ابن الجارود على الفضل بن روح الذى ولى إفريقية سنة ١٧٧هـ بعد عزل نصر بن حبيب . وسبب ذلك سوء معاملة الفضل لهم [٢٣]، وعمله على إغضابهم بتعيينه المغيرة بن بشر بن روح عاملا على تونس مع ما عرف عنه من سوء سياسية . فالتف الجند حول ابن الجارود – ويعرف أحيانا بعبدويه الأنبارى[٢٤]– وطلبوا إلى الفضل عزل المغيرة، فلما لم يجبهم إلى ما طلبوا طردوه من المدينة وبعثوا إلى الفضل فى طلب من يخلفه ، فأرسل إليهم عبدالله بن يزيد المهلبى وحذرهم من سوء العاقبة إن هو مس بسوء . وقد اشتبك مع جند القيروان فى معركة قرب تونس هزم فيها جند الفضل وقتل نائبه الجديد. وكشف ابن الجارود النقاب عن أهدافه ، فكتب إلى رؤساء الجند بإفريقية يمنى كلا منهم بالولاية، ويحرضهم على الثورة . ونجحت سياسته إلى أبعد الحدود فاستمال كافة جند الفضل وأسرع بالزحف إلى القيروان ، فدخلها دون عناء . وأمن الفضل وأصحابه وأمرهم

١٩– حسين مؤنس : ثورات البربر فى إفريقية والأندلس ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ١٠ ج١ ص١٨٢ .

٢٠– البيان المغرب ج١ ص٨٣ .

٢١– نفسه ص٨٤ ، الاستقصا ج١ ص١١٥ .

٢٢– الكامل ج٥ ص٢٦ .

٢٣– نفسه ص٩٥ .

٢٤– الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٦ ص٤٦١ ، الكامل ج٥ ص٩٥ .

بالرحيل إلى قابس ، لكنه غدر بهم وقتلهم سنة ١٧٨هـ [٢٥]. وبموت الفضل بن روح انقرضت أسرة آل المهلب[٢٦].

وترك مصرع الفضل وقعًا سيئًا فى نفوس بعض قواد الجند، فخرجوا على ابن الجارود ولحقوا بالأربس ، وقدموا عليهم العلاء بن سعيد والى الزاب. فخرج على رأس جيش كبير من البربر لاسترداد القيروان[٢٧].

ولما رأى الرشيد ما ساد إفريقية من فوضى بسبب فتنة ابن الجارود، أرسل هرثمة بن أعين واليا على البلاد، وبصحبته عيسى بن موسى . وما أن نزل هرثمة برقة حتى أعلن ابن الجارود اعترافه بولايته، وخضوعه لطاعة الخليفة، وبرر وجوده بالقيروان بحجة حمايته لها من العلاء بن سعيد ؛ بل طالب أن يتسلم عيسى بن موسى المدينة[٢٨] كدليل على حسن نواياه .

وتسابق القائدان عيسى بن موسى والعلاء بن سعيد فى الزحف إلى المدينة، كل يبغى الوصول إليها قبل الآخر، غير أن العلاء سبق إلى دخولها ونكل بمن كان بها من أتباع ابن الجارود الذى لم يجد بدأ من الرحيل إلى طرابلس للقاء هرثمة ، لكن هرثمة بعث به إلى بغداد مكبلاً بالأغلال[٢٩]، وكافأ العلاء بن سعيد على حسن بلائه.

أما هرثمة فقد سار إلى القيروان فى ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ، فأمن الناس وأخمد الفتن ، وبنى القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠هـ، وأقام سوراً حول مدينة طرابلس [٣٠]، ولما رأى ما

٢٥- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٥ ، الطبرى ج٦ ص٤٦١ ، الكامل ج٥ ص١٠٨ ،

٢٦- الاستقصا ج١ ص١٢١ .

٢٧- يعتبر نجاح العلاء فى تكوين جيش من البربر يعمل فى صالح الخلافة تطورا جديدا فى موقف البربر فى إفريقية من العباسيين ، فثوار الأمس أصبحوا سندا للولاة فى ردع فتن الجند.

٢٨- الكامل ج٥ ص٩٦ .

٢٩- الكامل ج٥ ص٩٦ ، البيان المغرب ج١ ص١٠٩ ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٩٠ . وقد أورد الطبرى رواية نشك فى صحتها ، فيقول بأن «يحيى البرمكى- وزير الرشيد- بعث الرسل إلى ابن الجارود يرغبه فى الطاعة والتخويف للمعصية حتى قبل الأمان وعاد إلى الطاعة وقدم إلى بغداد، فوفى له يحيى بما ضمن وأحسن إليه، وأخذ له أمانا من الرشيد ، ووصله ورأسه» : أنظر : تاريخ الأمم والملوك ج٦ ص٢٤٧ .

٣٠- ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص٤٧ ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٨٩ .

يتهدد البلاد من أخطار ، كتب إلى الرشيد طالبًا إعفاءه من الولاية ، فاستجاب له، وغادر هرثمة إفريقية سنة ١٨١هـ [٣١].

مما سبق يتبين أن الخلافة العباسية- بمشاكلها فى المشرق- ساعدت على أن تبلغ الأحداث فى إفريقية الصورة السيئة التى وصلت إليها ، ولولا الجهود التى بذلها الأمراء المهلبيون فى قمع البربر لآل مصير إفريقية إلى ما آل إليه المغرب الأوسط والأقصى ، ولو قدر لحركات الجند أن تتحد حول هدف واحد لأمكنها الاستقلال بإفريقية . ويبرر لويس[٣٢] عجز الخلافة عن مواجهة الأحوال فى المغرب «بافتقارها إلى قوة بحرية فعالة تستطيع أن تبعث بالإمدادات إلى الفرق الموالية لها، البعيدة عنها فى شمال أفريقيا»، ولعل ذلك يفسر إخفاق العباسيين فى حسم الموقف، بالرغم من الحملات الكثيرة التي والوا إرسالها بين الحين والحين، ومشاهير القواد ورجال الخلافة الذين اختاروهم لقيادة تلك الجيوش[٣٣].

وقد اضطربت الأحوال الاقتصادية فى إفريقية بسبب ثورات البربر المتوالية، والفتن التى استشرت بسبب غارات سكان الجبال والبدو على المدن والسهول، ومن ثم فقد تقلصت الرقعة الزراعية، وكسدت التجارة لعدم استتباب الأمن . والحقيقة أن إفريقية ورثت تلك الأحوال السيئة منذ بداية الفتح العربى ، وزادت ثورة كسيلة وثورة الكاهنة فى تفاقمها، وازداد الأمر سوءا بتعسف الأمويين فى سياستهم المالية[٣٤] . ومما يدل على سوء الحالة الاقتصادية أن ولاة المغرب اعتمدوا على الإعانة السنوية التى كانت ترد من مصر، وقدرها مائة ألف دينار[٣٥] . وقد قام بعض الولاة العباسيين بإصلاحات اقتصادية تهدف إلى الارتفاع بالمستوى الاقتصادى لأهل إفريقية ، فلاشك أن الأحوال قد استقرت نوعا ما إبان ولاية محمد بن الأشعث ، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلا [٣٦]. وما قام به يزيد بن حاتم من جهود فى هذا الصدد لم تتعد

٣١- الكامل ج٥ ص٩٦ .

٣٢- القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط، الترجمة العربية ، ص١٦٢ .

٣٣- البيان المغرب ج١ ص٨٣ .

٣٤- نفسه ص٥٢ .

٣٥- الكامل ج٥ ص٦٣ .

٣٦- البيان المغرب ج١ ص٨٤ .

أثارها مدينة القيروان فى مجال التجارة[٣٧]، ومزارعه وضياعه الخاصة فى مجال الزراعة[٣٨]. وازدادت أحوال إفريقية الاقتصادية سوءا بعد ولاية يزيد بسبب تفاقم ثورات الخوارج وفتن العسكر، حتى عجز بعض الولاة عن دفع رواتب الجند[٣٩]. وجدير بالذكر أن هذا الكساد الذى ساد إفريقية كان يقابله رخاء عظيم حققته دول البربر المستقلة ، وخاصة الدولتين المدرارية والرستمية .

وشهدت الأحوال الاجتماعية فى إفريقية فى ذلك الحين تطوراً ملموسا: فالبربر وهم السكان الأصليون الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان إفريقية استكانوا وهدأت ثوراتهم ، ولم يعد لهم وزن كبير فى الحياة السياسية . فما كادوا يفيقون من مذابح ابن الأشعث سنة ١٤٦هـ[٤٠]، إلا ليبطش بهم يزيد بن حاتم سنة ١٥٦هـ[٤١]. وبلغ الأمر مداه فى عهد آل المهلب «فانحصدت شوكة البربر، واستكانوا للغلب» [٤٢]، وظلوا كذلك حتى قيام دولة الأغالبة [٤٣]. أما العرب- وأغلبهم من اليمنية- فقد دخلوا المغرب مع الفتح ، واستقروا فى المدن الرئيسية [٤٤]، وجلبوا معهم خلافاتهم القبلية [٤٥]. لكنهم استكانوا طوال العصر العباسى. واحتل الفرس والخراسانيون مكان الصدارة فى إفريقية ، وقد قدموا مع ولاة بنى العباس [٤٦]، فجيش ابن الأشعث كان به ثلاثون ألفا من جند خراسان[٤٧]، كما قدم مثل هذا العدد أيضا مع يزيد بن

٣٧- فتوح البلدان ص٢٧٥ ، البيان المغرب ج١ ص٩٥ .

٣٨- البيان المغرب ج١ ص٩٧ .

٣٩- نفسه ص١١١ .

٤٠- نفسه ص٨٥ .

٤١- الكامل ج٦ ص٢٢ .

٤٢- العبر ج٦ ص٢٢ .

٤٣- Vonderyden : Op. cit, p. 90 .

٤٤- Hopkins : La Tunisie dans le haut moyen âge p. 71 .

٤٥- Marcais : L'Afrique du nord Francaise dans l'histoire. p. 141 .

٤٦- اليعقوبى : البلدان ص٣٥٠ .

٤٧- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص٣١٢ .

حاتم [٤٨]. واستمر الصراع بين الخراسانيين والعرب حتى قيام دولة الأغالبة، ولم يخفف من حدة هذا الصراع إلا رحيل معظمهم إلى صقلية فى حملة زيادة الله بن الأغلب عام ٢١٢هـ أما البقية من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين فقد عاشوا فى عزلة معتصمين بالقلاع القديمة كطبنة وباغاية وانصرفوا عما يدور فى البلاد من أحداث [٤٩].

قصارى القول أن الأحوال فى إفريقية عشية قيام دولة الأغالبة كانت ممهدة تماما لتقبل وضع جديد ، فسلطان الخلافة أصبح لايتعدى نهر الزاب بعد انفصال المغربين الأوسط والأقصى ، بل بات نفوذ الخلافة داخل إفريقية تتهدده ثورات الجند على ولاة القيروان وأطماع الأدارسة . وكان على الخلافة العباسية أن تلتمس حلا، فلم تجد خيرا من تولية إبراهيم بن الأغلب- حاكم الزاب- على إفريقية فى ظل نظام جديد.

* * *

٤٨- البيان المغرب ج١ ص٧٨ ، ٧٩ .

٤٩- Vonderheyden : Op. cit. p. 8 .

ثانيًا : تولية إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية

ينسب الأغالبة إلى الأغلب بن سالم التميمى، وهو عربى من قبيلة تميم التى أسهمت فى القضاء على الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية. وكان الأغلب بن سالم من أصحاب أبى مسلم الخراسانى ومن أشجع رجاله[٥٠]، ثم شغل مركزاً مرموقا فى جيش محمد بن الأشعث بمصر، ويبدو أنه أقام بمصر ونقل إليها أسرته[٥١]. ولما ساءت أحوال إفريقية من جراء ثورات الخوارج أمر الخليفة المنصور محمد بن الأشعث بإقرار الأمور فيها ، فخرج وبصحبته الأغلب بن سالم من مصر على رأس جيش كبير تمكن من قمع الفتن، ثم ولاه ابن الأشعث بلاد الزاب فاتخذ من طبنة مقرا له[٥٢].

ولما ثار جند الخلافة على ابن الأشعث فى عام ١٤٨هـ، وأجبروه على مغادرة البلاد[٥٣]، عهد المنصور إلى الأغلب بولاية إفريقية ، وأوصاه بتحصين مدينة القيروان وتنظيم الدفاع عنها، فغادر طبنة إلى القيروان وتمكن من القضاء على فتن الجند المضرية[٥٤].

وواصل الأغلب سياسة سلفه فى قمع ثورات الخوارج ، ففى عام ١٥٠هـ لاحق الخوارج الصفرية الذين استفحل خطرهم بعد أن بايعوا أبا قرة المغيلى بالخلافة وأيده الزناتيون بتلمسان. وقد فر أبو قرة برجاله إلى المغرب الأقصى واعتصم بطنجة ليستدرج الأغلب إلى ديار الصفرية ثم يقضى عليه. ولم يتوان الأغلب عن اقتفاء أثره، لكن جنده ثاروا عليه واضطروه إلى العودة إلى القيروان[٥٥]. وعندما علم الأغلب بما حدث كتب إلى الحسن بن حرب يدعوه إلى طاعته فلم يستجب ، وكتب إلى الخليفة فى شأنه ولكن ابن حرب لم يرضخ

٥٠- فتوح البلدان ص٢٧٥ ، الكامل ج٥ ص٢٦ ، Amari , Storia dei Musulmani di Sicili, vol. I. p. 268 .

٥١- Venderheyden : Op. cit. p. 7 .

٥٢- الاستقصا ج١ ص١١٦ .

٥٣- البيان المغرب ج١ ص٨٦ .

٥٤- الكامل ج٥ ص٢٦ .

٥٥- الاستقصا ج١ ص١١٦ .

لأوامر الخليفة. ثم استطاع الأغلب أن يطرد الثوار من القيروان[٥٦]. فعاد الحسن أدراجه للانتقام من الأغلب ، ودارت معركة فى سنة ١٥٠هـ بين الطرفين أصيب فيها الأغلب بسهم طائش مات على أثره متأثرا بجراحه ، فحزن عليه جنده ولقبوه «بالشهيد»[٥٧].

وخلف الأغلب طفلا فى العاشرة من عمره هو ابراهيم ، وهذا يعنى أن إبراهيم هذا ولد حول عام ١٤٠هـ. وإذا كان الغموض يكتنف نشأة إبراهيم بن الأغلب الأولى فمما لاشك فيه أنه رحل إلى مصر بعد وفاة أبيه، ويذكر ابن عذارى[٥٨] أنه تتلمذ على فقهائها ، ولما بلغ مبلغ الرجال انتظم فى سلك الجندية ، لكنه لم يمكث بها طويلا فغادرها إلى إفريقية [٥٩]، ونزل بإقليم الزاب[٦٠].

ويرتبط ظهور إبراهيم بن الأغلب على مسرح الأحداث فى إفريقية بخدمته فى جيوش بنى المهلب، فقد اشترك ابراهيم فى حملة العلاء بن سعيد لقمع فتنة ابن الجارود الذى خرج على الأمير الفضل المهلبى. ويذكر فندرهيدن[٦١] أن «ابراهيم بن الأغلب- حاكم الزاب- الذى آل إليه جيش الفضل المهلبى اتخذ من العلاء أداة لتحقيق مطامعه، ومن ثم فمن المحتمل أن يكون هو المحرض فى الخفاء لحملة العلاء». لكن ليس ثمة أدلة تقطع بأن إبراهيم قد تولى إمرة الزاب قبل ولاية هرثمة بن أعين [٦٢]، أو أنه كان يتطلع إلى إمارة إفريقية، فحملة العلاء

٥٦- البيان المغرب ج١ ص٨٧ .

٥٧- فتوح البلدان ص٢٧٦ ، الكامل ج٥ ص٢٦ .

٥٨- البيان المغرب ج١ ص١١٦ .

٥٩- ومن شعر ابراهيم فى هذا الصدد:

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا وذكرك يثنى دائما عنقى

ولا ذكرتك إلا بت مرتقبا أرعى النجوم كأن الموت معتنقى

أنظر : البيان المغرب ج١ ص١١٦ .

٦٠- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٦ .

٦١- La Berberie Orientale pp. 10-11 .

٦٢- ذكر ابن الأثير أن إبراهيم بن الأغلب كان بولاية الزاب سنة ١٨٠هـ، وأنه لاطف هرثمة وقدم له الهدايا فولاه ناحية الزاب. أنظر : الكامل ج٥ ص٩٦ .

بن سعيد تحركت من الزاب فى الوقت الذى وصل فيه هرثمة إلى طرابلس ، ولم يكن من المعقول أن يحاول ابراهيم تحقيق تطلعاته أثناء وجود هرثمة بالبلاد .

ومن المحتمل أن تكون مطامع إبراهيم فى ولاية إفريقية قد وضحت بعد رحيل العلاء إلى المشرق والتفاف الجند البربر من حوله[٦٣]. غير أن وجود هرثمة كان كفيلاً بأن يحول دون تحقيق هذه المطامع . وبرحيل هرثمة سنة ١٨١هـ ظهرت مطامع إبراهيم سافرة ، وكانت أهدافه فى تولى إفريقية مقترنة بمساعدة قضية الخلافة العباسية، لذلك آزر العكى حين ثار عليه الجند حتى استعاد الولاية رغم سخط القيروانيين .

ذلك أن الرشيد لما أعفى هرثمة ، بعث أخاه فى الرضاعة محمد بن مقاتل العكى واليا على القيروان فى رمضان سنة ١٨١هـ [٦٤]. ولم يكن هذا الاختيار موفقًا ، فقد أخفق العكى تمامًا لما عرف عنه من سوء الخلق وفساد السيرة، فأغضب الجند بسبب قطع أرزاقهم ، وإساءة معاملتهم [٦٥]،وينسب إليه أنه ضرب البهلول بن راشد بالسياط حتى الموت، فناصبه فقهاء المالكية العداء[٦٧]، ولجحوا فى تحريض أهل القيروان على الثورة[٦٨].

وكانت ثورات الجند هى الخطر الحقيقى الذى هدد حكم العكى ، وقد تمكن من قمع ثورة مخلد بن مرة الأزدى [٦٩]، فالتف جند الشام وخراسان حول عامل تونس تمام بن تميم التميمى، وأعلنوا الخروج عن طاعته . وفى منتصف رمضان سنة ١٨٣هـ سار تمام بجنده وألحق الهزيمة بجيش العكى، ثم دخل القيروان ونصب نفسه واليًا عليها بعد أن أمن العكى على نفسه وأهله، وغادر العكى القيروان إلى طرابلس[٧٠] .

٦٣- نفس المصدر والصفحة.

٦٤- البيان المغرب ج١ ص١١١ .

٦٥- نفس المصدر والصفحة .

٦٦- المالكى : رياض النفوس ج١ ص١٤١ ، ١٤٢ ، الدباغ : معالم الإيمان ج١ ص٢٠٦ ، ٢٠٧ .

٦٧- المالكى : نفس المصدر والصفحة ، الدباغ : نفس المصدر والصفحة.

٦٨- Idris : La vie intellectuell et administrative a'Kairouan sous les Aghlabites et les Fatimids, Revue des etudes islamiques, 1935 , 36 , p. 71 .

٦٩- الكامل ج٥ ص١٠٤ .

٧٠- البيان المغرب ج١ ص١١٣ .

وكاد الأمر أن ينتهي عند هذا الحد ، فالوالي المطرود أسقط في يده، ولم يعد بوسعه استرداد نفوذه بسبب قوة تمام وتأييد البربر له باعتباره مخلصا لهم من ظلم ابن مقاتل . لكن ابراهيم بن الأغلب حاكم الزاب أيد العكي، إذ لم يكن من المنتظر أن يقبع آمنا في طبنة بمنأى عن الأحداث ، بل كان يتابع تلك التطورات الخطيرة ويرقبها باهتمام ، وقد وجد فيها الفرصة السانحة فيغتصب الولاية بالقوة ، لكنه عمل على تحقيق أطماعه بطريقة مشروعة ، وفي إطار الولاء للخلافة العباسية.

فلما سمع إبراهيم نبأ تغلب تمام وطرد العكي، خرج قاصداً القيروان للقاء تمام، لكن تماما غادرها على عجل واتجه إلى تونس، فدخل إبراهيم القيروان وأعلن مناصرته للوالي الشرعي المطرود ، وبعث إلى العكي ليعود إلى مقر ولايته[٧٢]، غير مبال بتبرم أهل القيروان .

ولما عاد العكي إلى القيروان ، هرب نفر من سكانها ولحقوا بمعسكر تمام في تونس [٧٣]. ويذكر النويري[٧٤] أن تمام استطاع « إفساد » سكان القيروان على العكي، في الوقت الذي تضاعف فيه أتباعه ومناصروه. ولم يدخر تمام وسعًا في محاولة الإيقاع بين العكي وإبراهيم ، فبعث برسالة[٧٥] إلى العكي يوغر فيها صدره على إبراهيم، ويكشف عن مطامعه في ولاية

٧١- Fournel : Les Berbers . vol . 2 .p. 411 .

٧٢- النويري : نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٦ مخطوط .

٧٣- البيان المغرب ج١ ص١١١ .

٧٤- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٦ .

٧٥- كتب تمام إلى العكي يقول :

«.. أما بعد ، فإن ابراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردك من كرامتك عليه، ولا للطاعة التي يظهرها للخليفة ، ولكن كره أن يبلغ إليك أخذه البلاد فيرجع إليه، فإن منعك كان مخالفا لأمير المؤمنين ، وإن دفعها إليك كان ما فعله لغيره، فبعث إليك لترجع ثم يسلمك إلى القتل، وغداً ما جربت من وقعتنا لك بالأمس...»
وفي آخر كتابه:

«وما كان إبراهيم عن فضل طاعة ... يرد عليك الملك إلا لتشقلا

فلو كنت ذا عقل وعلم بكيده ... لما كنت منه يا ابن عك لتشقلا»

أنظر: ابن الأبار : الحلة السيراء ص٢٢٤ .

إفريقية ، وأنه ليس إلا أداة لتحقيق هذه المطامع ، كما بعث تمام إلى ابن الأغلب[٧٦] يستعطفه، ويحضه على تولى أمور البلاد .

والحق – أن مطامع إبراهيم لم تخف على فطنة العكى، فالرسالة التى بعثها إليه تمام لم تخل من الحقيقة . لكنه تجاهل الأمر ، إذ لم يكن فى مقدوره أن يشهر السيف فى وجه ولى نعمته ، لذلك رد[٧٧] على رسالة تمام مشيداً بإبراهيم ، مثنيًا على فروسيته وشجاعته.. ورسالة إبراهيم فى الرد على تمام[٧٨] تضمنت تسفيه رأيه وتهديده باللقاء المرتقب .

٧٦- ضمن تمام كتابه إلى ابن الأغلب هذه الأبيات :

أقدم إبراهيم علما بفضله ... وحق له فى الأمر أن يتقدما

وقلت له فاحكم فحكمك جائز ... فقد أصبحت فينا مقدما

ورد فى بلاد الزاب ما شئت قادرا ... وإن شئت ملك الغرب خذه مسلما

أنظر : الحلة السيراء ص٢٢٥ .

٧٧- رسالة العكى فى الرد على تمام :

«من محمد بن مقاتل إلى الناكث تمام، أما بعد فقد بلغنى كتابك ، ودلنى ما فيه على قلة رأيك ، وفهمت قولك فى إبراهيم ، فإن كتبت نصيحة ، فليس من خان الله ورسوله وكان من المفسدين بمقبول ما ينتصح به ، وإن كانت خديعة ، فأقبح الخداع ما فطن له، وأما ما ذكرت من إسلام إبراهيم إذا التقينا ، فلعمر أبيك ما يلقاك أحد غيره ، وأما قولك أنا جربنا من وقعتك أمر ما سنعرفه غدا ، فإن الحرب سجال ، قلنا يا تمام عليك العقبى إن شاء الله...» . واختتم العكى رسالته بهذه الأبيات:

إنى لأرجو إن لقيت ابن أغلب ... غداة المنايا أن تفل وتقتلا

تلاقى فتى يستصحب الموت فى اللقا ... ويحمى بصدر الرمح مجداً مؤملا

أنظر : نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٥ ، ٢٦ .

٧٨- تضمنت رسالة ابن الأغلب إلى تمام هذه الأبيات :

دعوت إلى ما لو رضيت بمثله ... لما كنت يا تمام فيه مقدما

سأجعل حكمى فيك ضربة صارم ... إذا ما علا منك المفارق صمما

ستعلم لو قد صافحتك رماحنا ... بكف المنايا اينا كان أظلما

أنظر : الحلة السيراء ص٢٢٥، ٢٢٦ .

ولما لم تثمر حيل تمام في الإيقاع بين العكى وابراهيم، عقد العزم على مواجهتهما بما لديه من قوة . فغادر تونس قاصداً القيروان، والتقى بقوات العكى وابراهيم، فهزم تمام وعاد من حيث أتى . ثم خرج إبراهيم إلى تونس في المحرم من عام ١٨٤ هـ وأسر تمام [٧٩]، ووضع حدا لثورة جند الشام وخراسان . وكان القضاء على هذه الثورة ، وإرسال زعمائها مكبلين بالأغلال إلى بغداد[٨٠] خدمة جليلة أسداها إبراهيم للخلافة، وعملا على تدعيم نفوذها في المغرب .

وبعد أن استقرت الأمور للعكى، عول إبراهيم على الكيد لدولة الأدارسة العلويين تمشياً مع سياسة الرشيد في إثارة المتاعب في وجههم . ومن المعروف أن الرشيد تم له اغتيال إدريس الأول على يد أحد صنائعه، ولايخالجنا شك في إسهام إبراهيم بن الأغلب في هذا العمل، وفضلا عن ذلك فإنه صاحب اليد الطولى في تدبير اغتيال راشد مولى إدريس عن طريق بذل الأموال والهبات [٨١].

والثابت أن هذا الحادث وضع حداً لعلاقات المودة بين العكى وإبراهيم ابن الأغلب ، ذلك أن العكى غمط فضل إبراهيم في اغتيال راشد وادعاه لنفسه، فقد بعث إبراهيم من مقره في الزاب رأس راشد إلى العكى بالقيروان، وقد بعثها العكى بدوره إلى الرشيد مفاخراً بهذا الصنيع ، فلم يجد إبراهيم بدا من أن يوضح الحقيقة للخليفة [٨٢]، وأيده صاحب البريد في القيروان[٨٣]، فقرر الخليفة عزل العكى وتولية إبراهيم الإمارة.

٧٩- البيان المغرب ج١ ص١١٥ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٦ .

٨٠- النويرى : المرجع السابق ورقة ٢٦ ، . Amari : Op. cit. p. 270

٨١- الحلة السيراء ص٢٣٥ .

٨٢- تضمن كتاب إبراهيم إلى الخلافة في هذا الصدد هذه الأبيات :

ألم ترني أرديت بالكيد راشدا	وأني بأخرى لابن إدريس راصد
فتاه أخو عك بمهلك راشد	وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد

أنظر : الحلة السيراء ص٢٣٣ ، الاستقصاء ج١ ص١٤٧ .

٨٣- السلاوى : نفس المصدر والصفحة.

ويختلف المؤرخون حول الأسباب المباشرة التى أدت إلى تولى ابراهيم الإمارة، فابن الآبار[٨٤] يرى أن فوز ابراهيم بها جاء نتيجة لجاحه فى الكيد للأدارسة ، بينما يرى النويرى[٨٥] أن الرشيد قلده إياها على أثر علمه «بما فعله من نصرة العكى، وإخراج تمام» . على أن الذى لاشك فيه أن ابراهيم بن الأغلب لم يتباطأ فى طلب الإمارة من الرشيد بعد أن قدم للخلافة ما يعزز طلبه، وبعد أن عضده أهل إفريقية لمقتلهم العكى، وشفع إبراهيم طلبه للإمارة بعرض سخى، وهو أن يتنازل عن الإعانة السنوية التى ترد من مصر وقدرها مائة ألف دينار ، بل تعهد بأن يدفع أربعين ألف دينار سنويا للخلافة[٨٦] على أن تكون إمرة إفريقية له ولذويه من بعده .

واستشار الرشيد قواده وخاصته فى هذا العرض قبل أن يقطع فيه برأى، وقد أثنى هرثمة بن أعين على إبراهيم [٨٧]، وأشاد بكفايته وإخلاصه للخلافة[٨٨] وحب الرعية له، فكتب له الرشيد عهدا بولاية إفريقية فى المحرم من عام ١٨٤هـ [٨٩].

وكان من الطبيعى أن يرحل العكى عن القيروان، فيمم وجهه شطره المشرق، غير أنه ما كاد يدرك طرابلس ، حتى زيف له كاتبه داود القيروانى كتابا على لسان الرشيد يتضمن «إقراره فى الولاية، والانصراف إلى عمله»[٩٠]. ولعل هذا يفسر تباطؤ العكى فى الرحيل من المغرب ، الأمر الذى دفع الرشيد إلى الكتابة[٩١] إليه مستقبحًا فعاله، مشيداً بإبراهيم ، وطلب منه العودة إلى بغداد ، وعلى إثر ذلك قفل العكى عائداً إلى المشرق .

٨٤- الحلة السيراء ص٢٣٥ .

٨٥- نهاية الأرب ج٢٢ ، ورقة ٢٧ ، . Brockelman : History of the Islamic people . p. 116

٨٦- الكامل ج٥ ص١٠٤ ، Fournel : Op. cit. vol . I. p. 272 ولا مجال لتصديق ما ذهب إليه بكلر من أن العقد بن إبراهيم والخليفة خلا من أى ارتباطات مالية، انظر : Buckler : Haroun l'Rashid and Charles the great p. 46 .

٨٧- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ .

٨٨- فتوح البلدان ص٢٧٦ .

٨٩- ذكر ابن خلدون أن تولية ابراهيم كان فى فى عام ١٨٥هـ انظر : العبر ج٦ ص١١٣ .

٩٠- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ .

٩١- جاء فى رسالة الرشيد إلى العكى فى هذا الصدد : «فلم يكن آخر أمرك يشبه إلا أوله، فلأى =

نجد تفسيراً مقنعا لما كان من كتابة الرشيد عهداً جديداً بالولاية لابراهيم ، وأغلب الظن أنه فعل ذلك لإزالة الشكوك التى أثارها عهد العكى الزائف، بل يبدو أن العكى كان قد بعث إلى الرشيد كتابا يطلب فيه إبقاءه فى الولاية [٩٢]. ومهما كان من أمر فقد عهد الرشيد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية إفريقية من جديد فى ١٢ جمادى الآخر عام ١٨٤هـ [٩٣].

فما هى الدوافع التى جعلت الخلافة تولى إبراهيم بن الأغلب على هذا النحو ؟ على كل حال لم تكن مشاكل الخلافة فى المشرق هى السبب، فحدود الدولة العباسية كانت قد استقرت بعد أن أمن الرشيد جانب البيزنطيين الذين دفعوا له الجزية . وإذا كان الخزر قد أثاروا المتاعب فى أرمينية سنة ١٨٣هـ، فإنهم ما لبثوا أن أذعنوا للطاعة[٩٤] دون عناء ، والبرامكة كانوا لايزالون حتى ذلك الحين يحظون بثقة الرشيد ويتحملون عبء إدارة الدولة المترامية الأطراف بحنكة واقتدار . لهذا لايمكننا أن نأخذ برأى بيورى[٩٥] وآمارى[٩٦] الذى يعزو قيام دولة الأغالبة إلى مشاكل الخلافة فى المشرق. ولم يكن الأمر - كما يذهب الدكتور مؤنس [٩٧]- متعلقًا بسياسة الرشيد التى كانت ترمى إلى تصفية الجناح الغربى من الدولة الإسلامية بعد أن نفضت الخلافة يدها من شؤون البحر المتوسط وخرجت من ميدانه . فالرشيد لم يعترف بالوضع الجديد إلا ليحافظ على ما تبقى للخلافة من نفوذ فى المغرب . كذلك لم يكن عرض إبراهيم بن الأغلب المالى سببًا فيما حدث، ذلك أن الرشيد ربما أغدق على أحد الشعراء بما يزيد على

= مناقبك أو ثرك على ابراهيم بولاية الثغر؟ ألفرارك وإقدامه ، أم لجزعك وصبره، أم لخلاقك وطاعته ؟ فإذا نظرت فى كتابى، فأقدم غير محمود الفعال» انظر : نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ .

٩٢- يتضح ذلك من كتاب الرشيد السابق إلى العكى الذى توحى صياغته بأنه رد على كتاب من العكى.

٩٣- الحلة السيراء ص٢٢٧ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ .

٩٤- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٢٨٨ .

٩٥- A history of the Eastern Roman empire vol . I pp. 232 , 244 , ff,

٩٦- Storia dei Musulmani di Sicili . vol . I, p. 116 .

٩٧- المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية : المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ ص٨٦ .

أضعاف هذه الأموال[٩٨] التى تعهد ابراهيم بدفعها للخلافة سنويا، بل ليس من شك فى أن الحالة المالية للخلافة فى عهد الرشيد كانت أحسن بكثير مما كانت عليه أيام المنصور[٩٩].

ولكن يمكن فهم ما حدث فى ضوء التطورات التى وقعت فى المغرب منذ قيام الخلافة العباسية كانسلاخ المغربين الأوسط والأقصى، وتربص دولة الأدارسة وتهديدها بالقضاء على نفوذ الخلافة فى إفريقية [١٠٠]، فالأدارسة كانوا يطمعون فى توحيد المغرب والمشرق فى ظل دولة علوية واحدة [١٠١]، هذا فضلا عن تفاقم فتن الجند فى إفريقية، وتشكيلهم خطراً مستمراً على ولاة القيروان. كل ذلك حدا بالخلافة إلى تسليم زمام الأمور فى إفريقية إلى جندى يشهد ماضيه بالإخلاص لها، والعمل على نصرتها وتثبيت نفوذها فى بلاد المغرب.

وليس من المستبعد - كما يعتقد فندرهيدن [١٠٢]- أن تكون الخلافة إزاء فشلها فى مواجهة تلك الأوضاع الجديدة فى المغرب، قد راودتها هذه الفكرة، فكرة خلق أسرة موالية لها بالمغرب.

كانت الخلافة حريصة على الحفاظ على ما تبقى من نفوذ فى إفريقية، وكان إبراهيم بن الأغلب يراوده أمل الظفر بتأسيس ملك وراثى، وقد تحققت هذه الآمال بفضل ما وصل إليه من مكانة مرموقة، وبفضل جيش الزاب الذى مكنه من الظهور على المسرح كأقوى شخصية تلعب الدور الواضح فى إفريقية منذ رحيل هرثمة، هذا فضلا عن تعلق البربر به كقائد يحقق لهم أمانيهم فى الاستقلال الذاتى[١٠٣].

٩٨- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٢٨٥، ٢٨٦ .

٩٩- ابن الصابئ : رسوم دار الخلافة ص٣٠ .

١٠٠- الأصطخرى : المسالك والممالك ص٣٧ .

١٠١- ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص١٧ حاشية . وقد أورد الدكتور أحمد مختار العبادى نص رسالة وجهها إدريس الأول إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر.

١٠٢- La Berberie Orientale p. 8 .

١٠٣- يبالغ الأنصارى فى تصوير تعلق البربر بإبراهيم فيقول بأن ابن الأغلب لم يطلب إمرة أفريقية من الرشيد إلا استجابة لإلحاح سكانها ، أنظر : المنهل العذب ج١ ص١٣ .

وإذا كان إبراهيم قد حقق غرضه، فإنه لم يتنكر للخلافة ، بل وفى التزاماته قبلها فقد خطب للخليفة على المنابر ، ورفع شعار بنى العباس، ولم ينقطع عن دفع الإتاوة السنوية ، ونقش اسم الخليفة على السكة، وأطلق على حاضرته الجديدة اسم العباسية، ولم يتوان فى الكيد للأدارسة جريا على سياسته فى إرضاء الخلافة، ونجح إلى درجة كبيرة فى إثارة العراقيل والقلاقل لجيرانه فى المغرب عن طريق المكائد والدسائس . فلا غرابة إذا رضيت الخلافة عن حكمه ، وساعدته فى الأزمات العصيبة التى صحبت قيام الدولة، وأمدته بالأموال ليوطد نفوذه.

وقيام دولة الأغالبة لم ينته بولاية إبراهيم ، إنما استغرق عهود الأمراء الثلاثة الذين صادفوا الكثير من العراقيل والمتاعب التى كانت كفيلة بالقضاء على ما حققه إبراهيم من نجاح . وأهم هذه المتاعب شغب الجند وثوراتهم على الأمراء الأغالبة ، وقد فطن ابراهيم منذ البداية لخطرهم وما يمكن أن يحدثوه من متاعب ، فعول على أن يتخذ من الحذر والحيطة ما يحقق له الأمان، فغادر القيروان وأنشأ مدينة القصر القديم[١٠٤] على بعد ثلاثة أميال منها اتقاء لشرهم ، وغدت المدنية الجديدة أشبه بقلعة منيعة بعد أن نقل إليها حرسه الخاص ومن وثق بهم من الجند، كما زودها بالمؤن والسلاح، واتخذها عاصمة لإفريقية ومقراً للإمارة[١٠٥].

ومن الأساليب الدفاعية التى اتخذها إبراهيم لمواجهة الجند، اعتماده على جيش من السودان الذين استكثر من شرائهم[١٠٦] لعدم ثقته فى الجند العربى، وتخوفه منهم،

١٠٤- وتعرف هذه المدينة أيضا بالعباسية، وتقع غربى القيروان ، وقد ذكر البكرى أنها مزدانة «بالمسجد الجامع والحمامات والفنادق والأسواق.. ولها خمسة أبواب حصينة ، وداخلها رحبة واسعة تعرف بالميدان» .

أنظر : المغرب ص٢٨ .

١٠٥- البيان المغرب ج١ ص١١٩ .

١٠٦- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٧ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ ،

Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale p. 25 , Vonderheyden : Op. cit,p. 235 .

وقد تشبه ابراهيم بن الأغلب بالخلافة العباسية فى شراء جند خاص، ومن المعروف أن الخلفاء اعتمدوا على العناصر غير العربية كالترك وغيرهم ، كما عمد الأمراء الأمويين بالأندلس إلى إحاطة أنفسهم بالأعاجم أو =

ورغبته فى إضعافهم [١٠٧].

وقد صح ما توقعه منهم، فما لبثت أولى ثوراتهم أن اندلعت فى تونس سنة ١٨٦هـ وقد تزعمها أحد القادة العرب[١٠٨] ويدعى حمديس الكندى [١٠٩]. وكانت حركته خروجا على التبعية العباسية إنهاء لنفوذها فى إفريقية [١١٠]، وقد أرسل إبراهيم قائده عمران بن مخلد لمواجهته، فتمكن من قتله والتنكيل بأتباعه ثم دخل تونس، وكان القضاء على هذه الفتنة انتصاراً للخلافة، وتثبيتا لنفوذها فى المغرب[١١١].

وفى سنة ١٩٤ هـ خرج عمران بن مخلد على إبراهيم بن الأغلب حقداً على ما وصل إليه من مكانة [١١٢]. فقد كان عمران من خيرة رجال الأمير وكبار قواده، وحظى بمكانة بين الجند ، فلما أعلن الخروج ، انصاع له غالبيتهم ، فاستولى على القيروان ، وبلغ من استفحال خطره أنه حاصر إبراهيم عامًا كاملاً فى قلعته بالعباسية ، ثم حاول إغراء الفقهاء لتأييده[١١٣].

وقد أرسل الرشيد لإبراهيم الأموال، فاستعان بها على مقاومة عمران[١١٤]. وبعد أن

= «الحرس» ، وجدير بالذكر أن السودان عرفوا من قبل فى إفريقية الرومانية والبيزنطية ، أنظر :

Vondertheden : Op. cit , p. 197 .

١٠٧- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ ، Amari : Op. cit, vol . I , p. 270 .

١٠٨- الحلة السيراء ص٢٣٧ .

١٠٩- أورده النويرى «حمديس»، أنظر : نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ ، وابن الآبار «خريش الكندى» أنظر : الحلة السيراء ص٢٣٧ .

١١٠- الكامل ج٥ ص١٠٤ .

١١١- الحلة السيراء ص٢٣٧ .

١١٢- ذكر ابن الأثير أن عمرانا «ركب يوما مع ابراهيم ، وجعل يحدثه فلم يفهم شيئا من حديثه لاشتغال قلبه بهم كان له، فاستعاد الحديث من عمران فغضب وفارق إبراهيم وثار عليه» أنظر : الكامل ج٥ ص١٠٥ .

١١٣- الكامل ج٥ ص١٠٤ ، الحلة السيراء ص٢٤٠ .

١١٤- فتوح البلدان ص٢٧٦ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٨، Fournel : Op, cit , vol. 2 p. 468 .

انصرف عنه جنده لم يجد بدا من الهرب إلى الزاب، ودخل إبراهيم القيروان فخلع أبوابها وهدم أسوارها إمعانًا فى الانتقام[١١٥].

لم تكن حركة عمران بن مخلد آخر ما واجهته الإمارة من مشاكل فى عهد أميرها الأول، فطرابلس ما لبثت أن عمتها الاضطرابات ، إذ أن الخلافات القبلية التقليدية بين القيسية واليمنية وجدت فى هذه المدينة البعيدة عن مقر الإمارة ما ساعد على إذكاء جذوتها . وتحفل المراجع بالكثير من التفصيلات عن حوادث الشغب التى انتشرت فى المدينة، وما قام به نواب الأمير الأغلبى من جهود للقضاء عليها. ويبدو أن الفشل كان نصيب هذه الجهود بدليل التجاء الأمير إلى الخليفة يطلب العون، ومسير الجند من مصر لمساعدته فى قمع الفتن [١١٦]. وبلغ خطر الجند فى طرابلس عام ١٩٦هـ حد التهديد بانفصالها عن الإمارة ، فلم يجد عبدالله بن ابراهيم بن الأغلب- نائب طرابلس- مناصًا من الاستعانة بالبربر لمواجهة الموقف [١١٧]. وكان تغيير الولاة المستمر يقترن بالمزيد من الثورات ، حتى عمت الفوضى البلاد، وقام البربر بالثورة على جند المدينة وعلى العرب، ووجد عبد الوهاب بن رستم الفرصة مواتية للتدخل إلى جانب هوارة، واحتدم الصراع بين الطرفين ، وبات القسم الشرقى من إفريقية على شفا الخروج عن سلطان الأغالبة بعد تدخل الخوارج الإباضية . وفى تلك الأثناء توفى إبراهيم بن الأغلب[١١٩] واضطر ابنه أبو العباس عبدالله إلى طلب الصلح على أن تكون لابن رستم السيادة على بعض نواحى طرابلس.

هكذا توفى إبراهيم بن الأغلب والخطر لايزال يهدد دولته، ولم يجد إبراهيم خلال الاثنتى عشر سنة التى قضاها فى الإمارة متسعًا لتدعيم الدولة الجديدة ، والقضاء على الأخطار التى طالما هددت بأن تعصف بها، فخطر الجند لم يكن فى الإمكان القضاء عليه دفعة واحدة بسبب

١١٥- الكامل ج٥ ص١٠٥ ، الباجى المسعودى : الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية ص٢٥ .

١١٦- النجوم الزاهرة ج٢ ص١٢٤ ، ١٢٥ .

١١٧- الكامل ج٥ ص١٩٦ .

١١٨- الأنصارى : المنهل العذب ص٧٤ .

١١٩- كانت وفاته فى شوال من عام ١٩٦هـ، وقد بلغ من العمر ست وخمسين عاما .

تفرقهم فى المدن الكبرى، واختلاف أصولهم وميولهم . ولعل هذا يفسر ثوراتهم المتفرقة زمانا ومكانا، وتفاقم هذه الثورات فى النواحى النائية، ، ويفسر أيضا عدم نجاح هذه الثورات- رغم شدتها وكثرتها- فى تحقيق أهدافها وإسقاط حكم بنى الأغلب .

والحق- أن إبراهيم الأول لم يدخر وسعا فى مواجهة هذه الأخطار، فقد جند السودان وبنى القلاع والحصون ، واتبع من الوسائل ما كفل له الاستمرار فى الحكم رغم الأزمات، كما عول على طلب العون من الخلافة، فضلا عن كسبه البربر إلى جانبه واستخدامهم فى حروبه وتحولهم إلى جنود مخلصين للإمارة.

قصارى القول : أن إبراهيم بن الأغلب بفضل ما تمتع به من كفاءة وشجاعة وتقوى[١٢٠] وذكاء، استطاع أن يقيم دولة جديدة، وإذ لم يقدر له أن يوطد دعائمها ، ويقضى على كافة مشاكلها ، فحسبه استطاعته الحفاظ عليها، وتسليمها لخلفائه ليسهموا بدور فى تثبيت كيانها، وتوطيد دعائمها .

* * *

١٢٠- معالم الإيمان ج١ ص٢٦ .

ثالثا : إستقرار الدولة

تابع خلفاء إبراهيم الجهود الشاقة التي بذلها ، فما أن علم أبو العباس عبدالله بن إبراهيم بنبأ وفاة أبيه، حتى عاد مسرعا إلى القيروان وتسلم مهام الإمارة فى صفر سنة ١٩٧هـ(١٢١). وقد ظل أبو العباس فى الإمارة خمس سنوات قضاها مبغضا مكروها من أسرته ورعيته، فقد عمل على إذلال أخيه الأصغر زيادة الله ونكل بأصحابه ، كما أنه فقد ولاء رعيته بسبب جوره وعسفه واشتطاطه فى طلب المال، فقد غالى فى جباية الخراج، ولم يسمع لنصائح الفقهاء ، فظل مكروها طوال ولايته القصيرة إلى أن توفى فى ذى الحجة من عام ٢٠١هـ (١٢٢). وإذا كان عهده قد اتسم بالهدوء والاستقرار ، فقد كان ذلك نتيجة للجهود التى بذلها إبراهيم بن الأغلب من قبل(١٢٣).

بويع زيادة الله بالإمارة فى ذى الحجة من عام ٢٠١هـ (١٢٤) ؛ ليرث تركة مثقلة بالأعباء والمتاعب، فكره الفقهاء للدولة ما لبث أن اشتد، ولم تفلح سياسة بذل الهبات(١٢٥) والإغراء بمناصب الدولة فى كسب ودهم، فقد رفضوا الانصياع لهذه المغريات (١٢٥)، وشكلوا بموقفهم ذلك خطرا على الدولة وذلك لسمو منزلتهم، وارتفاع مكانتهم بين الناس .

أما الجند الذين ركنوا إلى السكون من قبل فى عهد أبى العباس عبد الله، فقد أبوا إلا شهر السلاح فى وجه الأمير الجديد، ويذهب آمارى(١٢٧) إلى أن زيادة الله نفسه مسؤول عن تلك الفتن بسبب ما التزمه من سياسة العنف والقسوة وسفك الدماء. والحق أن الأمير الأغلبى

١٢١- عهد ابراهيم بن الأغلب بالإمارة قبل موته إلى ابنه عبدالله الذى كان يحارب البربر بطرابلس ، وأمر ابنه زيادة الله أن يبايعه ، فلما مات ابراهيم أرسل زيادة الله إلى أخيه يخبره بالأمر ، فعاد لتقلد الإمارة وبايعه زيادة الله. أنظر : الكامل ج٥ ص١٠٥ .

١٢٢- نفس المصدر والصفحة.

١٢٣- الانصارى : المنهل العذب ج١ ص٧٧ .

١٢٤- المكتبة الصقلية ج٣ ص٥٤٠ .

١٢٥- أبو العرب : طبقات علماء افريقية ص٨٦ ، المالكى: رياض النفوس ج١ ص١٦١ .

١٢٦- الدباغ : معالم الإيمان ج٢ ص٢٦ .

١٢٧- Storia dei Musulmani di Sicili , vol . I . p. 279 .

ثم يتبع تلك السياسة عفوا ، بل أرغم عليها إرغاما «لخلافهم على أبيه»[١٢٨] من قبل، وعملهم على إزالة دولته، ولم يكن زيادة الله ليأمن جانبهم وهو يعرف سجلهم الحافل بالفتن وإشاعة الفوضى والقلاقل فى البلاد، حتى أصبح من الأمور المألوفة فى إفريقية آنذاك أن القائد ما يكاد يستشعر القوة والتفاف الأنصار من حوله حتى يعمد إلى الخروج وشق عصا الطاعة [١٢٩]، فلم يكن هناك مفر من العنف والقسوة لردعهم . حقيقة أن زيادة الله أفرط فى قسوته وشدته [١٣٠]، لكنه استطاع بفضل ذلك إقرار أمور الدولة، والقضاء على ما واجهها من متاعب.

ولايخفى أن زيادة الله كان يريد منذ البداية المشاركة فى الجهاد، وابن عذارى[١٣١] يحدثنا أنه بعث بجيش وأسطول لغزو سردينية فى سنة ٢٠٦هـ ؛ غير أنه لم يستطع مواصلة هذه الجهود لما ساد البلاد من الفتن والمؤامرات .

ففى عام ٢٠٧هـ ثار زياد بن سهل وحاصر باجة، وكادت أن تسقط فى يده لولا يقظة الأمير وإعداده العدة للقضاء عليه، فانتكست هذه الثورة، وباءت بالفشل[١٣٢].

وفى عام ٢٠٨هـ خرج عمرو بن معاوية القيسى حاكم القصرين على زيادة الله، واستحوذ على القصرين وما حولها ، واستمر فى تمرده إلى أن ظفر به الأمير فقتله هو وولديه ومثل بهم.

ويذكر المؤرخون[١٣٣] أن قسوة زيادة الله فى التنكيل بعمرو وولديه أدت إلى ثورة منصور الطنبذى فى تونس سنة ٢٠٩هـ، ففى اعتقادهم أن الطنبذى ما قام بثورته إلا انتقاما لما حل بعمرو وولديه، لكن الحقيقة أن هذا الثائر طمع فى اغتصاب الإمارة لنفسه عن طريق استغلال

١٢٨- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٩ .

١٢٩- الحلة السيراء ص٢٤٧ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٩ .

١٣٠- البيان المغرب ج١ ص١٢٣ .

١٣١- نفس المصدر ص١٢٤ .

١٣٢- ابن عذارى : ج١ ص١٢٤ .

١٣٣- ابن الآبار : ص٣٤٧ ، النويرى: ج٢٣ ورقة ٢٩ .

كراهية الجند للأمير ، وحقدهم عليه[١٣٤]، والثابت أن منصور الطنبذى استطاع أن يشحذ همم الجند ويقوم بثورة كبيرة هزت قواعد الإمارة ، وفشلت محاولات الأمير فى ردع الثوار دون إراقة الدماء. وخرج قواد زيادة الله عليه بعد فشلهم فى كبح جماح الطنبذى ، ومضى كل منهم إلى ناحية فتغلب عليها، «واضطربت إفريقية فصارت نارا تتقد»[١٣٥]. ولسنا بحاجة لسرد تفاصيل ثورة الطنبذى، ويكفى أنه الحق الكثير من الهزائم بمعظم الجيوش التى سيرها زيادة الله إليه، ولقى خيرة رجال البيت الأغلبى حتفهم على يد الثوار، ولم يجد الأمير منفذا سوى الاعتصام بقصره مستسلما للأقدار موقنا بضياع ملكه بعد أن انصرف عنه الأتباع وانحازوا إلى معسكر غريمه [١٣٦]، وبعد أن علا شأن الطنبذى وسيطر على إفريقية كلها باستثناء الساحل وقابس [١٣٧]، وقيل إنه ضرب السكة باسمه [١٣٨]. لكن لم يقدر لهذه الثورة أن تحقق أهدافها، فقد انقسم معسكر الطنبذى ، وخرج قواده عليه ، فى نفس الوقت الذى استمد فيه زيادة الله عونا صادقا من بربر نفزاوة [١٣٩]، تمكن بفضله من استعادة البلاد بلدا بلدا. وما لبث الطنبذى أن اغتيل على يد قائده عامر بن نافع[١٤٠] الذى خرج

١٣٤- الكامل ج٥ ص١٨٥ .

١٣٥- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٣٠ .

١٣٦- قال الأمير مخاطبًا أمه فى هذا المعنى:

فاليوم أركب فى الرعاع ولا أرى إلا العبيد ومعشرا أنذالا

أنظر : الحلة السيراء ص٢٥٥ .

١٣٧- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٣٠ .

١٣٨- البيان المغرب ج١ ص١٣٠ . ويرى دى كانديا أن ما ذكره ابن عذارى ينطوى على مبالغة ، حيث لم يعثر على شيء من هذه العملة.

أنظر : Monnaies Aghlabites du Bardo-Revue Tunisienne, 1935 .

غير أننا لانستبعد أن يضرب الطنبذى عملة تحمل اسمه، فقد ظل مسيطرا على إفريقية زمنا طويلا، ومن المحتمل أن يكون الأمراء الأغالبة قد طمسوا معالم هذه العملة بعد فشل ثورته.

١٣٩- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٣٠ .

١٤٠- الكامل ج٥ ص٢١٥ .

عليه، وحظى بتأييد الجند، وتزعمهم بعد موت منصور. ولم يصف الجو لزيادة الله بموت الطنبذى ، فسرعان ما سار عامر سيرته، ورفع لواء العصيان ، ورفض الرضوخ لطاعته ، ولم يثنه عن عزمه سوى تمرد رجاله بزعامة عبد السلام بن مفرج ، وقد هزمه زيادة الله، وما لبث أن مات فى عام ٢١٤هـ، وبموته «وضعت الحرب (فى إفريقية) أوزارها »[١٤١].

ولم يجد زيادة الله صعوبة فى قمع الثورات التى تشبت بعد ذلك، فثورة الفضل بن أبى العنبر بتونس سنة ٢١٨هـ انتهت بمذبحة راح ضحيتها عدد غفير من أهل المدينة وفقهائها[١٤٢]. وفى عام ٢١٩ هـ كان الهدوء يسود البلاد بعد فتن استمرت طيلة ثلاثة عشر عاما [١٤٣]. ثم عفا الأمير عمن خرج عليه أو ناوءه [١٤٤]، وقدر له أن يسترد سلطانه، ويحفظ الدولة مما هددها من أخطار.

واتخذ زيادة الله من الجهود ما دعم أركان دولته ، فإلى جانب مقدرته وكفايته الحربية ، كان رجل بناء وتشييد شغف بالفنون والعمارة والأداب . أما عن جهوده الاقتصادية ، فقد أبطل ما بدأه أخوه عبدالله الذى «قطع العشر حبا ، وجعله ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب»[١٤٥]، وعاد إلى سياسة ربط الخراج بما تغله الأرض وجبايته عينا ، وقد تحسنت أحوال المزارعين نتيجة هذا الإجراء العادل . ومما ساعد على تدعيم هذه الجهود المغانم الوفيرة التى أسفرت عنها حملة صقلية ، فيذكر ابن عذارى[١٤٦] أنها «أصابت سبيًا كثيراً وسائمة كثيرة وكراعا ، وكثرت الغنائم عند المسلمين» ، وليس أدل على مدى الرخاء الذى وصلت إليه إفريقية فى عهد زيادة الله من إنفاقه على مسجد القيروان مائة وثمانين ألف مثقال[١٤٧].

١٤١- ابن الأثير : ج٥ ص٢١٥ .

١٤٢- البيان المغرب ج١ ص١٣٥ .

١٤٣- معالم الايمان ج٢ ص١٣ .

١٤٤- البيان المغرب ج١ ص١٣٥ .

١٤٥- نفسه ص١٢١ .

١٤٦- البيان المغرب ج١ ص١٣٢ .

١٤٧- البكرى: المغرب ص٢٣ ، ٢٤ .

واتخذ زيادة الله من الأساليب ما كفل له رأب الصدع الذى أصاب المجتمع التونسى من قبل ، فقد نجح فى كسب ولاء البربر فانضووا تحت لوائه فى جيش الإمارة [١٤٨]، كما استمال الفقهاء وكسب ثقتهم بعد أن كانوا يناصبون الإمارة العداء فاهتم بمنصب القضاء، وقصره على فقهاء المالكية ، ويؤثر عنه تولية قاضيين فى آن واحد هما أبى محرز وأسد بن الفرات[١٤٩]. وما قام به من تشييد المساجد والأربطة يشهد على تفانيه فى إرضاء الفقهاء، فقد أعاد بناء المسجد الجامع فى القيروان عام ٢٢١هـ دون أن يغير كثيرا من نظامه أو يبدل من حدوده[١٥٠]. ويذكر البكرى[١٥١] «أن زيادة الله أراد هدم المحراب فقيل له أن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه ، فألح فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثر لغيره، حتى قال له بعض البناء، أنا أدخله بين الحائطين ، ولايظهر فى الجامع أثر لغيرك ، فاستصوب ذلك وفعله ولم يمسه بسوء» . والحق - أنه بالغ فى تجميله حتى صار آية فنية رائعة أثارت إعجاب المعاصرين وامتدت شهرة هندسته وزخرفته إلى مسامع البيزنطيين [١٥٢]. كما كان تشييده لرباط سوسة وقنطرة أبى الربيع[١٥٣] من مظاهر تلك السياسة التى جعلته يكسب حب الناس عن طريق إرضاء الفقهاء، وليس من شك فى أن الرباطات لعبت دوراً هامًا فى الحياة الدينية فى إفريقية إلى جانب إسهامها فى النشاط الحربى، وقد أسس زيادة الله رباط سوسة سنة ٢٠٦هـ على خليج قابس داخل أسوار مدينة سوسة، أما قنطرة أبى الربيع فقد أقامها خارج مدينة القيروان حيث يبدأ الطريق الرئيسى فى المدينة[١٥٤]. وفضلا عن ذلك فقد اهتم زيادة الله بمدينة العباسية التى بناها أبوه، فأسس فيها القصور والمنيات ، وحصنها فى عام ٢٠١هـ [١٥٥]، كما أعاد بناء سور القيروان الذى كان قد هدمه انتقاما من سكانها لمناصرتهم الطنبذى [١٥٦].

١٤٨- البيان المغرب ج١ ص١٢٩ .

١٤٩- معالم الإيمان ج٢ ص٢٦ .

١٥٠- أحمد فكرى : مسجد القيروان ص٦٧ .

١٥١- المغرب ص٢٣ ، ٢٤ .

١٥٢- الحلة السيراء ص٢٥٢ أحمد فكرى مسجد القيروان ص٧٧ .

١٥٣- المغرب ص٣٥ .

١٥٤- نفس المصدر والصفحة.

١٥٥- البيان المغرب ج١ ص١٢٣ .

١٥٦- نفسه ص٢٩ .

وعول زيادة الله على استئصال شأفة الجند والتخلص نهائيا من خطرهم فى نفس الوقت الذى يساهم فيه فى حركة الجهاد، فشرع فى فتح صقلية سنة ٢١٢هـ، وغدت الجزيرة منذ ذلك التاريخ هدفا لحملات الجهاد، وإن دل ذلك على شيء فعلى أن دولة الأغالبة قد تخلصت تماما من مشاكلها الداخلية، وتوطدت دعائمها ، وأصبحت قادرة على الاستمرار ، فقد ورثها زيادة الله مليئة بالفتن والثورات، وتركها بعد وفاته[١٥٧]، دولة متجانسة متكاملة تهيمن على حدودها ، وتوجه طاقاتها نحو الفتح والتوسع .

ومهما قيل عن أخلاق زيادة الله، وما اتبعه من سياسة العنف والقسوة، فقد كان له مآثر لايمكن جحودها ، فقد ذكر ابن الآبار[١٥٨] أنه كان شاعراً قديراً ، وسياسيا داهية تمكن من كسب الفقهاء إلى جانبه، وكبح جماح الجند بعناده ومثابرته ، واستمال البربر إلى جانب الإمارة بدهائه وبصيرته ، وحول القوى المناوئة له إلى طاقات استعان بها فى الظهور على مسرح الأحداث فى البحر الأبيض المتوسط.

وحرى بنا أن نعرض بإيجاز لأهم النتائج التى تمخضت عن ظهور هذه الدولة فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب الإسلامى وعالم البحر المتوسط.

لعل من أهم النتائج أن ظهور الدولة وضع حداً للفوضى السياسية التى انتشرت فى إفريقية فى عصر الولاة، وقد سبق أن عرضنا لأحوال إفريقية قبيل قيام دولة الأغالبة، وأوضحنا كيف أن البربر الذين اعتنقوا مبادئ الخوارج أضحوا خطراً دائمًا على الولاة، وأن جهود الخلفاء الأمويين التى اتسمت بطابع العنف لم تفلح فى تهدئة الأحوال إلا إلى حين ، ثم ما لبثت ثورات البربر أن وجدت فرصتها فى اتجاه الخلافة العباسية نحو الشرق لتسفر عن قيام دول مستقلة لاتدين للخلافة بطاعة ، بل ناصبتها العداء، هذا فى الوقت الذى تخلى فيه الجند عن دورهم فى توطيد نفوذ الخلافة وسلطانها . وكان قيام دولة الأغالبة نهاية لتلك المرحلة السابقة بما انطوت عليه من هدم وتخريب ، وبداية لمرحلة جديدة من الأمن والاستقرار والبناء، صحيح

١٥٧- توفى زيادة الله فى ١٤ من رجب سنة ٢٢٣هـ وعمره إحدى وخمسين عاما. أنظر : ابن عذارى: ص١٣٧ .

١٥٨- الحلة السيراء ص٢٥٤ .

١٥٩- العبر ج٦ ص١١٣ .

أن الأمراء الأغالبة الأوائل تكبدوا الكثير من المشاق فى استئصال شأفة الفوضى والقضاء على الفتن، لكن زيادة الله الأول تمت على يديه النقلة إلى المرحلة الجديدة، مرحلة الاستقرار الداخلى والمساهمة فى أحداث العالم الخارجي .

ويعتبر قيام دولة الأغالبة تعبيرا عن شخصية المغرب، وتحقيقا لنزعة الاستقلال عند البربر، وليس من شك فى أن البربر فى إفريقية وجدوا فى قيام الدولة تحقيقا لأمانيهم وإرضاء لنزعاتهم الإقليمية ، وتتويجا لنضالهم من أجل الاستقلال عن سلطان الخلفاء.

ولايفوتنا أن نذكر أن قيام الدولة أعاد للخلافة بعض الهيبة التى كانت على شفا الزوال من المغرب، بل ضمنت بقاء سيادتها الإسمية نحو قرن من الزمان(١٦٠). فالثابت أن قيام دول المدرارين والرستميين والأدارسة أدى إلى انسلاخ المغربين الأوسط والأقصى نهائيا عن سلطان الخلافة، بل شكلت دولة الأدارسة خطرا هدد إفريقية نفسها، لكن الأغالبة وقفوا فى وجهها، وحالو دون تحقيق أطماعها، وصانوا سلطان الخلافة من الزوال . وإذا كانت الخلافة لم تمارس سيادة حقيقية فيما وراء حدود مصر الغربية (١٦١)، فإن الوضع الجديد كفل للخلفاء سيادة إسمية قنعوا بها، فذكرت أسماؤهم فى الخطبة، ونقشت على السكة والطرز، وحسبهم أيضا ما كان يرد اليهم من أموال تدفع بانتظام كل سنة، فضلا عن الهدايا والألطاف التى لم يتوان الأمراء الأغالبة عن إرسالها إلى بغداد .

ومن أهم النتائج التى تمس عالم البحر المتوسط ما جرى من فتح صقلية بعد إجلاء البيزنطيين عنها، والاستيلاء على كثير من الجزر الأخرى، والتوسع فى شبه الجزيرة الإيطالية وتهديد كنيسة القديس بطرس ذاتها، كما أسهم الأغالبة فى السياسة الدولية آنئذ ، وتبادلوا السفارات مع شارلمان ، وناصبوا الأمويين بالأندلس العداء.

وإذا كانت تلك هى أهم النتائج السياسية ، فليس من شك فى أن الناحية الاقتصادية قد تطورت بقيام دولة الأغالبة ، فقد أفاد الأغالبة من وضع البلاد الجغرافى فجمعوا الثروات الطائلة(١٦٢)، وبفضل الموانيء المنتشرة على شاطيء البحر المتوسط مثل سوسة وتونس وبونة

١٦٠- الحلة السيراء ص٢٤١ .

١٦١- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٦ ، ٢٧ . ، Hitti : History of the Arabs, p. 45 .

٢- المغرب ص٨٩ ، . Brockelman : History of the Islamic People, 150 .

وبجاية أمكن للأمراء أن يقيموا الأساطيل ويحرزوا الانتصارات ، ولاجدال فى أن فتوحات الأغالبة تمخضت عن مزيد من الثراء الذى انعكس على أحوال السكان فى إفريقية فأحدث انتعاشا اقتصاديا . ومن ناحية أخرى أحكم الأغالبة السيطرة على زمام وسط البحر المتوسط، وصارت لهم السيادة البحرية دون منازع ، فاحتكروا دور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، وجنوا من وراء ذلك أطيب الثمار، كذلك لم يهملوا التجارة مع الجنوب، فمهدوا طرق القوافل(١٦٣) لتسهيل التجارة مع إفريقيا السوداء مستفيدين من استقرار البلاد ووفرة خاماتها ، وانتعشت الأحوال الاقتصادية عن ذى قبل، وعم الرخاء البلاد بعد أن كانت تعيش عالة على مصر بما ترسله من معونة مالية كل سنة، وأصبح فى وسع الأمراء الإنفاق على المشروعات الإنشائية العظيمة التى شهدتها إفريقية من مساجد وحصون وقناطر ومواجل وربط.

ولايمكن فى هذا الصدد إغفال ما حدث من تطور فى الحياة الاجتماعية، فالعرب رغم أطماعهم الشخصية وخلافاتهم القبلية، كانت تجمعهم وحدة بشرية ودينية ولغوية (١٦٤)، لكن الأغالبة حرصوا على تفكيك عرى هذه الوحدة ، فعملوا على إذابة الجند العرب فى المجتمع التونسى بأن اسقطوهم من العطاء فانسابوا وسط العناصر الأخرى واختلطوا بهم. وقد ظهر عنصر جديد لعب دوراً هامًا فى تاريخ إفريقية فى ذلك الحين، وهم الزنوج الذين حرص الأمراء على استجلابهم واتخذوهم حرسا خاصا لهم، فى حين عمل بعضهم عبيدا بالقصور وغلمانا لرجال البيت الأغلبى. أما البربر فقد ناصروا الدولة الجديدة، وأصبحوا سنداً لها بعد أن كانوا خطراً عظيما على سلطة الخلفاء (١٦٥). أما حياة الأمراء الخاصة ، فقد اتخذت طابعًا جديدا، فقد تشبهوا بالخلفاء فى أنماط حياتهم حتى غدا البلاط الأغلبى صورة صادقة لبلاط سامرا(١٦٦)، كما ازدهرت الحياة داخل الربط المتناثرة على طول ساحل البحر المتوسط ، وغصت بالمجاهدين من النساك والصالحين، وأضحت بمثابة خط دفاع أول عن البلاد أمام غارات البيزنطيين والبنادقة الذين طالما أغاروا على سواحل البلاد تغطية لهزائمهم أمام الأساطيل الأغلبية(١٦٧).

١٦٣- الادريسى : صفة المغرب ص١٢١ ، Vonderheyden : Op. cit, p. 26 .

١٦٤- ديمو مبين : دائرة المعارف الإسلامية، مادة بنى الأغلب مجلد ٢ ص٣٢٧ .

١٦٥- البيان المغرب ج١ ص١٣٠ .

١٦٦- الحلة السيراء ص٢٩٤ ، Vonderheyden : Op. cit. p320 .

١٦٧- رياض النفوس ج١ ص٣٤٨ ، ٣٤٩ .

وشهدت النواحي الثقافية والدينية تطورات هامة في العصر الأغلبي، فقد تم تعريب إفريقية ، وتأكد إسلام أهلها، وأتاحت الدولة الحرية للمذاهب الدينية ، وساد المذهب المالكي ربوع إفريقية (١٦٨)، وعلا شأن أعلامه الذين تصدوا لمحاربة الزندقة وحالوا دون انتشارها بين البربر، ولعب فقيه مثل سحنون دوراً مبرزاً في هذا الصدد ، وأصبح اسمه علما في سماء الحياة العقلية والدينية في القيروان (١٦٩). والحق- أن القيروان في العصر الأغلبي حظيت بمكانة مرموقة في الحياة الثقافية، حتى غدت مركزا للحضارة الإسلامية في المغرب(١٧٠) وأضحت منارة يقصدها طلاب العلم والعلماء من الشرق والغرب على السواء، وصارت همزة الوصل بين حضارة المشرق الإسلامي والأندلس .

* * *

١٦٨- نفسه ص١٦٥ ، ابن خلدون : المقدمة ص٤٤٩ .

١٦٩- معالم الإيمان، ج٢ ص٦٥ .

١٧٠- Gautier : Les siecles obscurs du Maghreb, p. 259 .

الباب الثانى
الأغالبة والمشرق الإسلامى

أولا : علاقات الأغالبة بالخلافة العباسية

ارتطبت علاقات الأغالبة الخارجية بعدة عوامل كانت ذات أثر كبير فى توجيهها، ففى الناحية السياسية تأثرت هذه العلاقات بالظروف المحيطة بقيام الدولة، فالمعروف أن دولة الأغالبة قامت استجابة لنزعة الاستقلال عند البربر فى إفريقية، والتقت مصالحها مع مصالح الخلافة العباسية فى المغرب الإسلامى، لذلك قامت العلاقات السياسية بين الخلافة والإمارة الأغلبية على مبدأ الاستقلال الذاتى مع الولاء للخلافة. ولما كفلت الخلافة للأمراء هذا الاستقلال، عملوا على إرضائها بأن سلكوا فى علاقاتهم الخارجية نهجها ، فكان أصدقاء الخلافة هم أصدقاء الإمارة، وأعداء الخلافة أعداءها ، فمصر فى عهد الولاة العباسيين كانت على علاقات طيبة بالأغالبة، فلما استقل الطولونيون بها، ناصبها الأغالبة العداء.

وكانت علاقات الأغالبة بدول المغرب عدائية إلى أبعد الحدود بسبب العداء بين تلك الدول وبين الخلافة العباسية، إذ لايخفى أن قيامها كان على حساب نفوذ بنى العباس فى المغرب والأندلس، ومن ثم حفلت علاقات الأغالبة مع هذه الدول بالحروب والإغارات والدسائس والمكائد .

وجاءت علاقات الأغالبة مع العالم المسيحى صدى لولائهم لبغداد أيضا، فقد اشتبك الأغالبة مع البيزنطيين فى حرب دامت نحو سبعين عاما وانتهت باستيلائهم على صقلية وبعض الجزر الأخرى التى كانت خاضعة للبيزنطيين، بينما هادنوا الفرنجة الكارولنجيين وبادلوهم المودة متأثرين فى ذلك بما كان سائداً من علاقات طيبة بين شالمان وهارون الرشيد ، فلما توفى الرشيد ناصبوهم العداء وأغاروا على سواحلهم واقتطعوا جزء من أملاكهم فى جنوب إيطاليا .

وبذل الأمراء الأغالبة الأواخر غاية جهدهم فى محاربة الدعوة الشيعية فى المغرب ، لكن جهودهم باءت بالفشل، وبانتصار هذه الدعوة وزوال دولة الأغالبة، اختفى نفوذ الخلافة العباسية فى المغرب.

والجانب الاقتصادى من علاقات الأغالبة الخارجية تأثر أيضا بولائهم للخلافة، كما تأثر بسيطرتهم البحرية على المنطقة الوسطى من حوض البحر الأبيض المتوسط بعد انتهاء السيادة البيزنطية، فازدهرت التجارة بينهم وبين بلاد الشام ومصر، وتأثرت نظمهم الاقتصادية بنظائرها فى العراق . كما وهنت الصلات التجارية مع دول المغرب والأندلس. وكانت لهم علاقات تجارية محدودة مع بيزنطة لم تلبث أن انقطعت بعد قيام الصراع العسكرى بينهما . بينما تاجر الأغالبة مع المدن الإيطالية التى شاركتهم الوساطة بين الشرق والغرب.

أما العلاقات الثقافية فقد تأثرت بانتصار المدرسة المالكية فى بلاد المغرب، فازدهرت العلاقات مع مصر وخاصة فى فترة تألق المالكية ، بها كما تأثرت الفنون الأغلبية بالمؤثرات والمدارس المشرقية. ومن الطبيعى أن ترتبط ثقافة القيروان بنظيرتها فى قرطبة لالتقائهما حول مذهب مالك، وظهر تأثير مدرسة القيروان فى العمارة والمنشآت الأندلسية ، بينما وهنت العلاقات الثقافية بين القيروان وكل من سجلماسة وتاهرت مركزى الخوارج الصفرية والإباضية فى المغرب. ولم يكن هناك اتصال فكرى مباشر بين القيروان وفاس ، وإذا كان الفن الأغلبى قد أثر فى فن الأدارسة ، فإن ذلك كان نتيجة هجرة بعض الأسر القيروانية إلى فاس. ونعتقد أن محاربة الدعوة الفاطمية فى المغرب كانت تنطوى على أسباب مذهبية ، إذ لايخفى دور المالكية بالذات فى مقاومة الشيعة العبيديين. ولم تكن ثمة صلات ثقافية تذكر مع العالم المسيحى اللهم إلا ما نعرفه عن وجود بعض مؤثرات بيزنطية فى الفن الأغلبى. فلندرس هذه العلاقات بمزيد من التفصيل .

(أ) سلطات الأمراء فى حدود التبعية للخلافة :

سبق القول بأن قيام دولة الأغالبة فى إفريقية كان مرتبطا أشد الارتباط بعاملين رئيسيين ، أولهما ما ساد المغرب الإسلامى من نزعات الاستقلال التى أدت إلى اقتطاع المغربين الأوسط والأقصى عن سلطان الخلافة العباسية كلية من المغرب . وثانيهما ، استجابة الخلافة لهذا التحدى، وإقرارها قيام أسرة عربية موالية تتمتع بالاستقلال الذاتى فى إطار من الولاء والتبعية لها ، وكان هذا الإجراء بمثابة الحل الأمثل لمشاكل الخلافة العباسية فى المغرب ، والضمان الوحيد لبقاء نفوذها فيه[1].

١- ابن عيسى : كتاب الإمكان ص٥٢ .

وفى ضوء هذين العاملين - الولاء والتبعية للخلافة، والاستقلال الداخلى للإمارة- تحدد وضع دولة الأغالبة وعلاقاتها مع الخلافة العباسية، فقد سارت العلاقات فى طريق ودى، والتزم الطرفان بالحفاظ على هذه الوشائج بشرط عدم الإخلال بالمبدأين السابقين، فالخلافة من جانبها دأبت على الاعتراف بالأمراء الأغالبة ، عن طريق إرسال تقليد الإمارة ، وما يرتبط به من رسوم، كما لم تتوان عن تقديم العون للأمراء الأغالبة فى أوقات الأزمات بالقدر الذى سمحت به ظروفها ، ولم تتدخل فى شؤون الإمارة الداخلية بما مس الاستقلال المتعارف عليه ، اللهم إلا فى حالات نادرة ، وفى ظروف خاصة . وكذلك درج الأمراء الأغالبة على الاعتراف بالتبعية وإظهار الولاء للخلافة، فأسماء الخلفاء كانت تذكر فى الخطبة وتنقش على السكة، كما كانت الأموال السنوية ترسل بانتظام من القيروان إلى بغداد ، فضلا عن الهدايا والألطاف فى الأعياد والمناسبات ، واكتفى بنو الأغلب بلقب «الأمير» [٢]، ولم يتخذوا لأنفسهم ما يخرجهم عن إطار التبعية كما فعل الأدارسة مثلا حين لقبوا أنفسهم بالأئمة ، وكذلك الرستميون [٣]، وانتهجوا فى سياستهم الخارجية نهجا يتلاءم مع الأصول العامة للسياسة العباسية .

ومما كان يؤكد هذه الروابط ذلك الارتباط المصلحى والمصيرى بين الطرفين ، فقد كان الأغالبة عربًا سنة بين غالبية من البربر الخوارج والشيعة فاحتاجوا إلى مؤازرة الخلافة ومساندتها . وفى نفس الوقت كانت دولتهم قلعة تدافع عن نفوذ الخلافة ضد أخطار العلويين والخوارج، وظلت تمثل البقية الباقية من النفوذ العباسى فى الغرب الإسلامى .

٢- وهو لقب يدل على الوظيفة لولاة الأمصار التابعة للخلافة الإسلامية . أنظر : حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص١٨٠ .

ومن الملاحظ أن العملة التى ضربها أمراء الأغالبة بافريقية جاءت خلوا من أى لقب، إذ ورد عليها اسم الأمير فقط. انظر . Lavoix : Catalogue de monnais musulmanes... vol . 2 pp. 345 , 352 . FF

ولم يذكر لقب «الأمير» إلا فى العملة التى وجدت بصقلية . وهاك صورة لوجه دينار ضرب فى عهد زيادة الله الأول:

غلب - محمد رسول الله - مما أمر به - الأمير زيادة الله- ابن ابراهيم - زيادة الله. أنظر : : Lavoix Op. cit. vol 2, p. 354 .

٣- Vonderheyden : la Berberie Orientale , p. 28 .

ويبالغ بعض المؤرخين[٤] فى تصوير استقلال الأغالبة ، والتهوين من شأن نفوذ الخلافة بقولهم : «إن إفريقية الأغلبية قد تحقق لها الاستقلال الفعلى بكل جوانبه»، حتى أنه «لم يقدر لأى من خلفاء بنى العباس ممارسة أدنى سيادة فيما وراء حدود مصر الغربية»، بينما يمضى فندرهين[٥] فى تصوير سلطان الخلافة وإظهار هيبتها ونفوذها والتهوين من شأن استقلال الإمارة ، حتى خيل إليه أن الأمر لم يخرج عن إطار «إمارة الاستكفاء بعقد عن اختيار» وهو ما عرفته النظم الإسلامية .

والواقع أن كلا الرأيين ينطوى على مبالغة، ومن ثم تجدر مناقشة وضع الإمارة الأغلبية فى ضوء ما ورد «بالأحكام السلطانية» عن نظام الإمارة[٦] فى الإسلام.

يقول الماوردى عن[٧] إمارة الاستكفاء بعقد عن اختيار أنها «تشتمل على عمل محدود ، ونظر معهود والتقليد فيها تفويض الخليفة للأمير إمارة بلد أو إقليم على جميع أهله، ونظرا فى المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل، ومعهوداً من نظر». ويقول أيضا[٨] أن «وزارة التفويض تصح فى إمارة الاستيلاء، ولاتصح فى إمارة الاستكفاء». «وأن إمارة الاستيلاء متعينة فى المتولى، وإمارة الاستكفاء مقصورة على اختيار المستكفى» وأن «إمارة الاستيلاء تشتمل على معهود النظر ونادره ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على معهود النظر دون نادره».

وفى ضوء ما ذكره الماوردى يمكن القول بأن دولة الأغالبة تدخل ضمن إطار الإمارة العامة، وتجمع بين بعض خصائص إمارة الاستكفاء وبعض سمات إمارة الاستيلاء، لكنها لايمكن أن تندرج تحت أى منهما، وخصوصا إمارة الاسكتفاء بعقد عن اختيار كما يذهب فندرهين .

٤- أنظر : Hitti : History of the Arabs . p. 451 , Marcais : L'Afrique du Nord Francais dnas l'histoire p. 149 , Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale . vol . I . p. 264 ., Brockelman : History of the islamic people p. 150 , Cam. med, hist. vol . 2 . p. 278 .

٥- La Berberie Orientale . p. 26 .

٦- انظر ملحق رقم ١ .

٧- الأحكام السلطانية ص٣٠ .

٨- نفسه ص٢٤ .

وذلك أن شرط اختيار «المستكفى» لاينطبق على تولية الأمراء الأغالبة، فقد كان الأمير قبل وفاته يعهد إلى وريثه بالإمارة وفقا لوصية تزكية ، فتؤول تلقائيا إليه «مستحقا أو غير مستحق »[٩]، ثم يعترف الخليفة به ، ويبعث إليه عهد الإمارة وخلعها دون اعتراض ، بمعنى أن الخلافة كانت تضفى صفة الشرعية على حكم الأمراء الأغالبة دون أن يكون لها يد فى اختيارهم . هذا وقد اتخذ الكثيرون من الأمراء الأغالبة وزراء ، الأمر الذى لايحدث فى إمارة الاستكفاء ؛ فقد اختار زيادة الله الأول أخاه غلبون وزيرا، كما ولى محمد الأول أخاه أبا جعفر أحمد الوزارة [١٠]، أما عبدالله بن أبى إسحاق، فقد كان وزير الأمير إبراهيم بن أحمد [١١]، بينما أسند زيادة الله الثالث الوزارة والبريد إلى عبدالله بن الصايغ[١٢]، واتخاذ الأمراء وزراء لهم أمر لايجوز إلا فى إمارة الاستيلاء . وفضلا عن ذلك ، فقد مارس الأمراء الأغالبة سلطة مطلقة فى شؤون إمارتهم الداخلية ، دون الرجوع إلى بغداد، كما خاضوا الحروب وقادوا الجيوش دون الانتظار لأوامر الخلافة ، وهذا ما لايحدث إلا فى إمارة الاستيلاء .

وإذا كانت الإمارة الأغلبية أقرب ما تكون إلى إمارة الاستيلاء فيما يتعلق بتوليه الأمراء، واتخاذهم الوزراء، واتساع سلطانهم ، فلاشك أنها تحمل بعض سمات إمارة الاستكفاء إذ مارس الخلفاء فيها سلطانا إسميا وتدخلوا فى بعض الأحيان تدخلا فعليا مثمراً فى شؤون الإمارة الداخلية كما حدث زمن المعتضد . وكانت الإتاوة السنوية تحمل إلى بغداد بانتظام ، فضلا عن الهدايا والطرف [١٣]، وكان فى بغداد ديوان لإفريقية يتألف من أصل وزمام[١٤] للإشراف على الشؤون المالية الجارية بين الإمارة والخلافة. ومن مظاهر هذا النفوذ أيضا ما جرى

٩- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٧ .

١٠- Hopkins : medieval muslim govemment in barbary, p. 2 .

١١- البيان المغرب ج١ ص١٦٠ .

١٢- نفسه ص٨٣ .

١٣- ابن خلدون : المقدمة ص١٨١ ، Brunschivg : la Tunisie dans le haut moyen âge . p. 10 .

١٤- ابن الصابئ : رسوم دار الخلافة ص٢٩ ، ميتز : الحضارة الإسلامية ج١ ص١٢٤ .

من ذكر أسماء الخلفاء على منابر إفريقية [١٥]، فيما عرف «بالخطبة العباسية»[١٦]، ونقش أسمائهم وأسماء أولادهم[١٧] على السكة الأغلبية ، كذلك اكتسب حكم أمراء بنى الأغلب صفته الشرعية عن طريق تقليد الخلفاء الذين لم يتوانوا فى إرسال التفويض والخلع وشارات الخلافة عقب تولية كل أمير[١٨].

قصارى القول : أن دولة الأغالبة تمتعت بوضع فريد لايدخل فى إطار المألوف من النظم الإسلامية، وما ذكره النويرى[١٩] فى هذا الصدد يؤكد حقيقة وضع الأغالبة، ويحدد الأبعاد الحقيقية لسلطان الأمراء ونفوذ الخلافة، إذ يقول : «... هذه أول دولة قامت بإفريقية وجرى عليها اسم الدولة، وكان من قبلهم عمالا إذا مات أحدهم أو صدر منه ما يوجب العزل عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء فى الدولة الأموية والعباسية. فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر ، وإنما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية ، وتعرف لها حق الفضل والأمر، وتظهر طاعة مشوبة بمعصية . ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت يخالفوهم ... وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يروه من أولادهم وإخوتهم».

وفى ضوء ذلك لم يكن الأغالبة مستقلين تماما بإفريقية ، وإنما مارسوا سلطاتهم الداخلية، سالكين فى سياستهم الخارجية نهج الخلافة العباسية. ومن ناحية أخرى لم يكن للخلفاء

١٥- أنظر : الملحق رقم ٢ .

١٦- ابن خلدون : المقدمة ص٢٧٠ .

١٧- وهاك صورة لدرهم أغلبى نقش عليه اسم المأمون قبل أن يتولى الخلافة. (كتابة دائرية) بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدرهم بإفريقية سنة ست وثمانين ومائة .

(الوجه الأول) : لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

(الوجه الثانى) : غلب – محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم– ابراهيم.

(كتاب دائرية) : مما أمر به الأمير المأمون عبد الله بن أمير المؤمنين .

انظر : Lavoix : Op. cit. vol 2 . p. 346 .

أنظر : الملحق رقم ٣ .

١٩- نهاية الأرب ج٢٢ ورقم ٢٦ ، ٢٧ .

العباسيين نفوذ فعال فى إفريقية ، ولم يهتموا من جانبهم بتأكيد هذا النفوذ ، ولم يحاولوا إقحام أنفسهم فى الأمور الداخلية واكتفوا منهم بالولاء والود. غير أنه من الملاحظ أن سلطان الخلافة فى إفريقية كان يضعف أو يقوى حسب مكانة الخلفاء أنفسهم، فليس بخاف مثلا تغلغل نفوذ الخلافة فى إفريقية زمن الرشيد والمعتضد ، ثم انحسار هذا النفوذ فى عهود خلفاء المأمون مثلا. ومع ذلك ، ففى كلتى الحالتين لم ينتقص الخلفاء من سلطان الأغالبة فى إفريقية، فحين حاول المأمون ذلك لم يقدر له النجاح ، كما لم يخرج الأمراء عن سياستهم الودية المقرونة بالولاء للعباسيين.

(ب) العلاقات السياسية :

من الثابت أن علاقات إبراهيم بن الأغلب بالخلافة العباسية انطوت على الود والولاء ، فقد تولى الإمارة من قبل الرشيد فى ظروف عصيبة جعلته يحرص على أن يستمد من الخلافة العون المعنوى والمادى، ومن هنا يمكن تبرير تدخل الرشيد فى شؤون إفريقية . وكان ابن الأغلب آنذاك مجرد وال من الولاة، فلم يستطع السيطرة حتى على كبار رجال دولته، فالقاضى ابن غانم لم يسمح له بالإطلاع على ما يكتبه الرشيد إليه، ولم يكن بإمكان الأمير أن يرسل كتبه إلى الخليفة إلا مصحوبة بكتب ابن غانم[٢٠].

وظهر نفوذ الخلافة واضحًا فى سياسة الإمارة الخارجية ، فلم يفتأ ابراهيم الأول يعمل على الكيد للأدارسة إمعانا فى إرضاء الخلافة، ولم يتقاعس عن مساعدة الصقالبة - حلفاء الرشيد- فى ثورتهم على البيزنطيين بالبلقان ، كما هادن الفرنجة - أصدقاء الخليفة- وقدم لسفرائهم التسهيلات فى بلاده، واستجاب لمطالبهم. ومما يدل على حرص الأمير على إرضاء الخليفة ما جرى من قيامه بضرب عملة خاصة دفع منها راتب الخلافة السنوى [٢١]. والجدير بالذكر أن هذه العملة خلت من ذكر كلمة «غلب» ومن اسم الأمير الأغلبى الأمر الذى كان شائعًا فى سكة الأمراء الأغالبة المضروبة من الذهب أو الفضة أو البرونز[٢٢] على السواء،

٢٠- رياض النفوس ج١ ص١٥١ ، معالم الإيمان ج١ ص٢٢٥ .

٢١- De candia : Monnaies Aghlabites du musée du bardo, Revue Tunisienne 1935. p. 272 .

٢٢- Ibid . p. 180

بينما نقش عليها عبارة «للخليفة» [٢٣]. كما أنشأ عاصمة جديدة لدولته أطلق عليها «العباسية»[٢٤] تيمنا بالخلافة واسترضاء لها.

والخلافة العباسية أولت تابعها فى إفريقية الاهتمام والرعاية، فلم يتأخر الرشيد عن تقديم العون لإبراهيم الأول حين أحدقت به الأخطار ، وحملت الدنانير العباسية اسم «إبراهيم حاكم إفريقية» كما جرت العادة بذكر أسماء الولاة والعمال وأبناء الخلفاء على العملة إلى جانب اسم الخليفة[٢٥].

وساعد الخليفة عامله على إفريقية بتقديم الأموال لقمع فتن الجند التى هددت الإمارة والخلافة معا، إذ أن معظم هذه الفتن كانت تهدف إلى خلع الطاعة للعباسيين. وبفضل هذه

= ومن الملاحظ أن العملة الأغلبية عموما نقش عليها كلمة «غلب» ، وحتى عملة ابراهيم ابن الأغلب من غير التى ضربها للخلافة كانت تحمل نفس الكلمة ، كما وردت أيضا فى سكة عبدالله ابن ابراهيم ، وزيادة الله الأول، ومحمد بن الأغلب، وأحمد بن محمد ، ومحمد بن أحمد ، وإبراهيم بن أحمد.

أنظر : Lavoix : Op. cit . vol 2 . pp. 346 , 349 , 350 , 354 , 357 , 358 , 360 .

٢٣- صورة الدينار الذى ضربه ابراهيم بن الأغلب خصيصا للخلافة :

(الوجه الأول) : محمد رسول الله- للخليفة.

(الوجه الآخر) : لا إله - إلا الله- وحده لاشريك له.

أنظر : Lavoix : Op. cit . p. 345 .

أما الدينار الذى ضربه ابراهيم بن الأغلب للتداول فى إفريقية فصورته كالآتى:

(نقوش دائرية) بسم الله ضرب هذا الدينار سنة إحدى وتسعين ومائة.

(الوجه الأول) محمد- رسول- الله- غلب .

(الوجه الآخر) لا إله - إلا الله- وحده لاشريك له.

(نقوش دائرية) محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

أنظر : Cataloge of the collection of Arabic coins presented in the khedivial library of Cairo. p. 129 .

٢٤- الاصطخرى : المسالك والممالك ص٣٤ .

٢٥- الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص١٢٣-١٢٤ .

المعونة تمكن ابن الأغلب من ردع الثوار، وتثبيت دولته، والتمكين للسيادة العباسية. وليس أدل على التقاء مصالح الإمارة والخلافة- فى هذا الصدد- مما حدث من تخلص إبراهيم من قواد الجند المتمردين بإرسالهم إلى بغداد[٢٦].

واضح من هذا أن الإمارة الأغلبية إذا كانت تستعين بالخلافة العباسية فى عهد إبراهيم الأول فإنها كانت تخدم بطريق غير مباشر مصالح الخلافة وتضمن استمرار نفوذها فى المغرب[٢٧]، وإذا كان النفوذ العباسى قد تغلغل فى إفريقية فى عهد الرشيد، فإن ذلك يعزى إلى شخصية الرشيد نفسه، فضلا عن اشتداد حاجة الإمارة إلى الخلافة لتستمد منها العون المادى والروحى فى مواجهة المشاكل الداخلية.

ولما توفى الرشيد وتخلصت الإمارة الأغلبية من أخطار الجند نسبيا، قل تدخل الخلافة تدريجيا فى إفريقية ، ووجد ابراهيم بن الأغلب متنفسا للعمل بحرية دون ارتباط حتمى بسياسة بغداد ، فقد عادى الفرنجة ، واغار على سواحلهم. غير أن ذلك لم يكن خروجا عن سياسة الود والولاء التى ظلت رائد الأغالبة جميعا [٢٨]، فقد ظل خلفاء إبراهيم محافظين على هذه الصلة، يتلقون التقليد الرسمى من الخلافة ويوفون بالتزاماتهم المالية حيالها، ولايبخلون بالإشادة بسيادتها فى المناسبات الرسمية وغير الرسمية . فلما ضعفت الخلافة، وانشغلت بمواجهة الكثير من المشاكل فى العراق[٢٩]، عمل أمراء بنى الأغلب على توسيع مفهوم الاستقلال .

وقد درج الخلفاء العباسيون بعد الرشيد على تقليد الأمراء الأغالبة حكم إفريقية ، فقد أقر المأمون أبا العباس بن ابراهيم بن الأغلب[٣٠]، ولما توفى أبو العباس عبدالله عام ٢٠١هـ، وخلفه أخوه زيادة الله، بعث إليه الخليفة المأمون تقليداً بالإمارة فى نفس العام [٣١].

٢٦- الطباع : كتاب الحلة السيراء ص٤٠٤ .

٢٧- ابن الآبار : الحلة السيراء ص٢٤٦ .

٢٨- ديومبين : مادة بنى الأغلب بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ ص٣٢٦ .

٢٩- عن هذه المشاكل أنظر : حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين، المقدمة .

٣٠- الباجى المسعودى: الخلاصة النقية ص٢٦ .

٣١- العبر ج٤ ص١٩٧ ، النجوم الزاهرة ج٢ ص١٦٩ ، المكتبة الصقلية ج٣ ص٥٤٠، ٥٤١ .

أما زيادة الله الأول ، فظل مخلصا للخلافة حتى فى ظروفها العصيبة فلم يخرج عن ولائه للمأمون إبان اندلاع فتنة إبراهيم بن المهدى فى بغداد ؛ لذلك شكر له الخليفة موقفه بعد أن صفا الجو له [٣٢]. إلا أن علاقة الود ما لبثت أن تعرضت لهزة عنيفة حين حاول الخليفة المأمون الانتقاص من استقلال إفريقية والتدخل فى أمورها، لكن جهوده فى هذا الصدد لم تكلل بالنجاح، فقد أراد مكافأة عبدالله بن طاهر - قائده- فأسند إليه ولاية مصر والمغرب[٣٣]، وكتب إلى زيادة الله يأمره بالدعوة لعبدالله بن طاهر على منابر إفريقية [٣٤]، بمعنى أن تتبع إفريقية إمارة مصر، وتفقد استقلالها الذاتى. ورفض زيادة الله طلب الخلافة ، ولم يفرط فيما حافظ عليه والده وأخوه . ويصور ابن الآبار[٣٥] غضب زيادة الله حين وصل إليه رسول الخليفة بقوله «... وأمر (زيادة الله) بإدخال الرسول عليه بعد أن تملأ من الشراب ، وحلق شعره ، ونار عظيمة بين يديه فى كوانين وقد احمرت عيناه ثم قال : وقد علم أمير المؤمنين طاعتى له، وطاعة آبائى لآبائه ، وتقدم سلفى فى دعوتهم ، ثم يأمرنى الآن بالدعاء لعبد خزاعة ، هذا والله أمر لايكون أبدا». وكتب زيادة الله رسالة إلى الخليفة يرفض فيها الأمر، ويخبره بأنه سيدافع عن حقوقه حتى لو أدى الأمر إلى اندلاع الحرب[٣٦] وأرفق بالرسالة كيسا به ألفى دينار إدريسية[٣٧] . لذلك لم يجد الخليفة بدا من التخلى عما أمر به ،

٣٢- الحلة السيراء ص٢٥٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص١٦٠ ، Fournel : Les berbers vol . I. p. 481 .

٣٣- ابن طيفور : بغداد ص٣٥ .

٣٤- العبر ج٤ ص١٩٧ .

٣٥- الحلة السيراء ص٣٥٤ ، . Vonderyden : Op. cit. p. 30

٣٦- اختتم زيادة الله رسالته بهذه الأبيات :

أنا النار فى أحجارها مستكنة   فإن كنت ممن يقدح الزند فاقدح

أنا الليث يحمى غيله بزئيره   فإن كنت كلبا جاء موتك فانبح

أنا البحر فى أمواجه وعبابه   فإن كنت ممن يسبح البحر فاسبح

أنظر : الحلة السيراء ص٢٥٤ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٣١ .

٣٧- الحلة السيراء ص٢٥٤ ، العبر ج٤ ص١٩٧ ، الباجى المسعودى: الخلاصة النقية ص٢٨ ، ويذكر ابن خلدون أن زيادة الله كان يرمز بإرسال هذه النقود إلى أنه سيدعو للأدارسة ويتحول عن بنى العباس ، انظر : العبر ص١٩٧ ، ويأخذ بهذا الرأى فورنل وفندرهين ، انظر :

= Les Berbers, vol . I . p. 481 , La Berberie orientale, pp. 31 , 91 ff .

متجاهلا[٣٨] ما ورد برسالة الأمير الأغلبي من خروج عن المألوف في مراسلة الخلفاء [٣٩]، ورضي ببقاء الأمور على ما هي عليه بإفريقية .

ولم يحاول زيادة الله من جانبه التنصل من ولائه للخلافة بعد استقرار أحوال دولته وبلوغها أوج قوتها، فلم يقم بمثل ما أقدم عليه أمراء آخرون في ظروف أقل ملاءمة [٤٠]، واتخذ لنفسه حق التصرف في شؤون دولته في الداخل والخارج بما لايمس علاقته بالخلافة . فلما شرع زيادة الله في إعداد حملته على صقلية بغرض الجهاد، لم يتلق توجيها من أحد ، وليس هناك ما يشير إلى التماسه مشورة بغداد حتى لمجرد الاسترشاد برأي الخليفة، ومع ذلك لم يفته إخبار الخليفة بما حققه من انتصارات في عمليات الفتح الأولى[٤١].

ثم توفي المأمون عام ٢١٨هـ بطرسوس وقام أخوه المعتصم بالأمر من بعده [٤٢]. وفي خلافته احتل الترك مركز الصدارة في دولة الخلافة ، ومع ذلك فقد استعان في جيشه بعناصر

= ونحن نستبعد ذلك، فلم يقصد الأمير الأغلبي سوى تذكير الخليفة بجهوده وجهود أسلافه في مناوءة الأدارسة الذين اشتد خطرهم ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن الآبار من أن الدنانير كانت مضروبة باسم إدريس الحسني ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب، ومناضلة العلويين، أنظر : الحلة السيراء ص٢٥٥، ويؤكد هذا المعنى أيضا إرسال زيادة الله خطابا آخر «يتلطف فيه» للخليفة المأمون ويبدي اعتذاره.

٣٨- اشتهر المأمون بشيمة العفو عن أعدائه، فقد عفا عن الحسن بن سهل والفضل بن الربيع وابراهيم بن المهدي رغم ما سببوه له من متاعب ، وقد تغنى الشعراء بهذه الخصلة الحميدة فقال أحدهم :

صفوح عن الإجرام حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما

وقال آخر :

أمير المؤمنين عفوت حتى ... كأن الناس ليس لهم ذنوب

بل قال المأمون نفسه : «لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو ما حمدوني عليه ولا أتابوا من ذنوبهم ».

أنظر : ابن طيفور : بغداد ص٣٨٠ .

٣٩- أنظر : الملحق رقم ٤ .

٤٠- Vonderheuden : Op. cit. p. 27 .

٤١- رياض النفوس ج١ ص١٨٨ ، معلم الايمان ج٢ ص١٥ ، المكتبة الصقلية ج٢ ص٣٤٢ .

٤٢- صبح الأعشى ج٣ ص٢٥٩ .

أخرى إلى جانب الأتراك، فيذكر بيورى[٤٣] أن «البدو من عرب مصر والبربر والزنوج خدموا فى جيش الخلافة زمن المعتصم» ولايخالجنا شك فيما ذهب إليه بيورى إذا علمنا أن الخليفة خصص فى مدينته الجديدة، «سر من رأى» ، قطائع لسكنى الجند المغاربة «كجزء من شارع الخليج المطل على نهر دجلة، فضلا عن الموضع المعروف بالازلاخ»[٤٤]. وليس من شك فى أن وجود جند من إفريقية فى حاضرة الخلافة دليل على العلاقات الطيبة بين بغداد والقيروان، وأن ما حدث من جفوة عارضة بين زيادة الله والمأمون لم تؤثر فى مجرى العلاقات التقليدية بين الطرفين .

وظل الخلفاء يواصلون إصدار التقاليد للأمراء عقب شغور عرش الإمارة ليشغله أمير جديد، فالخليفة المعتصم قلد الأمير أبا عقال على إفريقية[٤٥] ٢٢٣هـ بعد موت زيادة الله الأول، ومن بعده قلد أبا العباس محمد عام ٢٢٦هـ أميرا على إفريقية. ويخيل إلينا أن الخلافة العباسية -بالرغم من مشاكلها فى الشرق - أولت أمور المغرب زمن المعتصم بعض الاهتمام ، ولعل بزوغ نجم الأغالبة فى البحر المتوسط فى ذلك الحين، شجعها على التفكير فى الاستعانة بهم فى استرداد نفوذها المفقود فى المغرب والأندلس، إذ يخبرنا السيوطى[٤٦] أن المعتصم راودته فكرة إعداد حملة لإقصاء الأمويين عن الأندلس لم يقدر لها أن توضع موضع التنفيذ لوفاته المفاجئة ؛ فقد توفى المعتصم عام ٢٢٧هـ، وخلفه الواثق بالله[٤٧].

وإذا كانت خلافة الواثق لاتحفل بذكر أخبار عن إفريقية ، فليس هناك ما ينفى استمرار العلاقات الودية، وسير الأمور فى مجراها الطبيعى بين بغداد والقيروان.

ويزخر عهد المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) بعديد من الأحداث ذات الدلالة على العلاقات الوطيدة بين الطرفين ، وتؤكد هذه الأحداث تضامن الخلافة مع أمراء إفريقية ، وحفاظها على

٤٣- Ahistory of the eastern Roman empire p. 238 .

٤٤- اليعقوبى : البلدان ص٢٩٣ .

٤٥- المكتبة الصقلية ج٣ ص٥٤٢ .

٤٦- تاريخ الخلفاء ص٣٣٦ .

٤٧- صبح الأعشى ج٣ ص٢٥٩ .

السيادة الإسمية ، وحرص الأغالبة على إرضاء الخلافة ومجاملتها ، والاستجابة لأوامر الخلفاء طالما لاتحد من استقلالهم الذاتى. ففى عام ٢٣١هـ تفاقمت الفتنة بسبب خروج أحمد بن الأغلب على أخيه الأمير أبى العباس محمد، فلم يجد الأمير وسيلة أسلم من نفى أخيه الثائر إلى العراق حتى يستقيم حال الإمارة [٤٨]. ولم تقف جهود المتوكل عند حد إيواء المخالفين من رجال البيت الأغلبى ضمانا لعدم إثارة القلاقل فى إفريقية، بل حرص أيضا على تقديم العون المادى للأمير الأغلبى بما يحقق له توطيد حكمه . ولايخفى أن المتوكل كان ينظر إلى أمراء بنى الأغلب على أنهم من عماله وأتباعه ، لكنه كان يدرك تمامًا ما يتمتع به الأغالبة من مكانة خاصة فى استقلالهم بأمور دولتهم، لذلك لم يحرص على تنفيذ ما أجراه من تفويض عامله على مصر المعروف «بقوصرة» أمر المغرب[٤٩]. وما حدث عام ٢٣٥هـ من وضعه المغرب ضمن أملاك ابنه المنتصر[٥٠] عند تقسيم الملك بين أبنائه[٥١] لم يغير من وضع الإمارة شيئا . ولم يعر الأغالبة هذا التصرف أدنى اهتمام، وواصلوا سياستهم التقليدية مع الخلافة، ففى سنة ٢٣٩هـ أنشأ الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب مدينة قرب تاهرت سماها العباسية [٥٢]،

٤٨- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٧٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص٢١-٢٢ .

٤٩- المنصورى : زبدة الفكرة ج٤ ورقة ١٠١ مخطوط .

٥٠- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٧ ص٣٥٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٣٥ .

٥١- قسم المتوكل ملكه بين أبنائه الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد ، فاختص المنتصر بعرش مصر وإفريقية، فضلا عن قنسرين والعواصم والثغور الشامية، والجزيرة وديار بكر وربيعة، والموصل والفرات وهيت ، وعانة والخابور ودجلة والحرمين ، واليمن واليمامة وحضرموت والبحرين والسند، وكرمان وكور الاهواز ومسبذان ومهرجان وشهر زور وقم وقاشان وقزوين . ومن الجدير بالإشارة أن إفريقية لم تدخل ضمن أملاكه حسبما يذكر ابن العبرى. أنظر : تاريخ مختصر الدول ص٢٤٧ .

أما المعتز فاختص بخراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله، بينما كان نصيب المؤيد أرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين . أنظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٧ ص٣٥٨ . ويذكر المسعودى أن المتوكل أخذ البيعة لأبنائه الثلاثة، وجعل المنتصر ولى عهده ثم المعتز فالمؤيد ، وفرق الأموال والصلات ابتهاجا بهذه المناسبة.

أنظر : مروج الذهب ص٤٠٣ .

٥٢- الكامل ج٥ ص٢٦٣ ، . Fournel , Op. cit . pp. 513-14

إظهارا لمودة بني العباس ، كما بعث إلى الخليفة بالهدايا والسبى عام ٢٤٤هـ بعد سقوط قصريانة فى صقلية [٥٣]، ولم يتقاعس عن تنفيذ أوامره الخاصة بمعاملة النصارى[٥٤] فى إفريقية ، تلك الأوامر التى سرت فى جميع أنحاء ولايات الدولة العباسية[٥٥].

ولما توفى المتوكل بسامرا عام ٢٤٨هـ، قام بالأمر من بعده المستعين بالله[٥٦] الذى كان معاصرا للأمير أبى ابراهيم أحمد بن محمد الأغلبى [٥٧]. وتعتبر العلاقات بينهما امتداداً لما كانت عليه من قبل ، ففى عام ٢٤٨هـ عقد المستعين بالله لقائده أوتامش على مصر والمغرب[٥٨]، كما فعل المتوكل من قبل ، ولم يؤد ذلك إلى استياء الأمير الأغلبى. وليس أدل على إخلاصه مما حدث من إجرائه بعض التحسينات فى جامع الزيتونة ونسبتها إلى الخليفة المستعين إجلالاً لشأنه [٥٩]. ولما مات الأمير أبو إبراهيم أحمد وخلفه أبو محمد زيادة الله بن محمد بن إبراهيم عام ٢٤٩هـ كان تقليده من قبل الخليفة المستعين[٦٠] كما جرت العادة .

وفى خلافة المهتدى استعان بجند من المغاربة تمكن بفضلهم من التغلب على باكباك التركى[٦١]، كما استعان المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ) بالمغاربة والفراغنة[٦٢] دون الأتراك .

٥٣- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧١ ، العبر ج٤ ص٢٠١ ، الباجى المسعودى الخلاصة النقية ص٢٣٠، فازيليف : العرب والروم ص١٩٤ ،

Scott : The moorish empire in Europe. vol . 2 . p. 30 .

٥٤- أبو العرب تميم : طبقات علماء أفريقية ص١١٠ .

٥٥- كتب المتوكل إلى جميع البلدان أن يختص النصارى بلباس مميز، وأن يمنعوا من ركوب الخيل، وأن تصور على أبواب دورهم صور الشياطين ، والخنازير والقرود . أنظر : سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص٦٣ .

٥٦- صبح الأعشى ج٣ ص٢٦٠ .

٥٧- المكتبة الصقلية ج٣ ص٥٤٣ .

٥٨- النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٤٨ ، المنصورى : زبدة الفكرة ج٤ ورقة ٢١ .

٥٩- ابن أبى دينار : المؤنس ص١١٠ ، حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص٦٩ .

٦٠- المكتبة الصقلية ج٣ ص٥٤٣ .

٦١- المسعودى : مروج الذهب ص٤٣٣ ، الكامل ج٥ ص٢٣٣ .

٦٢- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص٢٨٢ .

وجرى الخليفة المعتمد على الله على سنة سابقيه فى تقسيم الإمبراطورية بين الأبناء والإخوة والقادة ، ففى عام ٢٥٦هـ عين أخاه الموفق طلحة على المشرق، وأسند المغرب إلى ابنه وولى عهده جعفر بن المعتمد[٦٣] ، كما جدد هذا التقسيم عام ٢٦١هـ [٦٤]، وفى نفس العام بعث بتقليده إلى ابراهيم بن أحمد الأغلبى بعد موت الأمير أبى الغرانيق [٦٥].

وإذا كان الخلفاء السابقون قد اكتفوا بمجرد السيادة الإسمية على إفريقية فلم يكن ذلك إلا من قبيل التسليم بالأمر الواقع ؛ نظراً لما تردت فيه الخلافة آنذاك من ضعف بسبب تسلط الأتراك.

أما وقد ولى الخلافة فى عام ٢٧٩هـ خليفة قوى هو المعتضد[٦٦] تمكن من استرداد[٦٧] هيبتها بما أوتى من شجاعة ؛ فكان من الطبيعى أن يرنو ببصره نحو المغرب لتأكيد نفوذ الخلافة فيه. ويبدو أن الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد استشعر سطوة المعتضد فعمل له كل حساب، فلم يدخر وسعا فى إذكاء العيون للقبض على المهدى أثناء هجرته إلى المغرب تنفيذا لأمر الخليفة [٦٨]. وثمة حادثة أخرى تؤكد هذا الاتجاه الجديد، فقد روى البارونى[٦٩] نقلا عن أبى زكرياء[٧٠] أن ابراهيم بن أحمد حارب نفوسة تنفيذا لأوامر الخليفة. وإذا كنا نشك فى

= مما يدل على استخدام المغاربة فى جيش الخلافة إلى جانب الترك والفراغنة تلك الأبيات التى نظمها أحد الشعراء:

وأقبلت الترك والمغربون ... وجاء الفراغنة الدارعونا

تسير كراديسهم فى السلاح ... يروجون خيلا ورجلا تبينا

أنظر : الطبرى تاريخ الأمم والملوك ج١١ ص٩٧ .

٦٣- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٣٦٣ ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٤ .

٦٤- ابن تغرى بردى : ص٣٣ .

٦٥- المكتبة الصقلية ج٣ ص٥٤٣ .

٦٦- صبح الأعشى ج٣ ص٢٦٠ .

٦٧- مروج الذهب ص٤٦٢ .

٦٨- ابن خلدون : المقدمة ص٢١ ، العبر ج٣ ص٣٩٠ .

٦٩- الأزهار الرياضية ج٢ ص٢٨١ ، ٢٨٢ .

٧٠- كتاب السير ورقة ٣٣ .

صحة هذه الرواية، فليس ثمة ما يدفعنا إلى إنكار رواية الدرجيني[٧١] - نقلا عن الشماخي[٧٢]- التى تصور إبراهيم بن أحمد يقود حملة على مصر الطولونية انتقاما من أعداء الخلافة . وقد بلغ نفوذ الخلافة ذروته بصورة فريدة فى تاريخ الأغالبة حين أجبر الخليفة المعتضد ابراهيم بن أحمد على اعتزال الإمارة، وإسنادها إلى ابنه أبى العباس عبدالله. فقد أصيب إبراهيم بلوثة جعلته يقدم على سفك دماء أقرب الناس إليه ، فاستاءت الرعية من ظلمه واضطهاده وكتبوا إلى الخليفة يستجيرون به ، فبعث المعتضد إلى الأمير الأغلبى رسولا قدم عليه عام ٢٨٩هـ[٧٣] وأمره بالتنازل عن الإمارة لابنه أبى العباس عبدالله واللحاق ببغداد . ولم يجد إبراهيم مناصًا من اعتزال الحكم [٧٤]، فاستدعى ابنه أبا العباس من صقلية سنة ٢٨٩ هـ فاحتل مكان أبيه الذى آثر اللحاق بصقلية للجهاد[٧٥].

وبتنحية إبراهيم بن أحمد لم تعش أسرة الأغالبة إلا سبعة أعوام وقعت بعدها فريسة للفاطميين. وقد حفلت هذه السنوات بضروب المقاومة اليائسة ضد الخطر الشيعى. وفى تلك الظروف العصيبة اتجه الأمراء إلى المشرق طلبا للمعونة ، فازداد التقارب بين بغداد والقيروان. وليس من شك فى أن الأمراء الأغالبة أظهروا تمسكهم بالخلافة أكثر من ذى قبل إنقاذا لدولتهم من تهديد الشيعة[٧٦] ، فزيادة الله الثالث- آخر أمراء بنى الأغلب - حين انتقل إلى رقادة ليقيم فيها بدلا من القيروان نزل فى قصر سماه «قصر بغداد» [٧٧]، وبالغ فى تكريم الخليفة المكتفى بإرسال الهدايا [٧٨]، ويذكر المسعودى[٧٩] أنه بعث إليه مرة «مائتى خادم أسود

٧١- طبقات الإباضية ج١ ورقة ٨١ مخطوط.

٧٢- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص٢٦٨ ، ٢٦٩ .

٧٣- المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٥١ .

٧٤- يتشكك المؤرخ ديومبين فيما وقع، ويستبعد رضوخ الأمير الأغلبى لأوامر الخليفة العباسى . انظر : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢، مادة بنى الأغلب ص٢٢٦ .

٧٥- المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٥١ .

- Biquet : Histoire de l'Afrique Septentrionale. p. 60 .

٧٦- Vondenheyden . Op. cit. p. 32 .

٧٧- الطباع : الحلة السيراء ص٤١٩ .

٧٨- عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص١٤ .

٧٩- مروج الذهب ص٥٠٠ .

وأبيض ، ومائة وخمسين جارية، ومائة من الخيل العربية». ولا يخالجنا ريب فى أن الأمير الأغلبى كان يطمع فى مؤازرة الخليفة، عن طريق جيش يوقف تقدم الشيعة الذين نجحت جيوشهم فى الاستيلاء على كثير من قلاع إفريقية وحصونها ، لكن الخلافة العباسية لم يكن بوسعها تجنيد قوات تحارب فى المغرب ، فاكتفى المكتفى بإرسال الرسل يحضون سكان إفريقية على الاستبسال فى حرب الشيعة(٨٠). وتوفى المكتفى عام ٢٩٥هـ دون أن يحقق رجاء زيادة الله، وخلفه أخوه المقتدر بالله (٨١). وضاعت نداءات زيادة الله إلى المقتدر، فلم تجد الهدايا والأموال الطائلة التى أرسلها إليه للقيام بعمل حاسم فى بلاد المغرب. والواقع أن الخلافة كانت تود إنقاذ أتباعها فى المغرب، لكنها- بسبب مشاكلها- وقفت مكتوفة الأيدى أمام تقدم الزحف الفاطمى، كما أن نزاعا جرى فى البيت العباسى أدى إلى عزل المقتدر وتولية المعتز، ثم عودة المقتدر، وعزله ، وتولية أخيه القاهر، ثم عودته من جديد إلى الخلافة (٨٢)، مما حال دون مجرد التفكير فى تقديم العون للأغالبة .

ولما أدرك زيادة الله الثالث استحالة مقاومة الشيعة، جمع أمواله وفر هاربا إلى المشرق، وأثناء وجوده فى مصر تخلى عنه بعض غلمانه ، وانحازوا إلى واليها عيسى النوشرى ، ولم يعودوا إليه إلا بعد أن أمر المقتدر النوشرى بإخلاء سبيلهم(٨٣)، وتوجه زيادة الله قاصداً الرقة آملا أن يلقى الخليفة ، غير أن الوزير ابن الفرات أمره بالانتظار ريثما يأذن المقتدر (٨٤). وقد ضن الخليفة على الأمير الأغلبى بالمقابلة ، وأمره بالعودة إلى مصر حيث يستطيع واليها أن يمده بالأموال والسلاح لاسترجاع ملكه، والحق أن الخليفة قد فقد الأمل فى استرداد إفريقية بعد أن علم بفساد سيرة زيادة الله، وتخلى رجاله عنه، وانصرافه إلى اللهو والعبث.

وبسقوط دولة الأغالبة ، زال النفوذ العباسى من المغرب كله.

٨٠- البيان المغرب ج١ ص١٨٩ ، Fournel Op. cit. vol . 2 .p. 71.

٨١- صبح الأعشى ج٣ ص١٦١ .

٨٢- نفسه ص١٦١ .

٨٣- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٤٤ .

٨٤- العبر ج٤ ص٢٠٧ .

(جـ) العلاقات الإقتصادية :

ليس من شك فى أن العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والأغالبة، ساعدت على ازدهار النشاط الاقتصادى بينهما، فالعلاقات السياسية بين بغداد والقيروان صحبتها علاقات اقتصادية ومعاملات مالية مستمرة . وقد تأثرت الأحوال والنظم الاقتصادية فى إفريقية فى عهد الأغالبة بنظيرتها فى بغداد، كما أن الخلافة العباسية حرصت من جانبها على دعم الأحوال الاقتصادية فى إفريقية لتتمكن من القيام بالأعباء السياسية التى نيطت بها .

وفى نفس الوقت لم يتقاعس الأغالبة عن الوفاء بالتزاماتهم المالية حيال بغداد، فالأمير ابراهيم بن الأغلب تعهد للرشيد بأن يدفع أربعين ألف دينار سنويا (٨٥)، ودأب خلفاؤه من بعده على دفع هذا المال، وليس ثمة ما يشير إلى تردد الأمراء الأغالبة أو امتناعهم عن دفع هذه الأموال بانتظام . وقد أنشىء فى بغداد ديوان خاص بالمغرب(٨٦) للإشراف على العلاقة المالية بين الخلافة والإمارة ، وهو دليل لاشك فيه على استمرار أمراء الأغالبة فى وفائهم بما تعهد به ابراهيم بن الأغلب لهارون الرشيد . لكن وجود مثل هذا الديوان لايعنى ارتباط إفريقية بما ارتبطت به الولايات العباسية من جبايات مالية أو عينية ، يدل على ذلك أن القائمة التى أوردها قدامة بن جعفر(٨٧) عن الولايات التابعة للخلافة ومقدار ما عليها من جباية خلت من ذكر إفريقية.

وقد تفانى الطرفان فى تقديم المساعدات العينية والمالية كلما سنحت ظروفهما ، فبعثت الخلافة بالأموال إلى إبراهيم بن الأغلب ليستعين بها على مواجهة فتنة عمران بن مخلد عام ١٩٤هـ (٨٨)، وبفضلها تمكن ابراهيم من دفع أعطيات الجند وقمع الفتنة ، كما بعث الخليفة المتوكل الأموال إلى أبى إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب لتوزيعها على المنكوبين من ضحايا الزلزال الذى حدث بالبلاد فى عام ٢٤٥هـ (٨٩). ولم يقتصر الأمراء الأغالبة على ما كانوا

٨٥- الكامل ج٥ ص١٠١ .

٨٦- الصابئ : رسوم دار الخلافة ص٢٩ ، ميتز الحضارة الإسلامية، ج١ ص, ١٢٤

٨٧- الخراج وصنعة الكتابة ص٢٤٩ وما بعدها ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص٢٩٢ .

٨٨- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٨ .

٨٩- الكامل ج٥ ص٢٩٨ . . Vonderheyden , Op. cit . p. 31

يرسلون من إتاوة سنوية للخلافة ، بل دأبوا على تقديم الهدايا والأموال إلى الخلفاء ، فقد بعث الأمير زيادة الله الثالث إلى الخليفة المقتدر «عشرة آلاف مثقال، في كل مثقال منها عشرة مثاقيل»[٩٠].

وفي هذا الجو الودى كان من الطبيعي أن تزدهر التجارة بين إفريقية والعراق، ومما ساعد على هذا الازدهار سهولة الاتصال بين الإقليمين براً وبحراً ، يذكر ابن خرداذبة[٩١] أن الطريق بين بغداد والمغرب كان معبدا مأمونا ، فكانت القوافل تخرج من بغداد وتمر بالأنبار وهيت والرقة وحران والرها وتل موزن والخابور وحلب وقنسرين وحمص ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والإسكندرية ، ومنها إلى برقة فالقيروان. وجدير بالذكر أن هذا الطريق البرى هو الذى سلكته قوافل البريد[٩٢] فضلا عن التجار ورسل الخلفاء والأمراء الأغالبة. أما الطريق البحرى فأصبح آمنا بعد تداعى السيادة البيزنطية فى البحر الأبيض المتوسط بعد سنة ٢١٢هـ، وظهور بحرية الأغالبة وسيطرتها على الملاحة فى المنطقة الوسطى منه، فقد غدت موانىء مصر والشام مهيأة تماما لاستقبال السفن الأغلبية ، وأصبحت القوى الثلاث- فى مصر والشام وإفريقية - تسيطر على التجارة العالمية بين الشرق والغرب [٩٣]، ولا غرو فقد أظهر العباسيون آنذاك اهتماما غير عادى بالنواحى البحرية، تمثل فيما أمر به الخليفة المعتصم من بناء السفن لحماية سواحل الشام[٩٤].

وساعد على رواج التجارة أيضا ما عم العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى من تقدم فى الزراعة والصناعة، ووفرة فى إنتاج المحاصيل والسلع بدرجة جعلت التبادل التجارى أمراً ضرورياً . وتفيض كتب الجغرافيين[٩٥] والرحالة فى وصف المزارع المزدهرة وما تنتجه من غلات متنوعة، والمناجم وما يستخرج منها من معادن ومراكز تصنيعها فى الشام ومصر والعراق، كما تزخر بالحديث عما شهدته إفريقية من امتداد الرقعة الزراعية- بفضل اهتمام الأغالبة بتوفير

٩٠- البيان المغرب ج١ ص١٨٥ .

٩١- المسالك والممالك ص٧٢ وما بعدها .

٩٢- قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ص٢٢٧ ، ٢٢٨ .

٩٣- لويس : القوى البحرية ص١٩٨ ، Vonderheyden : Op. cit. p. 242

٩٤- لويس : نفس المصدر ص٢٢٥ .

٩٥- أنظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٧٢ وما بعدها .

المياه[٩٦]- وزراعة محاصيل جديدة، وعما غصت به مناجمها من معادن الحديد والفضة والرصاص ، وتقدم الصناعة والتخصص فيها حتى أن كل مدينة أو إقليم اشتهر بنوع معين من الصناعات، كما حفلت السواحل بمصايد الأسماك والإسفنج والمرجان[٩٧].

لذلك تألقت مراكز التجارة فى الشرق الإسلامى فى بغداد والإسكندرية ودمشق، وزاد من أهمية بغداد التجارية كونها حاضرة للعالم الإسلامى كله[٩٨]. كما انتعشت طرابلس وبيروت وصور [٩٩]، وكذلك ازدهرت القيروان وأصبحت أعظم المراكز التجارية فى غرب البحر الأبيض المتوسط، وأيضا تونس وقوصرة وقفصة وبجاية والأربس وسوسة. وعرفت رقادة بالأسواق والفنادق والقصور [١٠٠]، وكذلك العباسية [١٠١]. وإذا كانت بغداد ودمشق والإسكندرية قد عرفت نظام الأسواق المتخصصة [١٠٢]، فلاشك فى أن القيروان شهدت مثل هذه الأسواق منذ أيام يزيد بن حاتم [١٠٣]، وغص طريقها الرئيسى بالمتاجر ودور الصناعة [١٠٤]. ويحدثنا المالكى[١٠٥] عن حوانيت الرفائين والكنافين وتجمعها فى مكان واحد حيث عرفت «بالحوانيت الجدد».

وقد صدر الأغالبة القمح إلى الإسكندرية والرقيق الأسود إلى بلاد الشام، كما صدروا النسيج والأبسطة والأقمشة الفاخرة إلى بغداد[١٠٦] واستوردوا ماء الورد الذى اشتهرت به مدينة جور[١٠٧] ، وتعلموا زراعة المحاصيل المشرقية كالقطن وقصب السكر[١٠٨].

٩٦- Vonderheyden , op. cit. p. 342 .

٩٧- الإدريسى : صفة المغرب ص١١٥ وما بعدها .

٩٨- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص٣٢٩ .

٩٩- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٥٩ .

١٠٠- المغرب ص٢٧ .

١٠١- نفسه ص٢٨ .

١٠٢- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص٣٢٠ .

١٠٣- البيان المغرب ج١ ص٩٣ .

١٠٤- المغرب ص٣٥ .

١٠٥- رياض النفوس ص١٩٥ ، ١٩٦ .

١٠٦- ابن خلدون : المقدمة ص١٨١ .

١٠٧- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص٣٢٥ .

١٠٨- Heyd : Histoire du commerce . Vol, I. p. 50 .

وليس من شك فى أن تحكم الأغالبة والعباسيين فى التجارة العالمية فى ذلك الحين، وقيام الأغالبة بدور الوساطة التجارية، أدى إلى رخاء اقتصادي تمتعت به المدن والموانئ الإسلامية فى البحر الأبيض المتوسط، فقد شهدت حلب ودمشق وبيت المقدس رخاء عظيما[١٠٩]، والأرقام تدل على ما كانت عليه من ثراء عريض، ففى عام ٢٩٦هـ بلغ دخل سورية ثمانية وثلاثين مليون درهم [١١٠]. وليس يخفى ما كانت عليه كل من بغداد والإسكندرية من أحوال اقتصادية مزدهرة ، وما جناه الأغالبة من ثروات طائلة ، ظهرت آثارها فيما أقاموه من منشآت وعمائر بإفريقية . وليس أدل على ذلك الرخاء المادى من ذيوع الدينار الذهبى العباسى، واستخدامه فى المعاملات التجارية بين هذه البلاد ، وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على «الارتباط التجاري بينهما داخل وحدة اقتصادية واحدة» [١١١].

وثمة حقيقة على جانب كبير من الأهمية، وهى أن النظم المالية فى إفريقية قد تأثرت بالعملة العباسية، فإبراهيم بن الأغلب ضرب عملة خاصة جيدة القيمة ليدفع منها راتب الخلافة السنوى، كما ضرب زيادة الله الثالث عملة خاصة للخليفة المقتدر[١١٢]، ونقشت أسماء الخلفاء وأبنائهم على كثير من عملة الأمراء، وليس بغريب أن تنقش أسماء بعض أمراء الأغالبة على دنانير العراق إلى جانب أسماء الخلفاء[١١٣] ، وكانت وظيفة «متولى الضرب» التى وجدت فى إفريقية الأغلبية[١١٤] تقليدا لما عرفته العراق، ونجد الكثير من أسماء هؤلاء

١٠٩- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٥٩ ، Heyd: Op. cit, p. 43 .

١١٠- لويس : نفس المصدر والصفحة .

١١١- نفسه ، ص ٢٦١ .

١١٢- نقش زيادة الله على هذه العملة البيتين الآتيين :

يا سائرا نحو الخليفة قل له	إن قد كفاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبدالله سيف	الله من دون الخليفة سله

أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٨٥ . لكن الأثريين لم يعثروا على شئ من هذه العملة . انظر :

De Candia : Op. cit. p. 275 .

١١٣- الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص١٢٣ ، ١٢٤ .

١١٤- Vonderheyden : Op. cit. p. 171 .

الموظفين منقوشة على العملة الأغلبية [١١٥]، كما شاعت نفس الأساليب المصرفية التى ازدهرت فى العراق[١١٦].

وعرفت إفريقية نظام الدواوين ، فيذكر ابن الأثير[١١٧] أنه فى عام ٢٣١هـ اشتدت فتنة أحمد بن الأغلب حين ثار على أخيه الأمير محمد ونقل الدواوين إليه، ومن أهم هذه الدواوين ، ديوان الخراج، وكان صاحبه من الشخصيات المرموقة فى دولة بنى الأغلب ، فقد حرص الأمراء على اختيار «صاحب الخراج» ممن يثقون به [١١٨]. كما عرف الأغالبة أيضا ديوان «الخاتم» وغالبا ما كان هذا الديوان يسند إلى الوزير ، إذ أسند ابراهيم الثانى إلى ابنه عبدالله الوزارة والخاتم [١١٩]. ومن الدواوين أيضا «ديوان العطاء» [١٢٠]، وكذلك «دار الطرز»[١٢١] التى كانت تنتج ما يرسله الأمير من الكساوى والإنعامات إلى مشاهير رجال الدولة فى المناسبات. ودخل نظام الحسبة إلى إفريقية الأغلبية فكانت الدولة تشرف على الأسعار ، وعلى مستوى الإنتاج وأحوال الصناعة[١٢٢]. كما عرف الأغالبة أيضا نظام العسس [١٢٣].

وكان للأغالبة نفس النظم الإدارية ، وكان بلاطهم صورة صادقة لبلاط الخلفاء العباسيين[١٢٤] فقد عرفت إفريقية الأغلبية نظام الوزارة [١٢٥]، واتخذ معظم الأمراء وزراءهم

١١٥- من هؤلاء موسى الذى تولى هذه الوظيفة فى عهد ابراهيم الأول، ومسرور فى عهد زيادة الله الأول، وخلف فى عهد محمد الأول.

أنظر : Lavoix : Op. cit vol . 2 . p. 364 . ff

١١٦- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٦٣ .

١١٧- الكامل ج٥ ص٢٧٥ .

١١٨- البيان المغرب ج١ ص١٧٨ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 171

١١٩- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٦٠ .

١٢٠- نفسه ص١٥٨ . . Vonderheyden : Op. cit. p. 173

١٢١- ابن عذارى : ص٢٠٠ .

١٢٢- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٥٣ .

١٢٣- الكامل ج٦ ص١٠٤ .

١٢٤- . Vonderheyden : Op. cit. p. 126

١٢٥- الكامل ج٦ ص٦ ، ٧ .

من أفراد الأسرة أو ممن يثقون بهم من العناصر الموالية للبيت الأغلبى، كما عرفت أيضا نظام «الحجابة» ، ومن أهم حجاب الأغالبة أحمد بن محمد بن قرهب حاجب ابراهيم بن أحمد وقائده المعروف [١٢٦]، ووجدت وظيفة «صاحب البريد» ، وكان ابن الصايغ يجمع بين البريد وبين الوزارة فى عهد زيادة الله الثالث[١٢٧].

(د) أثر بغداد فى الحياة الثقافية بالقيروان :

نجم عن صلات الود بين الأغالبة والعباسيين تألق فى الحياة الثقافية وفى الفن الإسلامى فى إفريقية، فاتجه المغاربة إلى بغداد يتلقون عنها ضروب العلم والمدنية، وانعكست حضارة العباسيين على البلاط الأغلبى الذى كان فى رونقه ورسومه وأبهته صورة مصغرة لبلاط بغداد وسامرا[١٢٨].

وإذا كانت حضارة إفريقية الأغلبية قد تأثرت بمؤثرات أخرى تنتمى إلى عالم البحر المتوسط[١٢٩]، أو تستمد قوامها من الأصول البيزنطية القديمة، إلا أنه من السهولة بمكان تمييز المؤثرات العباسية فيها واضحة جلية. ولم تترك مدرسة بغداد أثراً كبيراً فى النواحى المتعلقة بالفقه وعلوم الشريعة التى شهدتها مدرسة القيروان [١٣٠]، فلم يستطع المغاربة استيعاب النشاط الفكرى المتألق فى عاصمة الخلافة، ذلك النشاط الذى ازدهر نتيجة الاطلاع على الفكر اليونانى وتأثره بالمنطق الأرسطى إلى أبعد الحدود. ولعل ذلك يفسر إقبال المغاربة على مذهب مالك الذى يلتزم بالكتاب والسنة وأعمال الصحابة والتابعين ، ولايميل إلى الاجتهاد والقياس كما هو الحال بالنسبة لمذهب أبى حنيفة [١٣١]. ونظراً لإقبال فقهاء الحنفية فى المغرب على أصحاب الأمر والسلطان، والتماسهم الرخص والتيسيرات عن طريق التأويل والقياس

١٢٦- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٨ .

١٢٧- البيان المغرب ج١ ص١٨٣ .

١٢٨- Vonderheyden : Op. cit . p. 326 .

١٢٩- Ibid . p. 324 .

١٣٠- ابن خلدون : المقدمة ص٤٤٩ .

١٣١- نفس المصدر ص٠٥ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٩٣ .

البعيد [١٣٢]، كان المالكية بالمغرب أكثر الناس عنفا فى مقاومة آرائهم، وكذلك آراء المعتزلة والقدرية والخوارج [١٣٣]. وبالرغم من جهود فقيه كأسد بن الفرات الذى عرف بتبحره فى العلوم على اختلافها [١٣٤]، واستيعابه لآراء أبى حنيفة ؛ فلم يقدر لمذهب أهل العراق رواجا فى إفريقية الأغلبية بل «محيت كتب أبى حنيفة من إفريقية على يد سحنون»[١٣٥].

كذلك نشطت الرحلات العلمية بين بغداد والقيروان إذ رحل الكثير من علماء المشرق إلى إفريقية ، ووجد من العراقيين من درس العلم فيها ، كعبد الرحمن بن عبيد البصرى الذى تتلمذ على يديه الكثيرون من طلبة إفريقية الوافدين إلى القيروان [١٣٦]. كما شهدت بلاد المغرب الرحالة والجغرافيين المشارقة الذين وفدوا للمشاهدة والدراسة ، ومن هؤلاء اليعقوبى المتوفى عام ٢٨٢هـ صاحب كتاب البلدان[١٣٧].

وغصت مدارس الكوفة والبصرة وبغداد بالكثيرين من الطلبة المغاربة وكذلك الشعراء ، والعلماء والفقهاء ، ومنهم من نال صيتًا ذائعًا فى المشرق كالفقيه عبدالله بن محمد بن سعيد الذى أخذ عن محمد بن شجاع البلخى وغيره، وأجاد أساليب المناظرة على طريقة أهل العراق[١٣٨]، وكان الفقيه محمد بن زرزر عالمًا بمذاهب أهل الكوفة وبجميع الأقاويل [١٣٩].

وتركت المؤثرات الثقافية العراقية آثاراً واضحة على نظم الدراسة ومناهجها فى إفريقية فقد جرى نظام الدراسة على ما عرف فى العراق من حلقات الطلاب وأساتذتهم ، كما اتبع أيضا منهج التخصص فى الدراسات الإسلامية ، كدراسة المغازى والشريعة والنحو والفقه والحديث . ومن أشهر أساتذة مدرسة القيروان فى هذا الصدد أسد بن الفرات ، وسحنون ،

١٣٢- رياض النفوس، المقدمة ص١٣ .

١٣٣- أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص١٠٢ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٩٣ .

١٣٤- رياض النفوس ص١٨١ ، ابن خلدون : المقدمة ص٤٥٠ .

١٣٥- المالكى : المرجع السابق ص١٦٥ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٩٣ .

١٣٦- ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواة ج١ ص٢٠٠ .

١٣٧- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص٤٠٤ .

١٣٨- معالم الإيمان ج٢ ص١٥٥ .

١٣٩- رياض النفوس ص٤١٤ .

وأبى محرز ، ومحمد بن سحنون ، ومحمد بن عبدوس وغيرهم ممن انتهجوا نهج المعاصرين فى المشرق كالبخارى ومسلم(١٤٠).

ومن المعروف أن الفن الإسلامى شهد تطوراً ملحوظًا فى العصر العباسى ، وبلغ الطراز العباسى أوجه فى مدينة سامرا فى القرن الثالث الهجرى، وحين دب إليه الضعف نتيجة الاضطراب السياسى، حملت الدول المستقلة لواءه وطورته وأصبحت لها أنماطها الفنية المستقلة(١٤١). ومن الطبيعى أن تتأثر الفنون والعمارة فى إفريقية تأثراً واضحا بالأنماط الفنية بالرقة وبغداد وسامرا، إذ لم يكن من الممكن أن ينفرد الأغالبة -بادئ الأمر- بطابع مستقل فى الفن، منفصل عن الطابع العباسى(١٤٢) ولكنهم ما لبثوا أن اتخذوا أسلوبا مستقلا أخذ ينمو ويتطور ، وظهرت آثاره فيما بعد على فنون قرطبة، وفاس والمهدية(١٤٣). وكان الفن الأغلبى متأثرا أيضا بمؤثرات بيزنطية ورومانية ، وبخاصة فى المعاقل والحصون التى أقامها الأمراء للدفاع عن المدن(١٤٤)، واختلطت هذه الأنماط بالطابع العباسى، حتى أصبح من العسير التمييز بين ما هو وارد من المشرق وما هو مسيحى وبيزنطى (١٤٥). ومع ذلك ظهر الطابع العباسى بشكل واضح فى الكثير من المنشآت الأغلبية كالقصور ، وقناطر المياه، والمواجل، وفى الأبنية المشيدة بالآجر الذى لم يكن معروفا لدى البيزنطيين أو الرومان (١٤٦). وفى تسمية الأغالبة لكثير من منشآتهم بأسماء عباسية (١٤٧)- كمدينة العباسية التى أقامها إبراهيم الأول، وقصر بغداد الذى أقام فيه زيادة الله الثالث حين استفحل خطر الشيعة - ما ينهض دليلا على أن الفن الأغلبى كان متأثرا بالتقاليد العباسية . كما أن فن التصوير والزخرفة المشرقى وجد طريقه إلى العمارة الأغلبية فآيات القرآن المكتوبة بالخط الكوفى على جدران جامع الزيتونة بتونس (١٤٨)، والتى تعد معجزة فى فن الزخرفة الإسلامية، دليل ناصع على

١٤٠- Vonderheyden : Op . cit. pp. 126 , 127 .

١٤١- زكى حسن : فنون الإسلام ص١٣ .

١٤٢- حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٤٤٨ .

١٤٣- زكى حسن : المرجع السابق ص٤٤٩،

١٤٤- Terrasse L'Art Hispano - Mauresque . p. 40 .

١٤٥- Brunschvig : La Tunisie dans le haut moyen age .p. 19

١٤٦- Terrasse : Op. cit . p. 401 .

١٤٧- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٧ .

١٤٨- البكرى : المغرب ص١٣٠ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص١٠ ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج٢ ص٤٣٧ ، ٤٣٨ .

هذا التأثير . بل كا الأغالبة يستوردون أعمالا فنية جاهزة من بغداد ، كاللوحات القاشانية التى تزين محراب جامع سيدى عقبة [١٤٩]، وعددها نحو مائة وأربعين بلاطة، تعد من أبدع ما أنتجه الخزفيون فى العصر العباسى، ويلاحظ أنه ضمن زخارفها توجد علامات على شكل حروف كوفية مزخرفة ، وقد جلبت هذه اللوحات من بغداد للأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبى فيما بين عامى ٢٤٢ و ٢٤٨هـ [١٥٠].

كما استورد الأغالبة أيضا بعض الخامات كخشب الساج الذى يستخدم فى عمل المنابر[١٥١]، وقد صنع منبر جامع سيدى عقبة من خشب ساج جلب من بغداد فى عام ٢٤٨هـ، ويعد هذا المنبر من أبدع التحف الخشبية فى فجر الإسلام [١٥٢]، ويدل على نقلة فى تاريخ الفن إذ يمثل تطوره من الطراز الأموى إلى الطراز العباسى[١٥٣] وعمل فنانون من العراق فى خدمة الأمراء الأغالبة لإقامة المنشآت وما يتصل بها من نحت وزخرفة ، ونقش وحفر [١٥٤]. ووجد من الصناعات فى إفريقية الأغلبية ما كان متأثرا بنظائرها فى العراق ، كصناعة الخزف[١٥٥] التى ازدهرت ، وتفوقت على الخزف العراقى نفسه [١٥٦]. ولعل هذا التأثير الكبير للطرز العباسية فى العمارة والفنون الأغلبية ، هو الذى حدا بجورج مارسيه إلى القول بأن «الموالى لعبوا دوراً هامًا فيما شيده الأغالبة من منشآت فى إفريقية»[١٥٧].

١٤٩- معالم الإيمان ج٢ ص٩٧ ، . Huart : Histoire des Arabes, , vol . 2 . p. 99

١٥٠- زكى حسن : فنون الإسلام ص٦١ . ويرى الدكتور أحمد فكرى أن ما استقدم من بغداد هو القراميد القيشانية التى تكسو جدران القبلة وتحيط بعقد المحراب .

أنظر : مسجد القيروان ص١٢٩ .

١٥١- البيان المغرب ج١ ص١٤٨ .

١٥٢- زكى حسن : فنون الإسلام ص٤٤٤ .

١٥٣- نفسه ص٤٤٦ .

١٥٤- معالم الإيمان ج٢ ص٩٧ .

١٥٥- Terrasse : Op. cit. p. 177 .

١٥٦- Vonderheyden : Op. cit. p. 242 .

١٥٧- Idris : Contribution d'histoire de l'ifrikiya - Revue des études islamiques, 1935 , p. 174 .

ثانيا : العلاقات بين مصر وإفريقية

(١) العلاقات السياسية :

ظلت مصر على صلات وثيقة بالمغرب طوال الحكم البيزنطى بفضل موقعها الجغرافى ، وسهولة الاتصال البرى والبحرى بينها وبين تلك البلاد. وازدادت هذه الصلات أهمية وتوطدا بعد ظهور الإسلام، فمن مصر انطلقت الحملات المتتالية لفتح المغرب[١]، ولايمكن إنكار الجهود التى بذلها ولاتها فى قيادة هذه الحملات أو إسناد قيادتها إلى رجالهم . فمسلمة بن مخلد- وهو أول ولاة مصر الذين حكموا مصر والمغرب [٢]- وجه حسان بن النعمان ومن بعده أبا المهاجر دينار للاضطلاع بمهمة الفتح ، ولم تكن فتوحات عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوى إلا من قبل الواليين سعيد بن يزيد[٣] وعبد العزيز بن مروان [٤]. كما ساهمت مصر بأموالها فى تمويل هذه الفتوحات ، فقد أطلق الخلفاء الأمويون أيدى قواد هذه الحملات فى أموال مصر لتوزيعها على العسكر[٥].

ولم تخرج بلاد المغرب عن تبعيتها لمصر إداريا إلا بعد عام ٨٦هـ حين أرسل عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير ليحكم المغرب من القيروان بدلا من حسان بن النعمان [٦]، ومنذ ذلك الحين أصبح ولاة المغرب على صلة مباشرة بالخلافة[٧]. ومع ذلك ، فمن الملاحظ أن غالبية ولاة المغرب فى عصر الولاة كانوا ممن تولوا حكم مصر من قبل، كعبيد الله بن الحبحاب وحنظلة بن صفوان وغيرهما .

١- فتوح البلدان ص٢٦٧ .

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص١٩٧ ، البلاذرى : المرجع السابق ص٢٧٠ .

٣- النجوم الزاهرة ج١ ص٦٦ .

٤- فتوح البلدان ص٢٧٠ .

٥- البيان المغرب ج١ ص٢٢ .

٦- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص٢٠٣ ، ابن عذارى ، المرجع السابق ص٣١ ، ٣٢ .

٧- سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص٢٥ ، ٢٦ .

وأسهمت مصر فى أحداث المغرب بقمع ثورات الخوارج ، فمحمد بن الأشعث- والى مصر- هو الذى قمع ثورات البربر سنة ١٤٢هـ، ومحمد بن عبد الرحمن - والى مصر- هو الذى جهز يزيد بن حاتم «بالأموال والخيل والسلاح والرواتب» سنة ١٥٥هـ ، وبفضلها تمكن يزيد من تمهيد المغرب وإصلاح أموره[٨] وفضلا عن ذلك فقد كانت مصر ترسل معونة مالية سنوية قدرها مائة ألف دينار لتغطية نفقات ولاة المغرب، ولم تنقطع هذه المعونة إلا بقيام دولة الأغالبة.

ولما ظهر الأغالبة ، تابعت مصر دورها السابق فآزرتهم فى مواجهة مشاكلهم الداخلية بتوجيه من الخلافة العباسية التى لم تستطع إرسال المساعدات مباشرة، فكانت تسند إلى والى مصر هذه المهمة . وبفضل أموال مصر تم القضاء على ثورة عمران بن مخلد الذى حاصر إبراهيم بن الأغلب فى مدينة العباسية[٩] وكاد أن يقضى عليه، وفى سنة ١٨٧هـ استعان إبراهيم بن الأغلب بوالى مصر أحمد بن إسماعيل لما تمرد أهل طرابلس «فأمده بالعساكر، وتوجهوا إليه ثم عادوا »[١٠].

وإذا كان الأمراء الأغالبة قد قبلوا مساعدة ولاة مصر عن طيب خاطر ؛ فإنهم رفضوا أن يكونوا أتباعا لهم، فلم يرض زيادة الله الأول بالتبعية لوالى مصر عبدالله بن طاهر ، وخالف الخليفة المأمون فى هذا الشأن. فقد كان أمير القيروان يمارس سلطانا أوسع نطاقا بوصفه أميراً مستقلا، ولذلك لم يكن من المعقول أن يستجيب لطلب الخليفة العباسى بشأن تبعيته لوالى مصر.

ويبدو أن ولاة مصر كانوا ينفسون على الأمراء الأغالبة مكانتهم الفريدة ، وإلا فما تفسير ايوائهم لبعض المناوئين لحكم زيادة الله الأول؟ يذكر النويرى[١١] أن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ومحمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب هربوا من إفريقية بعد موت

٨- ابن تغرى بردى: المرجع السابق ص٢٣ ، ٢٤ .

٩- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٨ ، . Fournel : les Berbrs . vol . I. p. 468

١٠- النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص١٢٤ ، ١٢٥ .

١١- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٣٢ .

أبى العباس عبدالله وتولية زيادة الله- خوفا من بطشه- وأقاموا بمصر. ومما يحملنا على هذا الاعتقاد إقدام زيادة الله الأول على قتل عمرو بن معاوية القيسى وولديه- وكانوا قد خرجوا عليه- ولم يعر أقوال أعوانه اهتماما حين حذروه غضب القيسية فى مصر عليه[١٢].

قصارى القول : أن علاقات الأغالبة بمصر فى عصر الولاة اتخذت طابعا وديا بوجه عام، مجاراة لسياسة الأغالبة الخارجية المتأثرة أصلا بالولاء للخلافة العباسية ، وحسبنا عدم وقوع ثمة ما يشير إلى عداء صريح بين ولاة مصر العباسيين وبين حكام القيروان[١٣].

وقد تغيرت طبيعة هذه العلاقات بعد استقلال أحمد بن طولون بمصر سنة ٢٥٤هـ، حقيقة أنه تولى حكمها من قبل الخليفة المعتز، لكنه عول من بادئ الأمر على الاستقلال بها ، ولم يسفر أحمد بن طولون عن مشروعاته فى الاستقلال فجأة. بل آثر تحقيقها على خطوات متتابعة تضمن له التمكين لنفسه فى مصر أولا ، ثم الانسلاخ بها عن سلطان الخلافة الفعلى[١٤]، وبالفعل حقق ابن طولون أهدافه فى أيام الخليفة المعتمد[١٥] ودخل فى صراع طويل مع الموفق- أخى الخليفة- وصاحب السلطان الفعلى فى بغداد [١٦].

وباستقلال أحمد بن طولون بمصر ، انتهت مرحلة العلاقات الودية بين مصر وإفريقية . حقيقة أن الأغالبة لم يفكروا جديا فى القيام بعمل عسكرى موجه إلى مصر الطولونية، لانصرافهم إلى محاربة القوى المعادية فى البحر المتوسط ، وبديهى أيضا أن أحمد بن طولون لم يكن يهدف إلى القيام بعمل عدائى ضد إفريقية ، والدخول فى صراع مع الأغالبة [١٧]، لانصرافه إلى بلاد الشام والثغور التى استحوذت على جل اهتماماته. ومع ذلك اتسمت

١٢- البيان المغرب ج١ ص١٢٥ ، ١٢٦ .

١٣- Vondrehyden , la Berberie Orientale . p. 34 .

١٤- صبح الأعشى ج٣ ص٤١ ، حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص١٨ .

١٥- النجوم الزاهرة ج٢ ص٦ .

١٦- أنظر : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص٢٧٩ وما بعدها ، Brockelman : history of the Islamic people . pp. 138 -140 .

١٧- Zaki Hassan : les Tulunids. p. 160 .

العلاقات بين الطرفين بروح العداء، فقد لجأ كل من الطولونيين والأغالبة إلى الكيد لبعضهما البعض عن طريق إثارة القلاقل على الحدود المشتركة. يفسر ذلك قيام الثائر المفرج بن سالم بالثورة على أمير القيروان ، واستيلائه على أربعة وعشرين حصنا بمنطقة الأرض الكبيرة- التى تبعد عن برقة بنحو مسيرة خمسة عشر يوما نحو الغرب- وطلب أن يكون تابعاً لأحمد بن طولون [١٨]. ويبدو أن الأغالبة ردوا على ذلك بإثارة سكان برقة- التابعة لمصر[١٩]- ضد ابن طولون ، مما دفع الأخير إلى إرسال غلامه لؤلؤة على رأس جيش لتأديب الثوار، فردعهم بالقسوة، «وقبض على جماعة من رؤسائهم ، وضربهم بالسياط، واستعمل على برقة عاملا»[٢٠]، وقد حدث ذلك سنة ٢٦١هـ . وظلت برقة تابعة للطولونيين [٢١]، ولم تدخل على الإطلاق فى نطاق دولة بنى الأغلب[٢٢]، ووقف النفوذ الطولونى لايتعداها صوب الغرب . كذلك لم يفكر الأغالبة قط فى بسط سلطانهم فيما وراء برقة شرقا، ولذلك لم يهتموا بإنشاء الحصون والمحارس على حدودهم الشرقية [٢٣]، وظل «قصر أحمد» الحد الشرقى لملك الأغالبة[٢٤].

لكن محاولة من جانب الطولونيين بقصد غزو إفريقية تمثلت فى حركة العباس بن أحمد بن طولون ، ففى عام ٢٦٤هـ غادر أحمد بن طولون مصر متوجها إلى أنطاكية لحصار سيما الطويل[٢٥] الخارج عليه بالشام، واستخلف ابنه العباس على البلاد، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطى ليكون له «مدبراً ووزيراً» [٢٦]، لكن العباس وقع تحت تأثير جماعة من القواد

١٨- الكامل ج٥ ص٢٦٣ .

١٩- فتوح البلدان ص٢٦٤ .

٢٠- الكامل ج٦ ص٥ .

٢١- ايشهورن : ذكر بلاد المغرب ص٨ ،

Fournel , Op. cit . vol I, p. 56 , Zaki Hassan : Op. cit . p. 70 .

٢٢- الاصطخرى : المسالك والممالك ص٢٣ .

٢٣- العبر ج٤ ص٤٣٩ .

٢٤- صبح الأعشى ج٥ ص١٠٥ .

٢٥- النجوم الزاهرة ج٣ ص٤٠ .

٢٦- الولاة والقضاة ص٢١٩ .

الحانقين على والده فأغروه بالخروج[٢٧]، ومن هؤلاء على ابن ماجور وعبدالله بن طغيا وأحمد بن صالح الرشيدى وجعفر بن حدار الكاتب[٢٨]، كما شجعه على الخروج إيقاع جماعة من النحاة والأدباء بينه وبين الوزير الواسطى . والحق أنهم كانوا مدفوعين فى ذلك بحقدهم الشخصى على الواسطى، وعلو مكانته عند ابن طولون ، ومن هؤلاء أحمد بن المؤمل ومحمد بن أزهر [٢٩]، فاشتط العباس فى معاملة الواسطى والتضييق عليه، ولم يجد الواسطى مناصا من مراسلة والده بشأنه ، وكانت كتب الواسطى تبلغ العباس عن طريق محبوب بن رجاء الذى اصطحبه احمد بن طولون[٣٠] معه إلى الشام . واطلع العباس كذلك على ردود والده عندما هاجم منزل الواسطى، فلما وقف عليها «اشتد خوفه من أبيه ، وساء ظنه به»، وقرر مغادرة مصر[٣١]. وجمع من الأموال ما بلغت قيمتها ألف ألف دينار، واقترض من التجار مائتى ألف، واصطحب الواسطى وأيمن الاسود معه مكبلين بالأغلال[٣٢].

توجه العباس إلى الإسكندرية سنة ٢٦٥هـ مظهراً عزمه على قتال الروم بعد أن استخلف أخاه ربيعة على الفسطاط ، ومن الاسكندرية سار إلى برقة [٣٣]. ويذهب الدكتور زكى حسن[٣٤] إلى أن العباس لم تراوده فكرة القيام بحملة توسعية على إفريقية ، بل تركز هدفه فى تأسيس إمارة مستقلة فى برقة . ويذهب آخرون[٣٥] إلى تبييته النية على غزو إفريقية، والتوسع نحو الغرب ، وانتزاع القيروان من أيدى الأغالبة.

٢٧- يذكر الدكتور زكى محمد حسن أن هذه الجماعة كانت تعمل فى الخفاء لصالح الموفق العباسى عن طريق إثارة المتاعب الداخلية فى وجه ابن طولون . لكن لم يرد بالمراجع ما يشير إلى ذلك .

أنظر : Les Tulunides p . 68 .

٢٨- ابن الداية : : سيرة ابن طولون ص٥٨ ، الولاة والقضاة ص٢٢٠ .

٢٩- البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص٢٣٦ .

٣٠- نفسه ص٢٤٧ ، ابن الداية : المرجع السابق ص٥٩ .

٣١- البلوى : ص٢٤٨ .

٣٢- العبر ج٤ ص٣٠١ .

٣٣- الولاة والقضاة ص٢٢١ ، البلوى : المرجع السابق ص٢٤٨ .

٣٤- Les Tulunides, p. 70 .

٣٥- أنظر : المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، كما ورد عند البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص٢٥٥ ، ٢٥٦ . . Vonderheyden : Op. cit , p. 270 .

والراجح أن العباس لم يفكر قط فى الخروج من مصر إلا بعد تيقنه من انتقام والده عقب عودته من الشام، وذلك بعد إطلاعه على رسائل والده إلى الواسطى، فعول على الهرب ، واستقر فى برقة زمنا دون أن يتطلع إلى المغرب . بل إنه فكر فى العودة إلى مصر حين وصلته كتب والده التى يعده فيها بالعفو ، ولم يرده عن العودة سوى تخويف أصحابه ، بما سيحل به وبهم من نقمة أبيه، فزينوا له غزو إفريقية ، وصوروا له قدرته على ذلك لما كان معه من مال وجند وعتاد ، ولما كانت عليه إفريقية من اضطراب ، فاستجاب لهم[٣٦].

وسواء أكان غزو العباس لإفريقية نتيجة نية مسبقة، أو مرتهنا بتطور الأحداث التى جعلته يخشى العودة إلى مصر ، فالذى يهمنا أن حدود دولة الأغالبة الشرقية تعرضت للخطر بشكل جدى من قبل مصر لأول مرة منذ قيامها . فقد كتب العباس إلى وجوه البربر يرغبهم فى الانضمام إليه، وانحازت قلة منهم إلى جانبه. كما أرسل إلى ابراهيم بن أحمد يخبره «بأن المعتمد بالله أمير المؤمنين قلده أمر إفريقية » ويأمره «بالدعوة له» [٣٧]. ولم ينتظر العباس رد الأمير الأغلبى وهاجم حصن لبدة، وقبض على عامله الأغلبى ، وأعمل فيه النهب والسلب[٣٨] ، فاستعانت طائفة من أهل الحصن بإلياس بن منصور النفوسى رئيس الإباضية، فاشترك[٣٩] مع جيوش ابن الأغلب بقيادة ابن قرهب عامل طرابلس فى التصدى لحملة العباس[٤٠]، وأطبق عليه الجيشان فى معركة دارت الدائرة فيها على الجيش الطولونى وقتل

٣٦- ابن الداية : المرجع السابق ص١٠٥ ، البلوى : المرجع السابق ص٧٧ ، الكامل ج٦ ص٢١ ، العبر ج٤ ص٣٠١ ، المقريزى: الخطط ج٢ ص١١٤ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٧ .

٣٧- البلوى : المرجع السابق ص٥٣ .

٣٨- العبر ج٤ ص٣٠٢ .

٣٩- ليس ثمة ما يثير الدهشة فى اشتراك النفوسيين الإباضية - أعداء الأغالبة- فى التصدى لحملة العباس إلى جانب الجيش الأغلبى، إذا علمنا أن الخطر الطولونى هدد النفوسيين أيضا، ويظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى وجهها العباس إلى الياس ابن منصور كبير نفوسة، حيث خاطبه فيها بقوله : «أقبل بسمعك وطاعتك ، وإلا وطيت بلدك بخيلى ورجلى ...» فرد النفوسى على رسول العباس: «قل لهذا الغلام أنت أقرب الكفار منى واحقهم بمجاهدتى... وأنا على أثر رسالتى إليك». أنظر البارونى: الأزهار الرياضية ص٢٥٨ . وخرج إلياس لملاقاته على رأس ألف وستمائة فارس . أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٥٧ .

٤٠- الكامل ج٦ ص٢١ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٧ .

منه جمع غفير ، ونجا العباس بعد أن فقد «سواده وذخائره وجميع ما كان معه من المتاع والأموال والسلاح وما حصله من مصر»[٤١].

ولامبالغة فيما يذكر[٤٢] عن وفرة المغانم التى وقعت فى أيدى الأغالبة ، إذ أنها أحدثت رواجا اقتصاديا ملموسا فى إفريقية، بعد أن كان ابراهيم بن أحمد الأغلبى يعانى من الضائقة قبل التحام جيوشه مع العباس، حتى اضطر أن « يضرب حلى نسائه دنانير ودراهم»[٤٣] ليدفع منها رواتب الجند. ويؤكد المؤرخون أن النفوسيين لم يصيبوا شيئًا من هذه المغانم زهداً منهم وتعففا ، فوقعت كلها فى يد إبراهيم بن أحمد فتمكن من إصلاح حاله بأن أصدر عملة جديدة سميت «بالدنانير العشرية» [٤٤]، ضاربا صفحا عن تذمر التجار لما أصابهم من خسارة [٤٥]. وبذلك وجد الأمير حلا للأزمة المالية التى ورثها عن الأمير أبى الغرانيق[٤٦].

وليس من شك فى أن الكارثة التى لحقت بالجيش الطولونى أحدثت صدى سيئا فى مصر، ويكفى أنها وضعت أحمد بن طولون فى مأزق لامخرج منه، إذ أوقع هذا الحادث بينه وبين الأغالبة والنفوسيين ، ولم يكن فى مقدوره الانتقام لما حل بالعباس ، ولم يكن يستطيع السكوت وإلا انتقص ذلك من شأنه ومكانته[٤٧]. فلم يجد ابن طولون بدا من أن يكتب إلى ابنه فى برقة يوبخه ، ويأمره بالعودة . ورد عليه العباس مبررا مسلكه [٤٨]، فعزم ابن طولون على المسير إليه بنفسه ، ولم يثنه عن عزمه سوى تهوين الواسطى من شأن العباس . وتوجه الواسطى بنفسه على رأس جيش لإحضاره[٤٩] بالقوة، وتمكن من هزيمة العباس بالفعل ،

٤١- البلوى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

٤٢- Vonderheyden : Op. cit . p. 250 , Zaki hassan : Op. cit . p. 160 .

٤٣- البيان المغرب ج١ ص١٥١ .

٤٤- نفسه ص١٦١ .

٤٥- De Candia : Monnaies Aghlabites. 274 , Revue Tunisienne. 1935

٤٦- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٥٨ .

٤٧- ابن الداية : ص٦٢ .

٤٨- عن الرسالتين المتبادلتين بين أحمد بن طولون والعباس ، أنظر : البلوى من ص٢٥٧ إلى ٢٦٤ .

٤٩- العبر ج٤ ص٣٠٢ .

وعاد به إلى مصر أسيرا(٥٠) . وهكذا لم يقدر لحملة العباس أن تحقق أغراضها، وسلمت إفريقية من الخطر الطولونى(٥١).

وبعد حملة العباس بنحو ست سنوات، تحركت من إفريقية حملة أغلبية نحو مصر ، لكنها عادت من حيث أتت دون أن تحقق أغراضها. والواقع أن المؤرخين اختلفوا حول أغراض هذه الحملة ودوافعها اختلافا بينا. فبعضهم يعزوها إلى رغبة إبراهيم بن أحمد فى التنكيل بالخوارج الإباضية بجبل نفوسة، فيذكر الدرجينى(٥٢) نقلا عن أبى زكرياء(٥٣) «بأن نفوسة كانوا أطوع برعايا الدولة الرستمية، وأكثرها عونا على الخير، وأشدها بأسا فى النصر على الأعداء .. وانتشر الصيت عن نفوسة حتى اشتهر فى بلاد المشرق عند ملوك المسودة لمكاتبات أهل القيروان، وأهل مدينة طرابلس وغيرهم ، يعلمونهم أن دولة الرستميين أقامتها نفوسة .. وكان ذلك فى أيام المتوكل ببغداد، فاهتز لذلك ، وتحرك إليه خاطره ، فوجه إليه عسكرا فى المغرب قاصداً تاهرت، فلما قرب من طرابلس سمعت بخبره نفوسة، فخرجوا إلى العسكر يمنعونه السلوك إلى المغرب ، فلحقوه بموضع يقال له (مانوا) . فاقتتلوا قتالاً شديداً لم ير أشد منه بالمغرب».

ويحدد ابن عذارى(٥٤) هدف الحملة بعزم ابراهيم بن أحمد على قتل ابن عمه أبى العباس محمد بن زيادة الله حاكم طرابلس «لأن المعتضد العباسى كتب إلى إبراهيم بن أحمد يعنفه على سوء فعله بأهل تونس ويقول له : إن انتهيت عن أخلاقك هذه ، وإلا نسلم العمل

٥٠- البلوى : ص٢٦٧ ، الطبرى تاريخ الأمم والملوك ج٨ ص٤٤ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٢٧ ، المقريزى: الخطط ج٢ ص١١٥ .

٥١- يورد المؤرخ ميور : «أن أحمد بن طولون انتصر على ابراهيم بن أحمد الأغلبى الذى اتجه بمطامعه نحو مصر» . أنظر : The Caliphate p. 548 والواقع أنه لم يحدث قط أن التقى أحمد بن طولون بإبراهيم بن أحمد الأغلبى فى معركة ما، ذلك أن الحملة التى قادها إبراهيم بن أحمد على مصر حدثت سنة ٢٨٣هـ أى فى عهد هارون بن أحمد بن طولون ، ولم تلتق هذه الحملة البتة بجيوش طولونية.

٥٢- طبقات الإباضية ج١ ورقة ٣٩ .

٥٣- كتاب السيرة ، وأخبار الأئمة ورقة ٣٣ .

٥٤- البيان المغرب ج١ ص١٧٣ ، ١٧٤ .

الذى بيديك لابن عمك محمد بن زيادة الله» . ويفسر ابن عذارى احتكاك إبراهيم بن أحمد بنفوسة بأنها «اعترضته بين قابس وطرابلس ومنعته من المرور» ويؤيد كل من فورنل ، وفندرهيدن وزكى حسن وجهة نظر ابن عذارى.

وثمة قول ثالث للبارونى[٥٥] نقلا عن الرقيق المؤرخ يعزو فيه هدف الحملة بأنه الانتقام من الطولونيين بمصر، «ففى سنة ٢٨٣ هـ تحرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون ، وأمر بالحشد، فلما اجتمع له ما يريد خرج من تونس لعشر خلون من المحرم، فأقام برقادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج بجميع من معه، فاعترضته أهل نفوسة، فكان بينهم قتال عظيم .. وكان (ذلك) فى أيام المعتضد..» . ومما هو جدير بالذكر أن ابن خلدون والنويرى يأخذان بوجهة النظر هذه .

والحق أن الرواية الأولى تنطوى على عديد من الأخطاء التى تشكك فى قبولها ، فلم تكن تلك الحملة معاصرة للخليفة المتوكل كما يذهب الدرجينى ؛ ذلك أن وفاته كانت سنة ٢٤٧هـ[٥٦]، بينما خرجت الحملة من تونس سنة ٢٨٣هـ . ومن ناحية أخرى لم يرد عند المؤرخين ما يشير إلى خروج ابراهيم بن أحمد إلى المشرق بقصد إعداد حملة لقتال الرستميين، كما لم تكن الخلافة آنذاك فى حالة تسمح لها بتعبئة الجيوش إلى إفريقية، وهو أمر لم تشهده إفريقية الأغلبية حتى فى أشد أزماتها . وحتى لو سلمنا بوصول الحملة العباسية إلى إفريقية ، فلماذا لم تتجه إلى تاهرت قلب الدولة الرستمية بعد أن تسنى لها التنكيل بنفوسة مصدر قوتها ؟ كل ذلك يشكك فى صدق هذه الرواية.

أما رواية ابن عذارى التى يأخذ بها فورنل وفندرهين فلا يمكن الأخذ بها لاعتبارات كثيرة منها : أنه لم يكن هناك ما يدعو إبراهيم بن أحمد لتجهيز حملة من عشرين ألف مقاتل[٥٧]، ويلتحم مع نفوسه فى حرب مضنية من أجل تحقيق هدف جزئى كقتل ابن عمه حاكم طرابلس ، ثم إن الخليفة المعتضد لم يتدخل لإقصاء إبراهيم بن أحمد عن إفريقية إلا سنة ٢٨٩هـ، حين

٥٥- الأزهار الرياضية ج٢ ص٨٠ ، ٨١ .

٥٦- صبح الأعشى ج٢ ص٢٥٩ .

٥٧- البيان المغرب ج١ ص١٧٣ .

أمره بالتنازل عن الحكم لابنه أبى العباس (٥٨). وذلك يناقض ما ذهب إليه فندرهيدن(٥٩) وزكى حسن(٦٠) من أن إبراهيم بن أحمد تظاهر فقط بقصده مصر للتمويه عن هدفه الأساسى وهو اغتيال ابن عمه، إذ ليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بإقدامه على قتل ابن عمه لخوفه من أن يؤول حكم إفريقية إليه(٦١)، بل يخيل إلينا أنه فعل ذلك جريا على ما اعتاد عليه من رغبته فى سفك دماء آل بيته وخاصته وخدمه وجواريه(٦٢).

لذلك نعتقد أن هدف الحملة كان غزو مصر، وسواء أكان ذلك تحقيقا لمآرب توسعية أو رداً على حملة العباس، ففى ذلك دلالة على تكدر صفو العلاقات بين الطولونيين والأغالبة. ولاينقص من هذا التصور صمت المصادر العربية عن الإشارة إليه صراحة (٦٣)، فهذا الصمت سببه عدم تحقيق الحملة لأغراضها بعد خروج الكثيرين من رجال إبراهيم بن أحمد عليه واضطراره للعودة إلى تونس (٦٤). ولاينقص من وجهة النظر هذه أيضا اعتقاد الدكتور زكى حسن(٦٥) باستحالة تفكير الأغالبة فى فتح مصر «الذى يعد بالنسبة إليهم أمراً يصعب تحقيقه» ، فغزو دولة الطولونيين كان من السهولة بمكان(٦٦) ، فقد عمتها الفوضى بسبب الصراع على الحكم، وما جره من فتن بين طوائف الجند (٦٧)، ذلك أنه بعد مصرع خمارويه فى دمشق سنة ٢٨٣هـ، ورث خلفاؤه تركة مثقلة بالأعباء ، فبسبب إسرافه وتبذيره ، ترك خزائن

٥٨- المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٥١ .

٥٩- La Berberie Orientale . p. 272 .

٦٠- Les Tulunides , p. 161 .

٦١- البيان المغرب ج١ ص١٧٣ . . Fournel : Op. cit. p. 576

٦٢- ابن عذارى : نفس المصدر ص١٧٨ ، ١٧٩ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص١٢٩ وما بعدها .

٦٣- أنظر : . Fournel : Op. vol . p. 570, Zaki Hassan : Op. cit . p. 161

٦٤- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٧٣ .

Biquet : Histoire de l' Afrique Septentrionde p. 60 .

٦٥- Les Tunulides , p. 161 .

٦٦- Vonderheyden : Op. cit , p. 272 .

٦٧- الولاة والقضاة ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الدولة خاوية ، ولم يستطع خلفه أبو الجيش أن يمكث فى الحكم أكثر من ستة شهور ليحل أخوه هارون محله، حيث وقف مكتوف اليدين أمام خطر القرامطة بالشام[٦٨]، فإذا أضفنا إلى ذلك ما انطوت عليه سياسة الأغالبة من تفكير فى التوسع شرقا [٦٩]، لأدركنا الأهداف الحقيقية لحملة إبراهيم بن أحمد سنة ٢٨٣هـ .

وإذ لم يقدر لهذه الحملة تحقيق أغراضها فإن ذلك يعزى إلى إرهاق رجالها أثناء حربهم مع نفوسة التى اعترضت طريق الجيش الأغلبى ، وتمرد ذلك الجيش على قائده لإتباعه سياسة العسف والإسراف فى سفك الدماء . وبالرغم من اضطرار إبراهيم بن أحمد إلى العودة دون اشتباك مع الطولونيين ، فلاشك أن هذا الحادث عمق الهوة بين القطائع والقيروان، ويكفى أنه فى سنة ٢٨٩هـ حين تم عزل إبراهيم بن أحمد وتقليد ابنه أبى العباس الإمارة وفقا لمشيئة الخليفة العباسى، عزم الأمير المخلوع على الحج تكفيرا عن آثامه ، وأبلغ الخليفة عن عزمه[٧٠] لكنه خشى المرور بمصر [٧١]، فعدل عن الحج واتجه إلى صقلية ليواصل حركة الجهاد فيها [٧٢]. ولم تعمر الدولة الطولونية بعد ذلك كثيرا إذ ما لبثت أن سقطت سنة ٢٩٢هـ . ومن غريب الاتفاق أن يكون ضعف الخلافة وانشغالها سببًا فى ظهور الدولة الطولونية وقيامها ، وأن تكون صحوة الخلافة ويقظتها سببا فى القضاء عليها[٧٣]، فقد جهز الخليفة المكتفى جيشا

٦٨- Brockelman : history of the Islamic People . p. 140 .

٦٩- كان الأمراء الأغالبة يقولون : «إننا نخرج إلى مصر والشام ونربط خيلنا فى زيتون فلسطين». أنظر : الكامل ج٦ ص١٢٤ ، المنصورى: زبدة الفكرة ج٥ ورقة ١٥٢ .

٧٠- المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٥١ .

٧١- يعزو الدكتور زكى محمد حسن إحجام ابراهيم بن أحمد عن الحج إلى خوفه من المثول بين يدى الخليفة المعتضد ، ويقول بأن الطولونيين قد شغلوا بعديد من المشاكل التى صرفتهم عن التعرض للأمير الأغلبى فى طريقه إلى مكة. أنظر : . Les Tulunides . p. 1161 . لكننا لانجد مبررا لخوف الأمير من الخليفة بعد تنفيذه أوامره ، وكان من الممكن للأمير تأدية فريضة الحج والعودة إلى إفريقية دون التوجه إلى بغداد . فيسلم حينئذ من غضب الخليفة عليه. وكذلك لايمكن قبول فكرة انشغال بنى طولون عن الترصد لعدوهم الأغلبى، فلن تكلفهم تلك الغاية ما يحول دون مواصلتهم مواجهة مشاكلهم الأخرى .

٧٢- الكامل ج٦ ص٥ ، الأنصارى : المنهل العذب ج١ ص٨٢ .

٧٣- حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص٧٥ .

أسند قيادته إلى محمد بن سليمان الكاتب سنة ٢٩١هـ فى الوقت الذى أمر فيه دميانة الرومى على الأسطول لاستخلاص مصر من يد هارون [٧٤]، وتمكن محمد بن سليمان من إغراء قواد هارون ، فتألبوا عليه واغتالوه [٧٥]، غير أن هارون لم يكن آخر الأمراء الطولونيين، فبعد موته بايع الجند عمه شيبان الذى اشتبك مع قوات الخلافة فى عدة معارك انتهت باستسلامه ، واستولى محمد بن سليمان الكاتب على مصر ثم غادرها بعد أن ولى عليها عيسى النوشرى[٧٦].

وبعودة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، انتهت مرحلة العلاقات العدائية بينها وبين إفريقية ؛ لكنها لم تعد قادرة على القيام بدورها القديم فى بذل المساعدات للتمكين لحكم الأغالبة ، ففى الوقت الذى شغلت فيه إفريقية فى عهد زيادة الله الثالث بمواجهة الخطر الفاطمى، حفلت ولاية النوشرى بمزيد من الاضطرابات والقلاقل التى سببها عدم رضاء المصريين عن العودة من جديد إلى حظيرة الخلافة، وسوء أحوالها بعد سقوط الطولونيين[٧٧].

ثم كانت هزيمة جيوش زيادة الله الثالث المرة تلو الأخرى إلى أن هزمت أخيراً فى معركة «الأربس» التى على إثرها هرب زيادة الله الثالث تاركا إفريقية للفاطميين . ومن الطبيعى أن يلجأ زيادة الله إلى أقرب معقل عباسى يأمن إليه، فيمم وجهه شطر مصر. ولما بلغ طرابلس أرسل كتابا إلى عيسى النوشرى يطلب منه تخصيص مقام له ولمن معه ، لكن النوشرى لم يرحب بمقدم زيادة الله متأثرا فى ذلك بوشاية إبراهيم بن الأغلب وأبى المصعب ابن زرارة[٧٨] اللذين «أوقعا عنده فى زيادة الله وسوء أفعاله وأنه يطمع نفسه بمصر»[٧٩]. فلما قدم زيادة

٧٤- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ١٣ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٦٧ .

٧٥- اختلفت الروايات حول قتل هارون، فمنها ما تذهب إلى أن بعض المغاربة رموه بالمزاريق فقتل ، وأخرى تقول بأن عمه شيبان هو الذى فعل ذلك ، وثالثة ترى أن أصحاب الخليفة المكتفى اغتالوه .

أنظر : نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ١٣ ، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٦٧ .

٧٦- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ١٤ .

٧٧- سيدة الكاشف: مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص١٢٨، ١٢٩ .

٧٨- كان إبراهيم بن الأغلب قد حاول استرداد حكم الأغالبة بالقيروان ، لكنه فشل ، فلحق بزيادة الله فى طرابلس ثم هرب إلى مصر مع صاحبه ابن زرارة خوفا من بطش زيادة الله.

٧٩- الكامل ج٦ ص١٢٤ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٤٣ ، زبدة الفكرة ج٥ ورقة ١٥٢ .

الله إلى مصر، لم يستطع دخول الجيزة إلا بعد مناوشة بينه وبين أصحاب النوشرى [٨٠]، وأمام الأمر الواقع سمح النوشرى له بدخول الفسطاط «وأنزله بدار ابن الجصاص، وأنزل رجاله بدور كثيرة»[٨١].

ويبدو أن زيادة الله لم يستطب المقام بمصر طويلا، فغادرها بعد ثمانية أيام متوجها إلى بغداد، وآثر بعض غلمانه ورجاله البقاء بمصر وقدموا ما معهم من أموال إلى واليها، ثم لحقوا بأميرهم بعد ذلك [٨٢]. ولم يفلح زيادة الله فى لقاء الخليفة المقتدر، واضطر للعودة إلى مصر ثانية، حيث أمره الخليفة أن يستعين بأموالها ورجالها فى استعادة نفوذه المفقود. ولما وصل إلى مصر منعه النوشرى من دخول الفسطاط وطلب منه الإقامة فى مكان يقال له «ذات الحمام» [٨٣]. ويخيل إلينا أن النوشرى لم يتحمس لتنفيذ أمر الخليفة لعدم ثقته فى نجاح محاولة زيادة الله استرداد إفريقية، فأخذ يماطله ويسوف به، ويتحفه بالهدايا والخمور إلى أن ساءت صحته، ومات قبل أن يقوم بمحاولته[٨٤].

(ب) العلاقات التجارية :

لم تقتصر العلاقات الأغلبية المصرية على الناحية السياسة، بل شملت أيضا الصلات التجارية، ولم يحل العداء السياسى - فى بعض الأحيان- دون رواج حركة التجارة بين مصر وإفريقية.

والثابت أن الفتح العربى لمصر لم يقصر تجارتها على دول الشرق فقط، بل ازدهرت هذه التجارة مع بلاد المغرب أيضا[٨٥]. وغنى عن البيان أن الأموال المصرية قد ساهمت فى دعم

٨٠- الولاة والقضاة ص٢٦٧، .Fournel : op. cit . vol . 2 p. 81

Vonderheyden : Op. cit. p. 313 .

٨١- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٤٤ .

٨٢- الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص٣٥ .

٨٣- زبدة الفكرة ج٥ ورقة ١٥٢ .

٨٤- النويرى : نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٤٤ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 313

٨٥- سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص٣٠٩ .

موقف الأغالبة الأوائل حتى وطدوا أركان دولتهم، على الرغم من انقطاع المعونة السنوية التى اعتادت مصر إرسالها إلى ولاة إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة .

وقد ساعدت الظروف الجغرافية على زيادة النشاط الاقتصادى بشكل ملحوظ ، فكانت مصر بفضل موقعها الهام تمسك بزمام تجارة قارات ثلاث هى أوربا وآسيا أفريقيا [٨٦]. فسبل الاتصال البرى والبحرى كانت ميسرة لحركة التجارة بين البلدين . أما عن طرق القوافل ، فكانت ممهدة وآمنة يعبرها الحجاج والتجار، كما كانت مزودة بالآبار ومحطات الراحة، وليس ثمة ما يشير إلى حدوث ما من شأنه إزعاج المسافرين والتجار، أو نهب بضائعهم رغم الاضطرابات السياسية والعلاقات العدائية بين البلدين فى بعض الأحيان، فقد ماجت هذه الطرق بجموع التجار والعلماء والحجاج ورسل الخلفاء والأمراء الأغالبة[٨٧]. وقد ارتبطت مصر بإفريقية بطريقين بريين كبيرين أحدهما يسير بحذاء الساحل، والآخر إلى الجنوب منه فى الداخل[٨٨]، أما الطريق الأول، فيمر بالفسطاط ويتجه غربا دون أن يمر بالإسكندرية ، وعند برقة يلتقى بالطريق الآخر الذى يبدأ من الإسكندرية وينتهى قرب برقة، ويقدر طول هذا الطريق بحوالى إحدى وعشرين مرحلة[٨٩]، ثم يتحد الطريقان فى طريق واحد معبد إلى مدن إفريقية مارا بذات الحمام والطاحونة [٩٠]. وكذلك ربط الطريق البحرى بين الإسكندرية وموانىء إفريقية مثل تونس ، وسوسة، وبجاية وغيرها ، والمعروف أن التجارة العالمية الواردة من الشرق كانت تمر بموانىء مصر، ثم برقة، فموانىء إفريقية فى طريقها إلى الغرب [٩١].

٨٦- Zaki Hassan : Op. cit . p. 238 .

٨٧- Vonderheyden : Op. cit. p. 313 , Zaki Hassan : Op. cit. p. 160 .

٨٨- ميتز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٣٠٨ .

٨٩- الإدريسى : صفة المغرب ص١٣٢ .

٩٠- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٦، ٨٧ .

٩١- النجوم الزاهرة ج٣ ص٦٧ ، ٦٨ ،

Heyd: Histoire du commerce du Levant au moyen âge . vol . I . p. 49

ويبدو أن التجارة بين مصر وإفريقية فى عهد الأمراء الأغالبة الأوائل كانت قاصرة على طرق القوافل البرية، فلم تكن قوة الأغالبة البحرية قد ظهرت بعد لتؤمن الطريق البحرى إلى الشرق، وكانت الغلبة فى البحر المتوسط آنذاك للبحرية البيزنطية التى فرضت نوعاً من الرقابة على السواحل الإسلامية عموما- بما فيها سواحل مصر وإفريقية- فحالت دون وصول سفن التجارة المصرية إلى غرب البحر المتوسط(٩٢). ومن الطبيعى أيضا أن تراقب بيزنطة حركات السفن الأغلبية التى كانت قد بدأت تشن إغاراتها بين الحين والآخر على الجزر البيزنطية، والراجح أنها نجحت فى سياستها إلى حد كبير، فقد استطاعت الأساطيل البيزنطية المرابطة فى صقلية وقبرص ومالطة وقوصرة أن ترغم التجار المصريين والتونسيين على إتباع الطرق البرية بعيدا عن الساحل (٩٣)، يؤكد ذلك ما ساد مصر آنذاك من كساد اقتصادي، فلم تسهم فى حركة التجارة العالمية بدور إيجابى واكتفت موانئها باستقبال التجار المغاربة(٩٤).

أما وقد انتهى زمن السيادة البيزنطية بفقدان البيزنطيين لقواعدهم البحرية فى كريت وصقلية ومالطة وقوصرة ، ظهر الأغالبة كقوة بحرية جديدة تهيمن على منطقة وسط البحر الأبيض(٩٥)، وتيسر الاتصال البحرى بين موانىء إفريقية وموانىء مصر، ومما شجع على ذلك انتعاش البحرية المصرية فى عهد الطولونيين . وظهر أثر التبادل التجارى واضحا فى تحسن أحوال مصر الاقتصادية زمن الطولونيين ، وحسبنا أن خراجها قد بلغ فى عهد أحمد بن طولون «أربعة آلاف وثلاثمائة ألف دينار»(٩٦)، أو على الأقل خمسة آلاف ألف وستمائة ألف درهم كما يذكر ابن خرداذبة(٩٧).

كذلك ازدهرت أحوال إفريقية الاقتصادية فى ذلك الحين، فتقدمت الزراعة وزادت المحاصيل، وتضاعفت أشجار الزيتون والكروم ، وازدهرت حركة التعدين فى مناجم مجانة

٩٢- لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٧٤ .

٩٣- نفسه ص١٧٧ .

٩٤- نفسه ص١٩١ .

٩٥- Vonderheyden : Op. cit. p. 242 .

٩٦- النجوم الزاهرة ج٢ ص١٢ .

٩٧- المسالك والممالك ص٧٣ ، ٧٤ .

والأربس وبونة الغنية بالحديد والفضة والرصاص (٩٨)، وعمرت أسواق برقة وغصت بالتجار المصريين باعتبارها أول محطة ينزلها القادمون من الإسكندرية إلى إفريقية(٩٩)، كما اكتسبت طرابلس مكانة مرموقة، وجنت أرباحا طائلة.

ويخيل إلينا أن قيام العباس بن أحمد بن طولون بحملته على إفريقية عام ٢٦٥هـ لم يغير كثيرا من حركة التجارة بين مصر وإفريقية ، إذ أن الفشل السريع الذى صادف الحملة جعل الأمور تعود إلى ما كانت عليه، وكان من نتائج الحملة الاقتصادية وقوع أموال العباس غنيمة لابراهيم بن أحمد الأغلبى ، وبلغ من ضخامة هذه الأموال أن أحدثت ازدهارا اقتصاديا فى إفريقية ، إذ يخبرنا ابن عذارى(١٠٠) أن الأمير الأغلبى تمكن عن طريق هذه الأموال من إصدار عملة جديدة ذهبية أكبر قيمة من العملة التى كانت سائدة قبل ذلك(١٠١). ولهذا أغمض إبراهيم بن أحمد عينيه عن الانتقام المباشر من الطولونيين ، وشرع فى تأمين طرق التجارة ، وإنشاء المحارس والمنائر «حتى كانت النار توقد بسبتة، فيصل الخبر إلى الإسكندرية فى الليلة الواحدة»(١٠٢).

كما حرص الأمير الأغلبى على تأمين الطرق البرية وصارت القوافل التجارية تغدو وتروح فى سلام (١٠٣)، وكانت منارة الإسكندرية ترشد السفن المغربية (١٠٤)، وشجع الطولونيين التجار التونسيين على ارتياد المدينة، وكفلوا لهم سبل الراحة بإنشاء الأسواق والفنادق ، ولا غرو إذ اجتذبت الإسكندرية تجار المغرب فكانوا يفدون إليها طلبا للراحة والاستجمام أو لزيارة معالمها كالمنار وعمود السوارى (١٠٥)، وغدت الإسكندرية تقوم بنفس الدور الذى تقوم به

٩٨- الإدريسى : صفة المغرب ص١١٦ ، ١١٧ ، Idris : Op. cit. pp. 303 , 305 . ff.

٩٩- الإدريسى : نفس المصدر ص١٣١ .

١٠٠- البيان المغرب ج١ ص١٦١ .

١٠١- عن هذه العملة انظر : Lavoix : Op. cit . vol . 2 . pp. 359 ff.

١٠٢- الكامل ج٦ ص٥ ، أبو زكريا : كتاب السيرة ورقة ٣٥ .

١٠٣- Vonderheyden : Op. cit. p. 240 .

١٠٤- الإدريسى ، صفة المغرب ص١٣٨ .

١٠٥- نفس المصدر والصفحة ، جمال الشيال : الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية مجلد١٥ ص١٤٨ .

طرابلس بالنسبة للتجار المصريين، وجدير بالذكر أن الرسائل بين الإسكندرية وطرابلس لم تكن تستغرق أكثر من بضع ساعات[١٠٦]، فى حين كانت المسافة بين طرابلس وإفريقية مسيرة تسعة أيام [١٠٧]، كما ازدهرت القطائع وحرص الطولونيون على تنظيم أسواقها ، فغصت بضروب السلع والمتاجر [١٠٨].

وكان تعاون المصريين والمغاربة واضحًا فى العمل سويا فى نقل التجارة العالمية من الشرق إلى الغرب[١٠٩]، وقد ازدهرت تلك التجارة بسبب ما أجراه ابن طولون من سك أحسن الدنانير الإسلامية وأثقلها وزنا، هذا فضلا عما قام به من إصلاحات إدارية وقضائية ، وقضائه على الفتن والثورات وجهوده فى إقرار الأمن مما وفر لهذه التجارة أسباب الحماية [١١٠]. ويبدو أن تجارة الشرق الذاهبة إلى المحيط الهندى والشرق الأقصى أخذت تتحول عن طريق الخليج الفارسى والعراق إلى طريق مصر والبحر الأحمر[١١١] ، كما كانت السلع الواردة من الشرق تمر بمصر عن طريق موانىء البحر الأحمر ثم تسلك الطريق البرى إلى الإسكندرية [١١٢]، وعلى الرغم من أن التجار اليهود «الرهدانية» لعبوا دورا واضحا فى نقل هذه التجارة إلى أوربا[١١٣]، فلاشك أن التجار الأغالبة قد استحوذوا على النصيب الأكبر فى عملية الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، فعكفت سفنهم على ارتياد موانىء الشام ومصر لجلب التوابل والمنتجات من الشرقين الأدنى والأقصى إلى بلاد المغرب [١١٤]، بينما اكتفى المصريون بنقل تلك السلع داخل البلاد من موانيء البحر الأحمر إلى مدينة الإسكندرية ، ولم يعملوا لحسابهم

١٠٦- ميتز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٣١٠ .

١٠٧- البلاذرى : فتوح البلدان ص١٦٧ .

١٠٨- Zaki Hassan : Op. cit. p. 238 .

١٠٩- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٥٧ .

١١٠- حسن محمود : حضارة مصر الإسلامية ص٢٦٤ .

١١١- لويس : المرجع السابق ص٢٥٣ .

١١٢- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٧٩ ، ٨٠ .

١١٣- Heyd : Op. cit . vol . I. p. 40 .

١١٤- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٥٣ .

الخاص فى الاتجار مع العالم الخارجى، ويدفعنا ذلك إلى القول بأن تجارة مصر آنذاك غلب عليها الطابع المحلى[١١٥].

وقد راجت حركة التبادل التجارى بين مصر وإفريقية فى ذلك الحين فقد كانت إفريقية الغنية بالقمح تعمل على تصديره إلى مصر[١١٦]، كما شغف المصريون بالخيول المغربية المشهورة[١١٧] ، وحمل التجار المصريون منسوجاتهم التيلية والكتانية[١١٨] إلى الموانىء التونسية حيث وجدت إقبالاً كبيراً فى أسواق إفريقية ، ليعودوا محملين بالمرجان[١١٩] الذى كان يستهوى التجار من كافة الجهات ، وليس من المستبعد تصدير الأغالبة للأخشاب التى كانت مصر دائما بحاجة إليها، والتى كانت تعمل على استيرادها من أوربا فى عصر السيادة البحرية البيزنطية [١٢٠].

وحصل التجار الأغالبة على ثروات وأرباح طائلة نتيجة اشتغالهم بالتجارة ، حتى لقد ساهم الأمراء فيها لحسابهم الخاص، وجنوا من ورائها الأموال الوفيرة التى مكنتهم من إقامة المنشآت العظيمة [١٢١]، ولا شك أن الطولونيين أيضا قد استفادوا منها، وتوفرت لديهم الثروات التى يدلل عليها ما قام به خمارويه بن أحمد بن طولون من تشييده لقصره الفخم وبحيرته الزئبقية [١٢٢]، ولاغرو فقد شاع تداول النقد الذهبى فى المعاملات التجارية بين القطائع والقيروان [١٢٣].

١١٥- Zaki Hassan : Op. cit . p. 238 .

١١٦- الإدريسى : صفة المغرب ص١٨٧ .

١١٧- صبح الأعشى ج٥ ص٢٥٤ .

١١٨- لويس : القوى البحرية التجارية ص٢٥٧ .

١١٩- الإدريسى : صفة المغرب ص١١٦ .

١٢٠- Heyd : Op. cit . vol . 1 . p. 40 .

١٢١- Vonderheyden : Op. cit . p. 243 .

١٢٢- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٥٧ .

١٢٣- نفس المصدر ص٥٧٥ ، وعن عملة الطولونيين انظر : Lavoix : Op. cit . vol . 3 . pp. 1-10 ff.

(جـ) العلاقات الثقافية :

ليس من شك فى أن العلاقات الثقافية بين إفريقية الأغلبية ومصر كانت أكثر ترابطًا وأشد وثوقا من العلاقات التجارية، ذلك أن مصر فى عصر الولاة اشتهرت كمركز للحركة العلمية الدينية ، كما كانت مركزاً سياسيًا ، فكان جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة والطلاب المغاربة [١٢٤]، ومكانا للدروس والمناقشات الدينية .

ولايخالجنا شك فى أن قيام الدولة الطولونية لم يغير من هذا الوضع، إذا ما علمنا أن تنافس الدولة المستقلة فى مجال الفكر والحضارة قد زاد الفكر نشاطا وإنتاجا[١٢٥].

ومن الأمور المسلم بها أن الأغالبة اتجهوا إلى المشرق التماسا للتراث الفكرى والروحى[١٢٦] ، وحسبنا أن إبراهيم بن الأغلب- مؤسس دولة الأغالبة - قد تلقى علومه بالفسطاط ، وتتلمذ على الليث بن سعد فقيه مصر[١٢٧].

ونهل المصريون والأفارقة من معين فكرى واحد، فأخذوا بمذهب مالك، واتجهوا إلى المدينة «دار الهجرة» يتعلمون أصول الفقه المالكى، وإذا كان فقهاء إفريقية من أمثال على بن زياد والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات وغيرهم قد رافقوا مالكًا بالمدينة ونقلوا عنه مذهبه إلى إفريقية [١٢٨]، فلاشك أنهم التقوا هناك بإخوانهم فقهاء مصر من أمثال عبدالله بن وهب، وابن القاسم ، واشهب وغيرهم من أعلام المالكية فى مصر. وجدير بالذكر أن مدرسة الفسطاط كانت أكثر ازدهارا من مدرسة القيروان أول الأمر ؛ وذلك بفضل تنافس الفقهاء واجتهادهم رغم تمسك بعضهم الشديد بتعاليم المالكية . فإذا كان فقيها مثل أشهب بن عبد العزيز لا «يزيد فى سماعه حرفًا واحداً» [١٢٩]، فإن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هى فى

١٢٤- سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص١٨١ ، ١٨٢ .

١٢٥- حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص١١٨ .

١٢٦- Vonderheyden : Op. cit, p. 321 .

١٢٧- ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص١١٦ .

١٢٨- معالم الإيمان ج٢ ص٥٢ .

١٢٩- النجوم الزاهرة ج٢ ص١٥٧ .

الموطأ، بل كان يدقق فى اختيار[١٣٠] الأحاديث، وكذلك ابن القاسم الذى كان يفرغ على أصول مذهب مالك وينافس أشهب بن عبد العزيز إلى أن توفى عام ١٩١هـ [١٣١].

ولا غرو فقد ارتحل فقهاء إفريقية وعلمائها إلى مصر طلبا للدراسة والعلم [١٣٢]، فأسد بن الفرات صاحب «الأسدية» فى الفقه، أخذها عن على بن القاسم إمام المالكية بمصر [١٣٣]، وكذلك فعل سحنون حين أخرج «مدونته» [١٣٤]، فقد رحل سحنون إلى مصر عام ١٨٨هـ وسمع من علماء المالكية بها كابن القاسم وابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن عمر [١٣٥]. وكذلك تزود عيسى بن مسكين- الذى تتلمذ على يد سحنون بإفريقية - بآراء الحارث بن مسكين وأبى الطاهر، والربيع وغيرهم من فقهاء المذهب بمصر[١٣٦]، ورحل إلى الصعيد فدرس على محمد بن سنجر [١٣٧]. وكذلك كان الحال بالنسبة لحمديس القطان [١٣٨]، وحماس بن مروان [١٣٩]، وغيرهما من مشاهير فقهاء القيروان وعلمائها. وجدير بالذكر أن الحركة الثقافية لم تتمركز فى الفسطاط فقط بل ازدهرت أيضا فى الإسكندرية وغيرها من مدن الصعيد كأسوان وأسيوط وإدفو [١٤٠].

١٣٠- محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص٤١ .

١٣١- السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص١٦٦ .

١٣٢- النائب الأنصاري : نفحات القنسرين ورقة ٦ مخطوط .

Zaki Hassan : Op. cit p. 254 .

١٣٣- معالم الإيمان : ج٢ ص٩١ .

١٣٤- نفسه ص١٦٠ .

١٣٥- نفسه ص٤٩ .

١٣٦- القاضى عياض : ترتيب المدارك قسم ١ ج٢ ورقة ٢ مخطوط.

١٣٧- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص١٤٢ .

١٣٨- معالم الإيمان ج٢ ص١٣٣ .

١٣٩- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص١٤٢ .

١٤٠- Zaki Hassan . Op. cit . p. 258 .

ونتج عن ذلك ازدهار مدرسة المالكية بالقيروان بدرجة أثارت دهشة فقهاء مصر أنفسهم[١٤١]، بل صارت أشهر مدارس الفقه المالكي في العالم الإسلامي على الإطلاق [١٤٢]، ونجحت هذه المدرسة في اجتذاب بعض أفراد البيت الأغلبي بالرغم من إتباعهم مذهب أهل العراق [١٤٣]، وكتب لمدرسة القيروان بفضل أسد وسحنون وأبي محرز ومحمد بن سحنون وابن عبدوس التفوق على مدرسة الفسطاط وانتزاع مكان السيادة منها في الفقه المالكي[١٤٤].

لكن مدرسة القيروان تأثرت إلى حد كبير بتقاليد مدرسة الفسطاط، وظهر ذلك واضحا في موقف الفقهاء من الحكام وحرصهم على تبوأ مكانة على قدم المساواة معهم إن لم تفقهم في غالب الأحيان . والجدير بالذكر أن هذه المكانة السامية كان مردها تعلق الناس بفقهاء المالكية باعتبارهم زعماء شعبيين، فكان الليث بن سعد يهيمن على مصائر الولاية والقضاء في مصر حتى قيل إن الوالي والقاضي كانا لايقطعان برأى إلا بعد أن يرى هو رأيه فيه[١٤٥]. وكان فقهاء القيروان على تلك الحال، وحسبنا أن ابراهيم بن الأغلب لم يكن بإمكانه أن يراسل الرشيد إلا بعد إطلاع القاضي ابن غانم على ما يرسله[١٤٦].

ومن مظاهر التأثير المتبادل بين مدرستي الفسطاط والقيروان ما عرف عن إحجام الفقهاء عن تولي القضاء والفتيا وعدم رضوخهم لمشيئة الولاة، ويحدثنا ابن خلكان[١٤٧] عن عبدالله بن وهب المصري الذي خبأ نفسه، ولزم بيته ، حين كتب إليه المنصور بتولي قضاء مصر، وقد انعكس هذا الموقف على تلامذته القيروانيين الذين تلقوا على يديه الفقه المالكي في مصر[١٤٨]، ولا غرابة إذا وجدنا فقيها مثل عبد السلام بن سحنون مثلا يرفض بإباء منصب القضاء ويندد بسياسة الأغالبة الأواخر التي انطوت على الظلم والفساد[١٤٩].

١٤١- الخشني : المرجع السابق ص١٥٣ ، معالم الإيمان ج٢ ص٢٢ .

١٤٢- حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص١٢ .

١٤٣- ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٣٤ .

١٤٤- نفس المصدر والصفحة.

Vonderhyden : Op. cit . 172 , Idris : Op. cit . p. 125 .

١٤٥- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٢ ص٨٢ .

١٤٦- معالم الإيمان ج١ ص٢٥٥ .

١٤٧- وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٩ .

١٤٨- السيوطي : حسن المحاضرة ص٢٥٤ .

١٤٩- الديباج المذهب ص١٦٣ .

ومن السمات المشتركة فى الحركة الثقافية بين مصر وإفريقية ما ساد من تنافس المذا
الإسلامية ، وما صحب هذا التنافس من تعصب وتحيز، وإذا كانت سيادة المذهب المالكي
تستمر فى مصر طويلا لظهور الشافعى وإقبال الناس عليه، وأخذهم بمذهبه الذى يعتمد
الجدل والمناظرة (١٥٠)، فإن المغاربة لم يرتاحوا لمذهب الشافعى الذى لايتلاءم
عقليتهم(١٥١)، ومع ذلك شهدت إفريقية بعض أعلام الشافعية الذين أشهروا عداءهم للمالك
حتى أن فقيها مثل ابن الحداد - وهو شافعى المذهب - كان يتهكم على مدونة سحنون ، قا
عليها «المدودة»(١٥٢). لكن المصريين والمغاربة اشتركوا فى كراهيتهم لمذهب أهل العراق ا
لاشك فى تأثره بالمدارس الفارسية (١٥٣)، فكان الأحناف فى مصر وإفريقية قلة يسا
الحكام فى كثير من الأحيان ، بل انهارت مدرسة الأحناف فى مصر تمامًا فى الع
الطولونى(١٥٤)، كما محيت كتب أبى حنيفة من إفريقية على يد سحنون (١٥٥). حقيقة
التنافس بين المذاهب الإسلامية قد أزكى الحركة الفكرية ، وانبرى الفقهاء يدللون بالح
والمنطق على صحة أحكامهم ، لكن منطق الكلمة والعقل ما لبث أن اختفى فى كل من مـ
وإفريقية ليسود التعصب والبطش والارهاب والاضطهاد . فالفقيه ابن الحداد ألف كتابًا سـ
«المقالات» سفه فيه آراء المذاهب أجمعين (١٥٦)، وفى مصر أمر القاضى المالكى الحارث
مسكين بإخراج أصحاب أبى حنيفة من المسجد ، وكذلك أصحاب الشافعى ، وأمر بـ
حصرهم(١٥٧) والقاضى ابن أبى الليث انتهز محنة خلق القرآن ، فأوقع بأصحاب مـا
والشافعى ، ومنع فقهاءهم من الجلوس فى المسجد (١٥٨). وفى إفريقية منع سحنون الحـو

١٥٠- Zaki Hassan : Op. cit . p. 260 ، أدب مصر الإسلامية ص١٥٣ .

١٥١- معالم الإيمان ج٢ ص٢٠٣ .

١٥٢- ابن خلدون : المقدمة ص٥٠ .

١٥٣- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ص١٦٩ .

١٥٤- Zaki Hassan : Op. cit . p. 260 .

١٥٥- ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٣٥ .

١٥٦- معالم الإيمان ج٢ ص٢٠٢ .

١٥٧- الولاة والقضاة ص٤٦٩ .

١٥٨- نفس المصدر ص٤٥ .

والمعتزلة من دخول المسجد الجامع، وفرق شملهم [١٥٩]، كما أمعن الأحناف فى اضطهاد المالكية فى عهود الأغالبة الأواخر، فالقاضى ابن عبدون «استطال على طبقة المدنيين، وامتهنهم ، وضرب جماعة منهم» [١٦٠]، كما تعرض ابن البرذون للضرب بالسياط فى عهد القاضى محمد بن أسود الصدينى[١٦١].

وثمة أثر كبير لمدرسة الفسطاط على نظيرتها فى القيروان فى مجال علم القراءات؛ فالمعروف أن القراءات فى مصر كانت تتبع رواية نافع التى نقلها عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش من المدينة وعاد بها إلى مصر ليتولى رياسة الإقراء بها إلى أن توفى عام ١٩٥هـ [١٦٢]، وخلفه فى الإقراء تلميذه أبو يعقوب الأزرق بن عمر بن يسار ، وكان لورش وأبى يعقوب أثر كبير فى انتشار رواية نافع فى مصر والمغرب [١٦٣]، حتى أن المصريين ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبى يعقوب هذا[١٦٤].

ولم تقتصر الحركة الفكرية فى مصر وإفريقية على الناحية الدينية فحسب، بل تعدتها إلى الجوانب اللغوية والأدبية ، ففى مصر حدث تطور كبير فى هذه النواحى إبان القرن الثانى للهجرة ، واطرد نمو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وانتقلت منها إلى بلاد المغرب[١٦٥] ونبغ فيها من النحاة بنو ولاد وأحمد بن جعفر الدينورى وغيرهم ممن أضافوا الكثير إلى هذا النوع من الدراسات . كذلك لانستطيع أن نجزم بافتقار مدرسة القيروان إلى ألوان الثقافة العربية الأخرى، فكانت معظم العلوم، الإسلامية تدرس وتدرس بها[١٦٦] حتى أن عالما مثل إبراهيم بن محمد الضبى «كان يتكلم فى تسعة عشر فنا من العلم»[١٦٧].

١٥٩- أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص١٠٢ ، حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ص١٧٠ .

١٦٠- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص١٨٧ .

١٦١- معالم الإيمان ج٢ ص١٧٧ .

١٦٢- حسن المحاضرة ج١ ص٢٧٧ .

١٦٣- أدب مصر الإسلامية ص٣٧ .

١٦٤- حسن المحاضرة ج١ ص٢٧٨ .

١٦٥- محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص٩٨ .

١٦٦- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ص١٧١ .

١٦٧- معالم الإيمان ج٢ ص١٧٧ .

وبزغ فى مجال الدراسات اللغوية النحوى عبدالله بن محمد القيروانى الذى كان ملما بالعربية والغريب والشعر، وأيام العرب ، وكانت الرحلة إليه من جميع البلاد[١٦٨]، وكذلك أحمد بن ابراهيم اللؤلؤى القيروانى النحوى واللغوى الذى أحاط «بالغريب والحفظ، وشرح معظم دواوين العرب»[١٦٩].

وجدير بالذكر أن من النحاة المصريين من درس- فى هذا الصدد - بالقيروان ، وكان لهم تلامذة ومريدون يقبلون على دروسهم . ومن هؤلاء يحيى الوقار المصرى الذى زار إفريقية عام ٢٠٥هـ وعلم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفى بها [١٧٠].

ويبدو أن حرية الفكر فى القيروان كانت أرحب منها فى مصر حتى غدت إفريقية ملاذاً للمضطهدين من العلماء والمتصوفة فى الفسطاط ، فالمتصوف «ذو النون» المصرى- الذى يعد من رواد التصوف الإسلامى- حين تعرض للاضطهاد فى مصر، فر لاجئًا إلى المغرب حيث وجد متنفسًا لآرائه وأفكاره [١٧١]، ولا غرو فبلاد المغرب اكتسبت شهرة عريضة فى هذا الصدد، حتى عرفت بأنها بلاد الرباطات والمرابطين وموئل الزهد والتعبد [١٧٢]، واستهوى التصوف بعض أفراد البيت الأغلبى، فأبو عقال بن غلبون المتصوف عاش بمصر زمنا واشتهر فيها بأنه من «أولياء الله» [١٧٣]، كما كان ربيع بن عبدالله القيروانى من «أهل التخلى والانقطاع»[١٧٤].

ويلغ من اهتمام العلماء المصريين بأمور المغرب وتياراته الفكرية وأحداثه السياسية درجة جعلت مؤرخا مثل ابن عبد الحكم يخصص فصلا كاملا عن شمال إفريقيا فى كتابه الذى وضعه عن فتوح مصر[١٧٥]، وليس من شك فى أنه استفاد من القادمين من إفريقية للتلمذ عليه فى إعداد هذا الكتاب.

١٦٨- السيوطى : بغية الوعاة ج٢ ص٦٥ .

١٦٩- نفسه ج١ ص٢٩٣ .

١٧٠- الديباج المذهب ص١١٨ .

١٧١- أدب مصر الإسلامية ص٦٥ ، ٦٦ .

١٧٢- حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص٢٥ ، ٢٦ .

١٧٣- معالم الإيمان ج٢ ص١٤٩ .

١٧٤- نفسه ص٢٠٠ .

١٧٥- أدب مصر الإسلامية ص٨٧ .

ويخيل إلينا أن الكثيرين من التونسيين الذين وفدوا إلى مصر قد استهوتهم الإقامة بها، واستقر معظم هؤلاء فى أقاليم مصر الغربية، وساهموا فى الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بدور بارز[١٧٦].

كما يبدو أن بعض العرب من المصريين عاشوا فى كنف الدولة الأغلبية، ويخيل إلينا أنهم كانوا من الحرفيين الذين ساهموا فى إقامة العمائر والمنشآت الأغلبية ، أو من الأطباء الذين عملوا فى خدمة البلاط الأغلبى، كأبى يعقوب اسحاق بن سليمان الإسرائيلى طبيب زيادة الله الثالث [١٧٧]، ولايخفى أن مهنة الطب كانت مزدهرة فى مصر آنذاك فقد تعددت ميادينها وتخصصاتها ، كما تعددت وسائل العلاج حتى أن العلاج النفسى كان معروفًا لدى أطباء مصر الطولونية[١٧٨].

ومن المؤكد أن هؤلاء الحرفيين والمهنيين المصريين قد نقلوا الكثير من تراث الفن العباسى الذى عبر مصر إلى إفريقية ليظهر واضحا جليا فيما أقامه الأغالبة من مساجد وقبور ومواجل وقناطر وسدود وخزف ، ولايخفى أن الأغالبة والطولونيين أخذوا بأسلوب سامرا فى الفن الإسلامى[١٧٩].

ونتج عن الاتصال البشرى بين مصر وإفريقية مؤثرات حضارية واجتماعية تمثلت فى ذلك التشابه الوثيق فى العادات والأخلاق والشمائل بين أهل مصر وسكان إفريقية «لكثرة المترددين بينهم»[١٨٠] «بحكم المجاورة»[١٨١].

* * *

١٧٦- الولاة والقضاة ص٢٤٣ .

١٧٧- Fournel : Op. cit . vol . 2 . 72 .

١٧٨- البلوى : سيرة ابن طولون ٢٢١ ، حسن محمود ، حضارة مصر الإسلامية ص٢٦٢ .

١٧٩- زكى حسن : فنون الإسلام ص٥٦ .

١٨٠- ابن خلدون : المقدمة ص٣٧١ .

١٨١- صبح الأعشى ج٥ ص١١٥ .



الباب الثالث

الأغالبة ودول المغرب والأندلس

١- العلاقات السياسية

سبق القول بأن علاقة الأغالبة مع المشرق الإسلامي كانت فى إطار الولاء للخلافة العباسية والارتباط بها، وكذلك فإن علاقاتهم مع دول المغرب والأندلس تأثرت بشكل واضح بعلاقة هذه الدول بالخلافة العباسية.

ولا ريب فى أن عداء دول المغرب والأندلس بوجه عام للخلافة العباسية كان عداء صريحا يرجع لأسباب سياسية ودينية وعنصرية، إذ لايخفى أن الأندلس انتزع عنوة من قبضة الخلافة على يد عبد الرحمن الأموى، ولم تنفض الخلافة يدها تمامًا عن الأندلس رغم عدم قيامها بعمل إيجابى لاسترداده بعد فشل حملة العلاء بن مغيث ، إنما ظلت تراودها أحلام عودة الدعوة لها على منابر قرطبة ، وقد حاول الخليفة المعتصم - مثلاً- إعداد حملة لتحقيق ذلك الغرض لولا وفاته المفاجئة [١].

كذلك اقتطع المدراريون إقليم تافيلالت عن سلطان العباسيين[٢] وأنشأوا دولة الخوارج الصفرية سنة ١٤٠ هـ ولم يستطع ولاة الخلافة فى المغرب استرداد هذا الإقليم ، وقدر لهذه الدولة الاستمرار حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

أما بنو رستم فقد أقاموا دولتهم بالمغرب الأوسط سنة ١٦٠ هـ على أنقاض نفوذ الخلافة المتداعى، وراودت الآمال مؤسسها عبد الرحمن بن رستم فى فتح المغرب كله [٣]، ويبدو أن الخلافة العباسية أدركت هذه النوايا فعولت على عرقلة جهوده فأرسلت محمد بن الأشعث للقضاء عليه، لكنه فشل فى الحيلولة دون قيام دولة الخوارج الإباضية [٤]، وانعقدت آمال

١- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٣٦٦ .

٢- السلاوى : الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى ج١ ص١١١ .

٣- ابن عيسى : كتاب الإمكان ص٥٥ .

٤- أبو زكريا : السيرة وأخبار الائمة ، ورقة ١١ ، الدرجينى: طبقات الإباضية ج١ ورقة ١٧ .

الخوارج على الدولة الرستمية فى تاهرت لتكون ركيزة لدولة كبرى تشمل المغرب والمشرق على السواء[٥]، لهذا تفانى خوارج المشرق فى دعم حكم الرستميين بإرسال الأموال وتقديم المساعدات إليهم[٦]. وإذا كان عبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب قد رضيا بمهادنة ولاة القيروان قبل قيام دولة الأغالبة، فكان ذلك لانشغالهما بالتمكين للدولة الناشئة، ودرج من جاء بعدهما على إشهار عداوتهم لبنى العباس.

ويعتبر قيام دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ نهاية للنفوذ العباسى فى المغرب الأقصى، وتهديداً مباشراً لإفريقية وما يليها شرقا، فقد اجتمعت قبائل البربر على اختلافها[٧] حول مؤسسها إدريس بن عبد الله وبفضلهم تمكن من التوسع شرقًا وغربًا على حساب النفوذ العباسى . ويبدو أنه كان يرغب فى توحيد المغرب كله تحت لوائه [٨]، ففى أقل من عامين دانت بلاد تامسنا وتادلا لسلطانه [٩]، كما أخضع قبائل مندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبلاد فازاز [١٠]، واتجه شرقا فاستولى على تلمسان ، وأخضع مغراوة وبنى يفرن[١١]، ويعزى هذا النجاح إلى «كون إدريس ممثلا للحنق والبغض على العباسيين»[١٢]، وشكل إدريس خطرا على بقية مناطق النفوذ العباسى فى المغرب الأمر الذى دفع الرشيد إلى الاعتراف بدولة الأغالبة لتكون «فى وجه ادريس بن إدريس وملوك طنجة أولاد إدريس بن إدريس»[١٣]. ولدينا ما يثبت رغبة الأدارسة فى مد نفوذهم حتى مصر نفسها.

٥- أبو زكريا : المرجع السابق ورقة ١٤ ، ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٢٠ .

٦- الشماخى : سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص١٤١ ، البارونى الأزهار الرياضية ج٢ ص٨٦ ، ٩٠ .

٧- ابن أبى زرع . الأنيس المطلوب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص٧ .

٨- ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص١٧ حاشية ٢ .

٩- القرطاس ص٧ .

١٠- نفسه ص١٢٧ .

١١- مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ١٦ مخطوط.

١٢- Hopkins : medieval musulem government p. 4 .

١٣- الإصطخرى : المسالك والممالك ص٣٧ .

وقد نظر الخلفاء العباسيون إلى إفريقية كرأس جسر لاستعادة نفوذهم في المغرب والأندلس، أو على الأقل تغدو حصنا أماميا يحول دون تسرب نفوذ الأمويين والخوارج والشيعة شرقًا، ويخيل إلينا أن أمراء قرطبة قد فطنوا لذلك وخاصة عندما هالتهم قوة الأغالبة البحرية، ومن هنا انصرف اهتمامهم نحو الشؤون البحرية[١٤].

وجريا على سياسة الولاء للخلافة العباسية فقد عادى الأغالبة المدراريين، والرستميين والأدارسة وأموى الأندلس. فلنحاول شرح ذلك في شيء من التفصيل.

أولا - الأغالبة وبنو مدرار:

من الطبيعي أن تكون علاقات الأغالبة ببني مدرار امتداداً لعلاقات بغداد بسجلماسة. فدولة الأغالبة التي قامت بإفريقية سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) كانت تدين بالولاء السياسي والتبعية الإسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتي. وحسبنا أنها كانت تمثل البقية الباقية لنفوذ الخلافة في بلاد المغرب، وقاعدتها لاسترداد سلطانها المفقود في هذه الجهات. ولاغرو فقد سمح الرشيد بقيام هذه الدولة حرصا منه على استمرار نفوذه في إفريقية من ناحية، واسترداد هذا النفوذ في الأجزاء التي انسلخت عنه من ناحية أخرى؛ لو استطاع الأغالبة إلى ذلك سبيلا[١]. ومن ثم عادى الأغالبة أعداء الخلافة في المغرب ومنهم بنو مدرار.

لكن الذي لاشك فيه أن هذا العداء لم يبلغ حد التناحر والتصارع بين الدولتين، فانصرف الأغالبة عن مشاكل المغرب لتحقيق أهدافهم التوسعية في حوض البحر المتوسط. وربما كان وجودهم وسط حشد من الأعداء[٢]، دافعا لهم على تولية الظهر للقارة والاتجاه إلى البحر. وبديهي أن يخفف هذا الاتجاه من حدة عدائهم لبني مدرار وخاصة أن الأخيرين كانوا بعيدين

١٤- Reinaud : Invasions des Sarrazins en France . p. 120 .

١- الإصطخري: ص٣٧ ، Vonderheyden : Op cit. p. 8.

٢- كانت دولة الأغالبة محاطة بعديد من القبائل المعادية سياسيا ومذهبيا، وهذه القبائل هي بنو يفرن الصفرية وأوربة الإدريسية العلوية، ولماية ونفوسة الإباضية الوهبية، وهوارة النكارية، وزواغة الخلفية، وكتامة الشيعية الإسماعيلية.

عن متناول خصومهم حيث قامت الدولة الرستمية حائلا بين الطرفين[٣] وتعرضت بذلك للاحتكاك مع الأغالبة.

وإذا كانت دولة بنى مدرار قد سلمت من مناجزة أمراء القيروان وتطاولهم ، فذلك لايعنى انتفاء عداوتهم، أو بمعنى آخر لم يكن عدم قيام الحروب بين سجلماسة والقيروان دليلا على الود المتبادل كما ذهب فورنل[٤] والحقيقة أن كلا من الطرفين لم يعبأ بالآخر ، طالما لم يكن بوسعه أن يسير الجيوش لقتاله ومن ثم اتخذت عداوتهما طابع الإغفال وعدم الاكتراث .

ومن الخطأ أن يفسر ذلك على أنه استكانة من جانب بنى مدرار وقناعة منهم بالتبعية للأغالبة ، فقد ذهب ابن أبى دينار[٥] إلى أن «اليسع بن مدرار كان يحكم سجلماسة لبنى الأغلب» . ويخيل إلينا أنه استنتج هذا القول من حادثة القبض على عبيد الله المهدى بسجلماسة على إثر رسالة بعثها الأمير زيادة الله بن الأغلب وفقا لرواية بعض المصادر [٦]، أو أرفقها برسالة أخرى للخليفة العباسى فى رواية أخرى [٧]. ومعلوم أن الأمير المدرارى أقدم على سجن المهدى اتقاء للخطر الشيعى الذى هدد دولته. لقد كان قبض اليسع على المهدى وسجنه بسجلماسة من قبيل التوافق غير المقصود بين أهداف الخلافة والإمارة الأغلبية وبين مصالح الأسرة المدرارية التى تهددها خطر الشيعة ، ولايعنى هذا الحادث وجود أدنى نفوذ للأغالبة على أمراء بنى مدرار .

كان الخلاف السياسى والمذهبى بين الإمارتين الأغلبية والمدرارية يحول دون أدنى تقارب بينهما ، ولاغرو فقد هادن بنو مدرار جيرانهم الرستميين كيما يتفرغوا لمواجهة الأغالبة عدوهم المشترك، كما التقوا بأموى الأندلس للوقوف أمام أطماع الأغالبة فى المغرب والحيلولة دون تسربهم إلى ما وراء حدود إفريقية.

٣- انظر الخريطة .

٤- راجع : Les Berbers . vol . 2 . p. 22 .

٥- المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص٤٩ .

٦- أنظر : شرح الأخبار ملحق (١) ص٢٣ من كتاب ... Ivanova : Ismaili tradition

٧- أنظر : ابن خلدون : ج٣ ص٣٦٣ .

ولعل من أهم ما يبرز أسباب الجفوة والعداء بين المداريين والأغالبة ما تعرض له الخوارج الصفرية من بطش واضطهاد فى القيروان ، فقد كان اعتناق المذهب الصفرى تهمة تصم صاحبها بالمروق والعصيان والزندقة(٨) وعلى الرغم مما يقال(٩) عن تسامح الأغالبة مع أهل المذاهب الأخرى بالقيروان ، فقد تعرض الصفرية - بوجه خاص- لاضطهاد شديد بعد ولاية سحنون قضاء القيروان- فقد حظر عليهم الاجتماع والصلاة فى المسجد الجامع (١٠)، ويدد حلقاتهم فيه (١١)، كما منعوا من مزاولة مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم(١٣)، وتعرض من خالف ذلك منهم إلى المزيد من البطش والتعنيف (١٤).

كل ذلك قمين بأن يذكى العداء بين بنى مدرار والأغالبة ، وينفى بشكل قاطع أى قول بوجود علاقات ودية بينهما ، كما يدحض الزعم القائل بتبعية أمراء سجلماسة لبنى الأغلب.

ثانيا : الأغالبة والرستميون :

يذكر بعض من عرضوا بالدراسة لتاريخ الأغالبة(١٥) أن علاقتهم بالرستميين لم تتخذ طابعا عدائيا ، وأن كلا من الدولتين أدارت ظهرها للأخرى مكتفية بمجرد الدفاع عن الحدود

٨- أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص٨٠ .

٩- أنظر : حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ج١ ص٥٨ .

١٠- أبو العرب تميم : المرجع السابق ص١٠٢ .

١١- المالكى : رياض النفوس ج١ ص٢٧٦ .

١٢- الدباغ : معالم الإيمان ج٢ ص٥٥ .

١٣- أبو العرب تميم : ص١٠٢ .

١٤- نفس المصدر والصفحة .

١٥- Gautier , les Siecles obscurs du maghreb . p. 307 , Vonderheyden : Op. cit . p. 267 , Brunschvig : la Tunisie dans le haut moyen age p. 14 . Macrais L'Afrique du Nord Francaise dans l'histoire . pp. 144 , 151 .

دائرة المعارف الإسلامية مادة بنى رستم، مجلد ١٠ ص٩٣ .

المشتركة، ويعزون ذلك إلى انشغال الأغالبة بالحرب فى صقلية[١٦] بعد أن أمنوا جيرانهم[١٧]. يشير فنرهيدن[١٨] إلى «عدم انصياع البربر فى إفريقية لمحاربة أولئك الذين كانوا زملاءهم فى السلاح بالأمس» ، كما يؤكدون أن الرستميين لم يقوموا بعمل عدوانى ضد الأغالبة لما اشتهروا به من التقوى والمسالمة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم [١٩]، وانصرافهم إلى شؤونهم الداخلية[٢٠].

والحقيقة أن دراسة مصادر تاريخ الخوارج تدل على غير هذا، وتؤكد ما كان لبنى رستم من أغراض توسعية، مصداق ذلك استيلاؤهم على المناطق الأغلبية المجاورة لطرابلس فى عهد الإمام عبد الوهاب ، وقيام ابنه الإمام أفلح بإحراق مدينة العباسية، وإثارة أئمة تاهرت القلاقل فى وجه أمراء القيروان، وعقدهم المحالفات مع الأمويين فى الأندلس [٢١]. كما حرص الأغالبة

١٦- Gautier : Op. cit. p. 307 , Brunschivg : op. cit. p. 14 .

١٧- Huart : Histoire des Arabes. vol I. p. 321 .

١٨- La berberie orientale . p. 268 .

١٩- Ibid . 267 .

٢٠- Marcais : Op. cit . p. 144 .

٢١- عادى كل من الرستميين وأمويى الأندلس الخلافة العباسية، فمؤسس كل من الدولتين فر من مذابح العباسيين وأسس دولته فى ظروف عصيبة ، ويعتقد بعض المؤرخين أن التحالف بينهما ما هو إلا امتداد للتحالف القديم بين الأمويين وزناتة (أنظر : Fournel : Op. cit . vol . I. p. 514, Vonderheyden : p. 266) .

بينما يذهب غيرهم إلى أن كراهية الأمويين للأدارسة وحرصهم على إضعافهم جعلهم يتقربون إلى بنى رستم (أنظر : السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج٢ ص٥٦٩ حاشية ١) . ويبدو أن الرستميين عولوا على الاتجاه إلى الأندلس لوجودهم بين عدوين شرقا وغربا، هما الأغالبة والأدارسة (أنظر : Provencal : Op. cit . vol . I . p. 171) .

ومهما يكن من أمر فلا شك فيما حدث بين الدولتين من ألفة وود . ونتحفظ فنقول بأن العلاقات الودية بين تاهرت وقرطبة لم تصل إلى درجة التحالف الرسمى، إنما أقصى ما وصلت إليه كان مجرد تبادل السفارات والهدايا، فضلا عن الصلات التجارية والثقافية، هذا على الرغم من تعرض الدولة الرستمية لإغارات الأغالبة والأدارسة ، وتهديد الأساطيل الأغلبية للنفوذ الأندلسى فى حوض البحر المتوسط الغربى.

على الكيد للدولة الرستمية وإثارة المتاعب فى وجه أئمة تاهرت ، والاعتداء المباشر على جبل نفوسة معقل الخوارج الإباضية، ومقاطعة دولتهم تجاريا وثقافيا . كل ذلك يدل على أن الأغالبة سلكوا فى علاقاتهم مع الرستميين مسلكا عدائيا ، تمشيا مع سياستهم في معاداة أعداء الخلافة العباسية. وكانت تلك العداوة تذكيها الاختلافات الدينية والمذهبية ، فالأغالبة كانوا سنة ومذهب مالك ساد دولتهم ، والمالكية أشد أرباب المذاهب بغضا للنحل المتطرفة ، بينما انتمى الرستميون إلى مذهب الخوارج الإباضية الذي يقول بتكفير مخالفيه[٢٢]. يضاف إلى ذلك تشابك الحدود[٢٣] بين الدولتين، وعدم وضوح معالمها ، حيث أحاطت دولة الرستميين بإفريقية الأغلبية من الجنوب والشرق والغرب مما زاد فى فرص الاحتكاكات بينهما .

= وفى إيجاز يمكن أن نعرض لمظاهر الود والألفة من خلال الإشارات العابرة التى وردت عند المؤرخين .

ففى سنة ٢٠٧ هـ زار بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الأندلس، وأنفق عليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم ألف دينار (أنظر : ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج١ ص٤٨) .

وتوطدت العلاقات بين الطرفين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى الذى كان له نفوذ عريض فى البلاط الرستمى (أنظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢٢ ، Dozy : Op. cit. p. 317) حتى أن محمد بن أفلح صاحب تاهرت كان يستشير صديقه الأمير محمد بن عبد الرحمن فى أموره ومعضلاته (أنظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص١٦١) .

وازدهرت العلاقات التجارية بين الدولتين ، وغص ميناء مرسى فروخ الرستمى بالسفن الأندلسية . (أنظر اليعقوبى : كتاب البلدان ص٣٥٣ ، Provencal : Op. cit vol . I. p. 245.)

كما وجدت جالية أندلسية كبيرة فى تاهرت (أنظر : ابن القوطية : تاريخ فتح الأندلس ص٩١ ، ٩٢ ، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص٥٧١) ويشهد على وجودها تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم «باب الأندلس» (أنظر : البكرى : المغرب ص٦٦) .

عن مزيد من التفصيلات راجع كتابنا عن الخوارج فى المغرب الإسلامى.

٢٢- عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص١٠٣ .

٢٣- من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية ، فالمصادر لاتشفى غلة فى هذا الصدد، ومع ذلك يمكن تصور مناطق النفوذ الرستمى على النحو التالى:

كانت تاهرت مركزا وحاضرة للدولة (أنظر : الإصطخرى : المسالك والممالك ص٣٤، إيشهورن : ذكر بلاد المغرب ص١٠) وحدا لها فى الغرب، بينما شكل جبل نفوسة حدها الشرقى، وخضعت واحات قسطيلية وبلاد=

كما أن رعايا الرستميين من القبائل البدوية[٢٤] الذين تمركزوا فى القرى الجبلية والواحات كانوا دائمى الترحال حسب الظروف الطبيعية، الأمر الذى أدى إلى ضرورة خلافهم مع الأغالبة .

والواقع أن الأغالبة لم يشكلوا خطراً مباشراً على تاهرت، لبعدها عن إفريقية بمسيرة شهر على ظهور الإبل [٢٥]، إنما ركزوا جهودهم فى منطقة طرابلس وجبل نفوسة التى أصبحت مسرحا للحروب والفتن [٢٦]، ذلك أن إفريقية كانت دائما تهددها إغارات النفوسيين[٢٧] والخوارج القاطنين بإقليم طرابلس وعدتهم ثلاثمائة أسرة [٢٨].

= الجريد فى الأقاليم الجنوبية من إفريقية لسلطان أئمة تاهرت فى بعض الاحيان، وكذلك جبل أوراس فى غرب إفريقية (أنظر : البكرى: المغرب ص١٤٤) كما مارس الرستميون نفوذا على قفصة وما يليها ، وسرت ونواحيها ، ونفزاوة وقنطرارة ، ومدينة قابس وجبل دمر (أنظر البارونى: المرجع السابق ص١٦٥) . فدولة الرستميين من ثم كانت تحيط بدولة الأغالبة (أنظر : Gautier : Op. cit . p. 301) حيث مست حدودها جنوبى تونس وما حول طرابلس (أنظر : اليعقوبى : المرجع السابق ص٣٤٥، Marcias : Op. cit . p. 144) فى حين بقيت مدينة طرابلس ضمن أملاك الأغالبة، (أنظر : الإصطخرى : المرجع السابق ص٣٣ ، الأنصارى : تاريخ طرابلس الغرب ورقة ٤ مخطوط) بينما اختلط رعاية الدولتين فى المنطقة المجاورة لطرابلس (أنظر : اليعقوبى : المرجع السابق ص٣٤٥) . ويبدو أن نفوذ الرستميين امتد إلى ما وراء طرابلس شرقا مما حدا بأحد المؤرخين إلى القول بأن مذهب الإباضية «اتصل إلى قريب من الاسكندرية» (أنظر : ابن عيسى : كتاب الإمكان ص١١٣) ، وإذا كانت بعض أملاك الأغالبة قد فصلت بين تاهرت وجبل نفوسة (أنظر : البارونى : المرجع السابق ص١٦٩) «دار الهجرة » للخوارج الإباضية ، (أنظر : ابن حوقل : المسالك والممالك ص٦٨) فإن مدينة قابس الرستمية قد فصلت بين طرابلس وموانىء الساحل الإفريقى. (انظر : البارونى : المرجع السابق ص١٦٥) .

٢٤- كتاب الاستبصار ص١٧٩ .

٢٥- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٨ .

٢٦- الأزهار الرياضية ج٢ ص٧٧ .

٢٧- Brocklman : Op. cit , p. 150 .

٢٨- Idris : Contribution a l'histoire de l'ifrikiya : Revue des etudes Islamiques , 1935 . p. 199 .

وقد حدث أول احتكاك بين الأغالبة والرستميين زمن الأمير إبراهيم بن الأغلب، وكان معاصرا للإمام عبد الوهاب الذى خلف والده عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧٢هـ، وسببه أن برير هوارة الإباضية ما فتئوا يثيرون الاضطراب والفتن فى وجه ولاة طرابلس من قبل الأغالبة ، وكانوا يصطنعون هذه الاضطرابات للانفصال عن الأغالبة، والانضمام للرستميين [٢٩]. ويخيل إلينا أن عبد الوهاب بن رستم هب لتحقيق بغيتهم مستعينا بقوة نفوسة رغم ما تسوقه مصادر تاريخ الخوارج[٣٠] من تبرير تقدمه صوب الشرق بعزمه على أداء فريضة الحج، وتضيف هذه المصادر أن نفوسة أشارت عليه بالبقاء خوفا من مكائد العباسيين، وتبرر اشتراكه فى حرب بنى الأغلب برغبته فى إنقاذ هوارة من بطش عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب «لما فى إغاثة القادر للمظلوم من الثواب الجزيل» . وقد أوضح أحد مؤرخى[٣١] الخوارج حقيقة الموقف فذكر أن الإمام «نزل على مدينة طرابلس محاصراً لها، ومحاولا دخولها فى الطاعة ، والمصير إلى ما عليه أهل الحق»، وفى ذلك دليل قاطع على أهداف الرستميين التوسعية فى الأراضى الأغلبية ، ولم يكن خروج الإمام لرغبة فى أداء فريضة الحج؛ إذ ليس من المعقول أن يبقى خارج تاهرت قرابة سبع سنوات ينتظر فتوى شيوخ المذهب «بأنه لاحج عليه لأن من شرط الحج أمان الطريق» [٣٢]، والمؤكد أنه ظل خلال هذه المدة يعد العدة للتوسع على حساب الأغالبة.

فقد واصلت هوارة ثورتها على الأغالبة سنة ١٩٦ هـ [٣٣]، فاستنجد عاملها بالقيروان بإبراهيم بن الأغلب الذى أرسل ابنه عبدالله على رأس جيش عدته ثلاثة عشر ألف فارس تمكن من التنكيل بالبربر «وقتل منهم خلق كثير»، ودخل عبدالله طرابلس وحصن سورها [٣٤].

٢٩- Vonderheyden : Op. cit. p. 39 .

٣٠- أنظر: كتاب السيرة ورقة ٢٣ ، سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ١٥٩ ، طبقات الإباضية ج١ ورقة ٢٩ ، ٣٠ ، الأزهار الرياضية ج٢ ص١٤٥ .

٣١- طبقات الإباضية ج١ ، ورقة ٣٠ .

٣٢- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص٣٩١ .

٣٣- أورد ابن خلدون خطأ- كالعادة فيما أورده من تواريخ دولة الأغالبة- بأن هذه الحادثة وقعت عام ١٧٦هـ . أنظر العبر ج٦ ص١٢١ .

٣٤- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص١٥٦ ، ١٥٧ ، . Vonderheyden : Op. cit . p. 41

وتحرك ابن رستم على رأس جيش كبير من نفوسة لقتال عبدالله فى طرابلس ، ثم ضرب الحصار على المدينة[٣٥]، ولكن عبدالله أغلق جميع أبوابها ، وباشر القتال من باب واحد ، فلم يستطع الرستميون اقتحامها ، وفقدوا بعض مشاهير رجالهم[٣٦] أثناء الحصار . ويخيل إلينا أن فشل الرستميين فى اقتحام طرابلس يعزى إلى افتضاح خطتهم، ومعرفة القائد الأغلبى بها عن طريق بعض رجال نفوسة [٣٧]، فأحبط محاولتهم واتخذ سياسة الدفاع. وكاد الإمام عبد الوهاب أن ينسحب ويعود أدراجه لولا وفاة الأمير ابراهيم بن الأغلب فجأة ، فأرسل ابنه زيادة الله إلى أخيه عبدالله يسأله القدوم لتولى الإمارة، ووقع الرسول والكتاب فى أيدى الرستميين[٣٨]، فأصروا على مواصلة القتال حتى اضطر عبدالله إلى طلب الصلح «على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب» [٣٩]، ويعنى ذلك دخول هوارة ومن معها من القبائل فى دائرة نفوذ الإمام الرستمى[٤٠]، فاستجاب عبد الوهاب لشروط الصلح، وعاد إلى جبل نفوسة بعد أن ولى العمال على النواحي الجديدة [٤١]، ومضى عبدالله إلى القيروان [٤٢].

إنصرف الأغالبة الأول إلى مواجهة ثورات الجند فى إفريقية ، ثم إلى الجهاد فى صقلية ، فلم يتمكنوا – إلى حين– من تصحيح الوضع على حدودهم الشرقية بمواصلة النضال مع

٣٥– الكامل ج٥ ص١٥٧ .

٣٦– سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص١٦٠ .

٣٧– الأزهار الرياضية ج٢ ص١٤٥ .

٣٨– الكامل ج٥ ص١٥٧ .

٣٩– نفس المصدر والصفحة ، الشماخى : المرجع السابق ص١٦١ .

٤٠– الازهار الرياضية ج٢ ص١٤٦ .

٤١– يذكر البارونى أن ميناء قابس دخل فى حوزة الرستميين، فقد أرسل الإمام قائده قحطان بن سلمة الزواتى فى عسكر إليها، فاستولى عليها عنوة . (أنظر : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٤٧) ولو صحت هذه الرواية فتعنى أن الامام عبد الوهاب لم يحترم حرمة المعاهدة مع عبدالله الأغلبى، أكثر من ذلك انتهازه عودة ابن الأغلب إلى القيروان فاستولى على جزيرة جربة.

أنظر : الشماخى ص١٦١ ، البارونى : ص١٤٧ .

٤٢– العبر ج٦ ص١٢٢ .

الرستميين ، وكذلك شغل الرستميون فى نفس الوقت بمشاكلهم الداخلية المتمثلة- بصفة خاصة- فى النزاع حول الإمامة[٤٣] وما ارتبط به من فتن وثورات.

والحق- أن الدارس للأوضاع الداخلية للدولة الرستمية لايعدم وجود ما يشير إلى وضوح طابع العداء فى العلاقات الرستمية العباسية ، وبالتالى فى علاقات الأغالبة مع الرستميين ، ففى عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى خلف والده بعد وفاته سنة ٢٠٨هـ[٤٤] اندلعت الفتن والثورات، كثورة خلف بن السمح الذى رفض الاعتراف بإمامة أفلح ، وفتنة فرج النفوسى المعروف «بنفاث»[٤٥].

أما الثائر نفاث، فإنه لما أخفقت حركته لم يجد مخرجا سوى الهروب إلى المشرق قاصدا بغداد ، فرحب الخليفة العباسى بمقدمه [٤٦]، وهذا يوضح دور الخلافة فى الكيد للرستميين، هذا الدور الذى يؤكده ما حدث من القبض على محمد بن الإمام أفلح وسجنه فى بغداد فى عهد الخليفة الواثق[٤٧].

ومن المحتمل أن يكون العباسيون – وقد هالهم تقرب الرستميين من الأندلسيين – أوعزوا إلى الأغالبة بالاعتداء عليهم ، ففى سنة ٢٣٩هـ[٤٨] أنشأ الأمير محمد بن الأغلب مدينة قبالة تاهرت سماها «العباسية» وأحرقها الإمام أفلح بن عبد الوهاب [٤٩]. وقد تضاربت

٤٣- كتاب السيرة ورقة ٢٤ وما بعدها .

٤٤- ذكر الدكتور سعد زغلول عبد الرحمن أن الإمام عبد الوهاب توفى سنة ١٨٨هـ . أنظر : تاريخ المغرب العربى ص٣٩٢ . والواقع أن الإمام عبد الوهاب اشترك فى حصار طرابلس ضد عبدالله بن الأغلب سنة ١٩٦ هـ مما يؤكد وفاته بعد هذا التاريخ .

٤٥- أبو زكريا : ورقة ٣٠ ، الازهار الرياضية ، ج٢ ص١٩٦ وما بعدها .

٤٦- نفس المصدر ص٢١٠ .

٤٧- نفس المصدر ص٢٢١ .

٤٨- ذكر ابن خلدون أن إنشاء المدينة كان سنة ٢٢٧هـ . أنظر : العبر ج٤ ص٢٠١ ، وأخذ عنه الدكتور السيد عبد العزيز سالم . أنظر : المغرب الكبير ج٢ ص٣٩٤، ٥٦٨ . وإذا علمنا أن الأمير محمد الأغلبى تولى الإمارة سنة ٢٢٧هـ . فمن المستبعد أن يكون بناء المدينة وإحراقها تم فى عام واحد.

٤٩- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٧ .

أقوال المؤرخين حول دوافع إنشاء المدينة ، وكذلك أسباب إقدام الإمام الرستمى على إحراقها ، فمن قائل[٥٠] بأن إنشاء العباسية مرتبط أشد الارتباط بما جرى عليه الأمير محمد بن الأغلب من سياسة الاهتمام بأمور المغرب ومعاداة الرستميين، فأنشأ العباسية لتكون قاعدة للهجوم على عاصمة الدولة الرستمية، بينما يذهب آخر[٥١] إلى أن إنشاء المدينة كان لسبب اقتصادى مؤداه أن تحتل مكانة تاهرت التجارية . والواقع أن كلا التفسيرين مقبول، ويمكن أن نضيف إليهما حرص الأمير الاغلبى على تأديب الفارين من رعاياه الذين أقاموا بتاهرت[٥٢]، وعاشوا فى أحد أرباضها ، وعكفوا على إثارة المتاعب على الحدود مع الأغالبة[٥٣].

ومهما يكن من أمر فقد أسس الأمير محمد الأغلبى مدينته الجديدة لتقف فى وجه الرستميين ، «ورتب أسواقها على نسق عجيب ، وترتيب غريب»[٥٤]، ولم يقف الإمام أفلح بن عبد الوهاب مكتوف اليدين حيال هذا الخطر، فأضرم فيها النيران [٥٥]، وأرسل إلى الأمير محمد - أمير الأندلس - يخبره بذلك، فكافأه بمائة ألف درهم[٥٦].

ورد الأمير الأغلبى على إحراق العباسية بتدبير المكائد للإمام أبى بكر بن أفلح الذى تولى الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ٢٤٠هـ ، وتمكن عن طريق صنائعه فى تاهرت من إثارة العراقيل فى وجه الإمارة الرستمية . يروى صاحب الازهار الرياضية[٥٧] أن شخصا يدعى خلف الخادم- مولى بنى الأغلب- استطاع عن طريق بذل الأموال إثارة الشقاق بين سكان تاهرت، فانقسموا إلى معسكرين ، الإمام وأنصاره من العجم والنفوسيين فى جانب ، والجند والعرب فى جانب

٥٠- Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale vol. I. p. 285 .

٥١- السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٥٦٨ .

٥٢- الشماخى : ص١٤٠ ، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١٠ مادة بنى رستم ص١٩٤ .

٥٣- الازهار الرياضية ج٢ ص١٨١ ، ١٨٢ .

٥٤- نفسه ص١٨٩ .

٥٥- العبر ج٤ ص٢٠١ ، Fournel : Op. cit. vol . I. p. 513 .

٥٦- الكامل ج٥ ص٢٦٣ ، فتوح البلدان ص٢٧٧ .

٥٧- البارونى : ج٢ ص٢٢١ .

آخر، ونجح مولى بنى الأغلب فى تحريض العرب والجند، فأحرقوا درب النفوسيين فى تاهرت[٥٨]. وبالرغم من جهود الإمام أبى بكر فى رأب الصدع، وقضائه على الحزب المناوىء فى عدة مواقع، فإن الخلافات والفتن ظلت مستشرية، حتى قضى عليها خليفته وأخوه أبو اليقظان محمد[٥٩] بعد سبعة أعوام من إمامته [٦٠].

ونعتقد أن ما وقع من اضطرابات على حدود دولة الأغالبة الشرقية بناحية طرابلس كان من تدبير الإمام أبى اليقظان ، إذ يذكر ابن خلدون[٦١] أنه فى عهد الأمير الأغلبى ابراهيم بن أحمد (٢٤٢-٢٤٩هـ) ثار خوارج البربر من الإباضية فى طرابلس سنة ٢٤٥هـ، وهزموا عاملها، ولم يرتدعوا إلا بعد أن رماهم إبراهيم بن أحمد بجيش جعل على رأسه أخاه زيادة الله، فنكل بالثوار.

وهكذا تبادل الأغالبة والرستميون المكائد والدس لإحداث الشقاق والفتن وعرقلة الجهود.

وما حدث فى سنة ٢٦٩هـ من اشتراكهما معا فى مواجهة حملة العباس بن أحمد بن طولون لم يكن نتيجة تحالف أو تعاون مشترك، ولم يسهم النفوسيون - أتباع بنى رستم - فى المعركة «إنقاذا لطرابلس وبنى الأغلب من ظلمه» كما يروى البارونى [٦٢]، بل حدث ذلك لما تهدد الجانبين من خطر العباس ، فحين قدم العباس بحملته على لبدة، وقتل عاملها الأغلبى[٦٣]، لم يتورع عن البطش بالإباضية التابعين لإلياس بن منصور النفوسى [٦٤]، وتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادى [٦٥]، وهتكوا الحجب [٦٦]، فاستعانوا بإلياس بن منصور . وسواء

٥٨- نفسه ص٢٣٢ .

٥٩- تولى الإمامة سنة ٢٤١هـ .

٦٠- الأزهار الرياضية ج٢ ص٢٣٧ .

٦١- العبر ج٤ ص٤٣١ .

٦٢- الأزهار الرياضية ج٢ ص٢٥٥ .

٦٣- ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص٦٠ .

٦٤- الولاة والقضاة ص٢٢٢ .

٦٥- يلاحظ أن الساحل كان يخضع للأغالبة بينما كانت البادية تدين لسلطان بنى رستم.

٦٦- البيان المغرب ج١ ص١٠١ .

أكان هؤلاء المستغيثون من البربر القاطنين بطرابلس كما يروى ابن عذارى [٦٧]، أو من الضاربين فى أحوازها كما يجمع بقية المؤرخين[٦٨] ، فالثابت أنهم كانوا من رعايا الدولة الرستمية. أضف إلى ذلك أن ابن طولون قبل سيره من برقة بعث برسله إلى زعيم نفوسة يدعوه للطاعة ، ويعده وينذره إذا لم يستجب لطلبه [٦٩]، وعلى ذلك فقد فرض على النفوسى درأ الخطر الطولونى دون ارتباط بالأغالبة ، يؤكد ذلك التحام الجيش الأغلبى مع العباس قبل وصوله إلى طرابلس منفردا[٧٠]، «فلما كان اليوم التالى، وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثنى عشر ألفا من الإباضية» ، واشترك الجيشان فى قتال العدو المشترك، ولم يحصل النفوسيون على شيء من الغنائم التى خلفتها الحملة الفاشلة ، بل استأثر الأغالبة بها[٧١]. ولو كان هناك اتفاق مشترك مسبق لاقتسم الطرفان الغنيمة .

وبعد مرور ستة أعوام على ذلك الحادث الذى قاتل فيه العدوان جنبا لجنب ، أعمل الأغالبة القتل فى رجال نفوسة فى إمامة أبى حاتم يوسف بن محمد الذى خلف والده أبا اليقظان محمد سنة ٢٨١هـ. وقد اختلف المؤرخون حول أسباب حملة إبراهيم بن أحمد هذه، وقد أوضحنا ذلك فى دراستنا للعلاقات الأغلبية المصرية، وانتهينا إلى أن الحملة توجهت إلى مصر بهدف الانتقام ، فاعترضت نفوسة بجيشها البالغ ٢٠ ألف مقاتل[٧٢] طريق إبراهيم بن أحمد سنة ٢٨٣هـ عند موضع يقال له «مانو» وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس [٧٣]، ورفض القائد النفوسى أفلح بن العباس مرور الجيش الأغلبى فى طريقه إلى مصر ، فدارت معركة رهيبة راح ضحيتها اثنى عشر ألفا من الإباضية من بينهم أربعمائة من العلماء [٧٤]، وهرب أفلح

٦٧- نفسه ص١٥٨ .

٦٨- ابن الأثير : ج٦ ص٢١ ، ابن الداية : المرجع السابق ص٦١ ، ابن خلدون: ج٤ ص٣١ ، النويرى : ج٢٦ ورقة ٧ .

٦٩- ابن الداية : المرجع السابق ص٦١ ، الازهار الرياضية ج٢ ص٢٥٧ ، ٢٥٧ .

٧٠- ابن الداية : نفس المصدر والصفحة .

٧١- البيان المغرب ج١ ص١٥٨ ، سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص٢٢٥ .

٧٢- ابن عذارى : ج١ ص١٧٣ .

٧٣- الأزهار الرياضية : ج٢ ص٢٨١ .

٧٤- كتاب السيرة ورقة ٣٤ ، طبقات الإباضية ج٦ ورقة ٤٠ .

بن العباس ببقية جيشه مدحورا ، وزحف ابن الأغلب إلى قنطرارة فباغتها ، ونكل بسكانها وأسر ثمانين من علمائها [٧٥]، كما عرج على نفزاوة ، فلاقت نفس المصير[٧٦].

قصارى القول : أن نفوسة التي شكلت عصب الدولة الرستمية ودرعها ، انهارت بعد هذه المعركة ، وبانهيارها تداعت الدولة الرستمية[٧٧]، ذلك أن أهل الجبل عزلوا أفلح بن العباس وولوا غيره، فساد الاضطراب جبل نفوسة، ولم تستطع إرسال الإمدادات لتاهرت[٧٨] وشجعت حالة الفوضى هذه أمير القيروان على إرسال جيش آخر إلى نفوسة في رجب سنة ٢٨٤هـ ، نكل بالرجال واستباح النساء، وعاد محملا بالأسرى [٧٩]، وقد ذبحوا «واستخرجت قلوبهم من صدورهم وعلقت في حبال على باب تونس»[٨٠]. ولم يستطع إمام تاهرت أن يحرك ساكنا لمساعدة أنصاره في محنتهم لبعد المسافة [٨١]، فانهارت نفوسة، وانهارت معها دولة الرستميين .

ويخيل إلينا أنه لولا ما جرى في هذه الأثناء من عزل ابراهيم بن أحمد، وتوجهه إلى صقلية، لوجه ضربته التالية نحو تاهرت قلب الدولة الرستمية، ولم يتسن لأحد من خلفائه القيام بهذا الدور نظرا لما أصاب دولة الأغالبة ذاتها من انهيار ، وانصراف الأمراء الأواخر لمجابهة الخطر الشيعي . وقد حدث هذا في إفريقية بينما كانت دولة بني رستم تحتضر في عهد الإمام اليقظان بن أبي اليقظان الذي تولى الإمامة سنة ٢٩٤هـ [٨٢]. لذلك يمكن القول بتشابه أحوال الدولتين الأغلبية والرستمية في ظروفهما الأخيرة ونهايتهما . فزيادة الله الثالث عانى في بداية حكمه من الفتن الداخلية التي تعزى إلى الصراع حول الإمارة، ولم يصف له الجو إلا

٧٥- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص٦٩ ، الأزهار الرياضية ج٢ ص٢٨٢ .

٧٦- كتاب السيرة ورقة ٣٤ ، طبقات الإباضية ج١ ورقة ٤ .

٧٧- الدرجيني : نفس المصدر ورقة ٤١ .

٧٨- الباروني : الأزهار الرياضية ص٢٨٠ .

٧٩- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ٢٦٩ ، الباروني : المرجع السابق ص٢٨٤ .

٨٠- البيان المغرب ج١ ص١٧٤ .

٨١- الأزهار الرياضية ج٢ ص٢٨٦ .

٨٢- الباروني ص٢٩١ .

بعد قتل مناقسيه من أعمامه وأخيه عبدالله الأحول (٨٣). وأقدم أبو اليقظان محمد على قتل أخيه أبى حاتم من أجل الوصول إلى الإمامة ، ضاربا صفحا عن السخط الشديد الذى سببه هذا العمل (٨٤)، كذلك تعرضت الدولتان للخطر الشيعى الذى أسقطهما فى عام واحد، فاختفت إمارة الأغالبة ودولة الرستميين سنة ٢٩٦هـ (٨٥).

ثالثا : الأغالبة والأدارسة :

اتخذت العلاقات الأغلبية الإدريسية طابعا عدائيا أيضا، فلم يحافظ الأغالبة من جانبهم على علاقة حسن الجوار مع جيرانهم العلويين، وبادوهم بالعدوان، واكتفى الأدارسة بتشجيع الفارين من إفريقية على الاستيطان بدولتهم نكاية فى الأغالبة. حقيقة لم يقم الأمراء الأغالبة بأى عمل حربى من شأنه إسقاط دولة الأدارسة ، لكنهم تمكنوا عن طريق الدس وتدبير المكائد من إثارة العراقيل فى وجه حكامها .

وينفى ذلك ما ذهب إليه بعض الباحثين(٨٦) من أن الدولتين «عاشتا فى سلام متبادل» ، أو أنهما ارتبطتا «بعلاقات طيبة أشبه ما يسمى حاليا بالتعايش السلمى، والحفاظ على حسن الجوار» (٨٧)، إذ الملاحظ تأثر الأغالبة بولاتهم للخلافة العباسية فى علاقاتهم مع الأدارسة . ويرى الدارس لتاريخ دولة الأدارسة مدى الارتباط بين قيامها ومناهضتها لبنى العباس، بل وتشكيلها خطرا على إفريقية وما يليها شرقا. وليس ببعيد ما ذكره فندرهيدن(٨٨) من أن الاتفاق بين الرشيد وابراهيم بن الأغلب انطوى على تعهد من ابراهيم ببذل قصارى جهده فى ضم المغربين الأوسط والأقصى إلى إمارته، أو على الأقل منع النفوذ العلوى من التسرب صوب الشرق. وقد ازداد خطر الأدارسة بعد فتحهم تلمسان «وهى باب إفريقية، ومن ملك

٨٣- البيان المغرب ج١ ص١٨٣ .

٨٤- البارونى ص٢٩١ .

٨٥- البكرى : المغرب ص٦٨ .

٨٦- أنظر : Biquet : Op. cit. p. 51 .

٨٧- أنظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص- ٤٥ .

٨٨- La Berberie Orientale . p. 260 .

الباب أوشك أن يدخل الدار» [٨٩]، فقد استولى إدريس على موارد هائلة وأصبح لديه من الرجال ما يمكنه من تحقيق أغراضه ليصبح بحق «الإمام الأكبر وصاحب المغرب»[٩٠].

ولما أدرك الرشيد هذه الأهداف، ولم يكن بامكانه تجنيد جيش لقتال الأدارسة بسبب بعد المسافة، واضطراب أحوال إفريقية، عول على اغتيال إدريس بن عبدالله، واختار سليمان بن جرير[٩١] المعروف بالشماخ ليقوم بالمهمة، وبفضل ما اشتهر به الشماخ من لباقة وعلم [٩٢]، استحوذ على حب إدريس فاتخذه خليلا وصفيا؛ وانتهز الشماخ فرصة اختلى فيها به فدس له السم [٩٣]. والذي يهمنا في هذا الصدد ما يذكر عن مساهمة إبراهيم بن الأغلب واشتراكه في تدبير اغتيال إدريس الأول، إذ يقول ابن الآبار [٩٤]: «.. فلما ولي الرشيد دس إلى إدريس من أنس به، واطمأن إليه، وكتب له كتابا إلى ابراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية فاحتال حتى سمه». ولما نجح الشماخ في مهمته «... وطلب فلم يقدر عليه، وقدم على ابراهيم بن الأغلب فأخبره، فكتب ابراهيم إلى الرشيد بذلك». كما يذكر ابن أبي دينار[٩٥] وصاحب كتاب الإمكان[٩٦] «إن الرشيد بعث إلى عامله بالقيروان إبراهيم بن الأغلب، فبعث إلى

٨٩- القرطاس ص٨.

٩٠- الكتامي: الأزهار العطرة الأنفاس ص٣٣.

٩١- البيان المغرب ج١ ص١٠١. وقد اختلفت الروايات حول اسم سليمان هذا، فقيل سليمان بن جرير البجلي، انظر: مجهول: تاريخ مدينة فاس ورقة ١٦ مخطوط، وقيل سليمان الجزري. انظر: البكري: المغرب ص١٢.

٩٢- اشتهر سليمان بسعة علمه وإطلاعه حتى قيل بأنه «متكلم الزيدية». أنظر: المغرب ص١٢٠.

٩٣- بالرغم من اتفاق المؤرخين على موت إدريس الأول مسموما، فأنهم اختلفوا حول الطريقة التي سم بها، فالبكري وابن أبي زرع ذكرا أن الشماخ دفع إلى إدريس بقارورة فيها سم فمات. أنظر: المغرب ص١٢٠، القرطاس ص٩، ١٠. أما ابن الخطيب فيقول بأنه سم في دلاعة (تفاحة). أنظر: أعمال الأعلام قسم ٣ ص١٩٢. ويتفق ابن عذاري وابن خلدون على أن إدريس تناول دواء مسموما لتطبيب أسنانه. أنظر: البيان المغرب ج١ ص١٠١، العبر ج٤ ص٧.

٩٤- الحلة السيراء ص٢٣٣.

٩٥- المؤنس ص٩٩.

٩٦- ابن عيسى: ص٨١.

إدريس من اغتياله». وذكر ابن خلدون[٩٧] ما نصه : «.. فشد إليه الرشيد (إلى ادريس) مولى من موالى المهدى وأنفذه بكتاب إلى ابن الأغلب فأجازه».

ورواية ابن الأبار تنطوى على وهم بين ، ذلك أن ابراهيم بن الأغلب لم يكن قد تقلد الإمارة بعد ، ووصل الشماخ إلى إفريقية وواليها يومئذ نصر بن حبيب المهلبى، بينما كانت ولاية الزاب للعلاء بن سعيد ، ولم يقدر لإبراهيم بن الأغلب الظهور على مسرح الأحداث فى إفريقية قبل عام ١٧٩هـ، حيث أسند إليه هرثمة بن أعين ولاية الزاب فى ذلك العام. لهذا أيضا لايمكن الأخذ برواية كل من أبى دينار وابن عيسى، فهى فضلا عن ذكرها أن إبراهيم بن الأغلب كان واليا على القيروان، تنكر مسألة إرسال الرشيد للشماخ ، وتصور الأمر على أن ابراهيم بن الأغلب تصرف بمحض إرادته فى اختيار الشخص الذى ناط به تنفيذ اغتيال إدريس .

أما رواية ابن خلدون فتبدو أقرب للصدق ، فهى لاتذكر أن إبراهيم بن الأغلب كان يلى إفريقية ، ولاتنكر إرسال الرشيد للشماخ ليضطلع بالمهمة ، بينما تؤكد دور ابراهيم بن الأغلب فى المؤامرة ، وتقصره على «إجازة » الشماخ إلى بلاد المغرب الأقصى .

وفى تصورنا - أن هذا الدور يمكن التسليم به دون شك ، فليس من المعقول أن يبعث الرشيد أحد رجاله لاغتيال إدريس دون استرشاد بخبرة ورأى رجاله فى المغرب، فالشماخ فى حاجة لأن يتزود بالمعلومات عن أحوال الدولة الإدريسة وظروفها ، وطريق الوصول إليها. أما لماذا لم يبعث الرشيد رجله إلى والى القيروان مباشرة ، وخص ابن الأغلب بذلك فيفسره- فى اعتقادنا- إضطراب أحوال القيروان من جراء الصراع على الإمارة بين قبيصة بن روح بن حاتم ونصر بن حبيب[٩٨] ، هذا فضلا عما تفرد به ابراهيم بن الأغلب من معرفة دقيقة بأحوال دولة الأدارسة ، وخبرة بشؤونها ، لطول إقامته بإفريقية وإقليم الزاب على وجه الخصوص الذى ولد به وقضى فيه معظم سنى عمره [٩٩]، لذلك فلا غرابة فى أن يختصه الرشيد بتقديم العون للشماخ تأهيلا له قبل الشروع فى مهمته ، ولاغرابة أيضا إذا نزل الشماخ على ابراهيم بن الأغلب لإخباره بنجاح هذه المهمة بعد تنفيذها [١٠٠].

٩٧- العبر ج٤ ص٧ .

٩٨- ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص١٠٤ .

٩٩- السلاوى: الاستقصا ج١ ص١١٦ ، . Vonderheyden : Op. cit . p. 9

١٠٠- يتشكك الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى صحة هذا الحادث ، ويرى أن أنصار ادريس نسجوا=

هذا كله يدل على عداء ابراهيم بن الأغلب وتآمره على دولة الأدارسة حتى قبل قيام دولته، وذلك تمشيا مع سياسة الولاء للخلافة العباسية، وما حدث من تدبيره اغتيال راشد مولى الأدارسة وصاحب الفضل الأول في قيام دولتهم، يؤكد هذا القول .

والحق أن اغتيال إدريس الأول لم يحل دون نمو دولة الأدارسة واستمرارها ، ذلك أن البربر التفوا حول راشد [١٠١]- الذي قيل أنه من أصل مغربي[١٠٢]- حتى أنجبت كنزة جارية إدريس ابنا له يشبهه تماما سنة ١٧٥هـ [١٠٣]، وقام راشد بأمره ، وعلمه العلوم والآداب العربية والدينية ، فضلا عن الفروسية [١٠٤]. وإلى جانب اهتمام راشد بتنشئة إدريس الثاني، لم يدخر وسعا في الانتقام لمقتل أبيه، ويذكر ابن الآبار[١٠٥] أنه بلغ من القوة وعلو الشأن ما جعله يشرع في غزو إفريقية، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على العداء المطلق بين العباسيين وعمالهم من جهة ، والأدارسة من جهة أخرى، لذلك لم يتوان إبراهيم بن الأغلب في متابعة ما يدور داخل دولة العلويين، واستطاع عن طريق الكيد وبذل الأموال اغتيال راشد [١٠٦]، وإنقاذ إفريقية من خطره .

وتجمع المصادر على اغتيال إبراهيم بن الأغلب لراشد بعد ولايته إفريقية ولكنها تختلف في تحديد السنة[١٠٧] التي قتل راشد فيها، لكننا نستطيع ترجيح وقوع هذا الحادث في عام

= قصة موته شهيدا استدرارا لعطف الجماهير على الأسرة العلوية التي يهدر دم أفرادها غدرا بالمغرب، ويضيف احتمالا مؤداه أن ما حدث قد يكون من نسج خيال كتاب العباسيين أنفسهم الذين جعلوا الرشيد- فيما بعد- شخصية أسطورية تحيطها هالات من الغرائب والعجائب . أنظر : المغرب العربي ص٤٢٢ . وبالرغم مما يحيط بأخبار إدريس الأول من الغموض والاقتضاب أنظر : الكتاني: المرجع السابق ص٦ فليس ثمة ما يدفعنا للمضي وراء هذه الشكوك ، إذ أن ما حدث يعد واقعة عادية مألوفة في سائر عصور التاريخ .

١٠١- القرطاس ص١١ .

١٠٢- كتاب الاستبصار ص١٩٤ .

١٠٣- أعمال الأعلام قسم ٣ ص١٩٦ .

١٠٤- القرطاس ص١١ .

١٠٥- الحلة السيراء ص٢٣٤ .

١٠٦- العبر ج٤ ص١٣ .

١٠٧- يحددها ابن خلدون والسلاوي بعام ١٨٦هـ . أنظر : العبر ج٤ ص١٣ ، الاستقصا ج١ ص١٤٦، بينما يذهب صاحب القرطاس إلى أن الاغتيال تم عام ١٧٨هـ . أنظر : ابن أبي زرع : ص١٣ .

١٨٣هـ أو ١٨٤هـ قبل أن تؤول إمارة إفريقية إلى ابراهيم بن الأغلب ، فقد ورد فى شعر منسوب لإبراهيم بن الأغلب ضمن كتاب أرسله إلى الرشيد عقب نجاحه فى اغتيال مولى الأدارسة قوله:

ألم ترنى أرديت بالكيد راشدا	وأنى بأخرى لابن إدريس راصد
تناوله عزمى على نأى داره	بمختومة فى طيهن المكايد
ثلاثون ألفا سقتهم لقتله	لأصلح بالغرب الذى هو فاسد
فتاه أخو عك بمهلك راشد	وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد[١٠٨]

كتب ابراهيم بن الأغلب ذلك الشعر إلى الرشيد عندما كان يلى الزاب إبان ولاية محمد بن مقاتل العكى لإفريقية ، وكان ذلك عندما ادعى العكى نسبة فضل اغتيال راشد إليه . ولما تأكد الرشيد من افتراءات العكى وصدق إبراهيم عن طريق صاحب البريد، أمر بعزله وإسناد الإمارة إلى ابن الأغلب، وقد حدث ذلك سنة ١٨٤هـ، مما يرجح أن اغتيال إبراهيم لراشد حدث قبل توليه الإمارة [١٠٩].

ولم يفت ذلك كله فى عضد الدولة الإدريسية ، فقد حل أبو خالد يزيد ابن إلياس العبدى محل راشد فى الوصاية على إدريس الثانى[١١٠]، وقام أبو خالد بتجديد البيعة له، وأقبلت عليه كافة القبائل من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر البربر «فقويت جنوده وأشياعه ، وعظمت جيوشه وأتباعه»[١١١] وهو لم يتجاوز التاسعة من عمره [١١٢]. وتابع ابراهيم

١٠٨- ابن أبى زرع : المرجع السابق ص١٣ ، والاستقصا ج١ ص١٤٦ ، الحلة السيراء ص٢٣٣ ، أعمال الأعلام ص١٩٧ .

١٠٩- يتفق ذلك مع ما ذكره المؤرخ باسيه بصورة مقتضبة من أن «ابراهيم بن الأغلب الذى كاد يستقل بإفريقية ، قد دس السم لراشد كما دس لسيده من قبل» أنظر : دائرة المعارف الإسلامية مادة إدريس الأول مجلد ١ ص٥٤٦ .

١١٠- الاستقصا ج١ ص١٤٦ .

١١١- مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ٢١ مخطوط .

١١٢- Mercier : Histoir de l'Afrique Septentrionale. Vol . I. p. 268 .

والجدير بالذكر أن قول مرسييه يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من اغتيال راشد عام ١٨٣هـ أو ١٨٤ هـ قبل قيام دولة الأغالبة ، ذلك أن إدريس الثانى ولد سنة ١٧٥هـ (أنظر : ابن الخطيب : ص١٩٦) ويشكك =

ابن الأغلب بعد توليه الإمارة نفس سياسته التقليدية فى معاداة الأدارسة، ويبدو أن توطيد دولة الأدارسة وعدم جدوى سياسته فى النيل منها ، وإصرار البربر على مناصرة إدريس الثانى والقيام بأمره ، دفع إبراهيم بن الأغلب للتفكير فى استخدام القوة لإسقاط الحكومة العلوية ، واسترداد المغرب الاقصى.

فيذكر ابن الأثير(١١٣) أن ابراهيم «أراد قصده (إدريس بن ادريس) فنهاه أصحابه»، وإذا كان ابراهيم قد استجاب لنصيحة الناصحين ، ولم ينفذ ما أزمع فلم يكن ذلك «لكرهه قتال إدريس الثانى» كما يذهب النويرى(١١٤) إنما لكثرة مشاكل دولته واستحالة الانصراف عنها للقيام بنشاط خارج الحدود.

وعول الأمير الأغلبى على مواصلة سياسة الكيد والدسائس بقصد إثارة العراقيل فى وجه معاصره إدريس الثانى، فحاول هذه المرة إغراء بهلول بن عبد الواحد المدغرى، وزير إدريس «والقائم بأمره»(١١٥) و«صاحب سره»(١١٦) والذى يعد «من خاصته وأركان دولته» (١١١٧)، فبذل له الأموال ليحضه على «ترك طاعة إدريس إلى طاعة هارون»(١١٨). وكان إبراهيم بن الأغلب يريد فى الحقيقة تأليب البربر على إدريس الثانى، بسبب سخطهم لقدوم خمسمائة(١١٩)

= فى رواية ابن خلدون القائلة بأن إدريس الثانى قد بلغ الحادية عشرة فى السنة التى اغتيل فيها راشد . (أنظر : العبر ج٤ ص١٣) . وكذلك فى رواية ابن أبى زرع التى تجعل مولد إدريس الثانى سنة ١٧٧هـ. وبلوغه الحادية عشرة من عمره وقت اغتيال راشد. (أنظر : القرطاس ص١٠) .

١١٣- الكامل ج٥ ص١٠٤ .

١١٤- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٠ .

١١٥- الحلة السيراء ص٢٤٨ .

١١٦- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٢٨ .

١١٧- الاستقصا ج١ ص١٤٨ .

١١٨- العبر ج٤ ص١٤ .

١١٩- يذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء القادمين على إدريس الثانى كانوا يمثلون سفارة أندلسية من قبل الأمير الحكم بن هشام، وأن هدف هذه السفارة هو تهنئة إدريس الثانى باعتلائه الحكم ، فضلا عن عقد تحالف معه ضد عدوهما المشترك فى إفريقية والشرق «الأغالبة والعباسيين»، أنظر:

من عرب إفريقية والأندلس إلى فاس وترحيب ادريس بهم، وإحلالهم محل الصدارة فى دولته، باتخاذه وزيراً من الأزد هو عمير بن مصعب ، وقاضيا من القيسية يدعى عامر بن محمد بن سعيد، وكاتبًا من الخزرج يسمى أبا الحسن عبدالله بن مالك [١٢٠]. ودارت مراسلات[١٢١] عديدة بين ابن الأغلب وبين البهلول ، بعدها كسبه ابن الأغلب إلى جانبه، وأخرجه عن طاعة إدريس ، ففارقه ووفد عليه بالقيروان «وعاد إلى الطاعة»[١٢٢] كما يقول

Conde : History of the dominion of the Arabs in Spain . vol . I. pp. 350 . 51 , =

Scott : History of the Moorish empire in Europe . vol . I. p. 456

لكن المصادر تخلو من أدنى إشارة فى هذا الصدد .

أنظر : حاشية رقم (١) من كتاب . Fournel : Les Berbers . Vol. I. p. 460

١٢٠- القرطاس ص١٣ ، ١٤ ، العبر : ج٤ ص٧ ، الاستقصا ج١ ص١٤٨ ، مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ٢١ مخطوط . Marcais : L'Afrique du Nord .. p. 147

١٢١- أورد ابن الأبار بعض الأشعار التى تضمنتها تلك المكاتبات المتبادلة ، فقد كتب البهلول إلى ابراهيم بن الأغلب يقول :

لئن كنت تدعونى إلى الحق ناصحا ... لتكشف عن قلبى ضمير خلاف

لقد ما أتانا عنك أنك ناصح ... لمن نال بالصلح الخلافة كاف

وأنك محمود النقائب عندهم ... تزين ما تأتى لهم بعفاف

فعجل على رد رأى فإننى ... أرد الهوى للحق حين يوافى

فجاوبه إبراهيم بقوله :

عرضت على البهلول ما إن أصابه ... تعرض منه طاعة بخلاف

ليركب نهج الحق والحق واضح ... ونهج العمى وعر المهالك عاف

فلا تتركن رشد الهوى بضلالة ... كمستبدل رنق الشراب بصافى

وبايع لهارون الإمام بطاعة ... تجد على الإسلام خير مكافى

أنظر : الحلة السيراء ص٢٤٨ .

١٢٢- نظر النويرى باعتباره سنيًا إلى الأدارسة على أنهم مارقين على الخلافة الشرعية .

أنظر : . Vonderheyden : Op. cit . p. 262

النويرى [١٢٣]، ولم تجد مساعى إدريس الثانى فى استمالته[١٢٤] إليه. وقد بادر إبراهيم - تأكيدا لارتباطه بالعباسيين- بإبلاغ الخبر للرشيد ، وبعث وفداً من أصحاب البهلول بصحبة أحد رجاله ويدعى إبراهيم بن محمد الشيعى إلى بغداد، فرحب الرشيد بمقدمهم [١٢٥].

وكان من نتيجة استمالة إبراهيم بن الأغلب للبهلول أن خشى إدريس الثانى على دولته ، فبعث إلى ابن الأغلب يستعطفه ، ويذكره بقرابته للرسول[١٢٦] ، ويرجوه الكف عن تدبير المكائد ضده [١٢٧]، ويذكر المؤرخون أن ابراهيم «كف عنه» [١٢٨]، «وأجل مشروعاته الخاصة بالمغرب» [١٢٩]، «فلم تجر بينهما حرب» [١٣٠]. يتضح من ذلك تفوق مركز ابن الأغلب ، لكن ابن خلدون ومن أخذ عنه من المحدثين يصورون الموقف تصويرا مغايرا ، يذكر ابن خلدون[١٣١] أن «إدريس صالح إبراهيم بن الأغلب» ، ولم يستجب إبراهيم للصلح «إلا

١٢٣- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٨ .

١٢٤- كتب إدريس الثانى إلى البهلول يقول :

أبهلول قد جشمت نفسك خطة	تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره	فأصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب	وما قد رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا	ومناك إبراهيم خرط قتاد

أنظر : ابن الآبار : ص٢٠١ السلاوى: ص١٤٩ .

١٢٥- ابن الآبار ص٢٠٦ .

١٢٦- ابن الأثير ج٥ ص١٠٤ ، النويرى ج٢٢ ورقة ٢٨ .

١٢٧- كتب إدريس إلى ابراهيم فى هذا الصدد يقول :

اذكر إبراهيم حق محمد وعترته	والحق غير مقول
وادعوه للأمر الذى فيه رشده	وما هو لولا رأيه بجهول
فإن آثر الدنيا فإن أمامه	زلازل يوم للعقاب طويل

أنظر : ابن الآبار ص٢٠٢ .

١٢٨- ابن الأثير ج٥ ص١٠٤ .

١٢٩- Mercier : Op. cit . vol . I. p. 268 .

١٣٠- نهاية الأرب : ج٢٦ ورقة ٢٨ .

١٣١- المقدمة ص٢٤ ، ٢٥ ، العبر : ج٤ ص٧ ، ١٤ .

لعجزه» عن مناوءة إدريس ، فكف عن مدافعته ، وبرر مسلكه للخلافة بتحقير شأنه ، «والغض منه والقدح فى نسبه إلى أبيه إدريس» . والذين تأثروا برواية ابن خلدون ومنهم جوتييه[١٣٢] يردون ذلك إلى إجماع قبائل البربر كلها على مناصرة إدريس الثانى . ويؤيد فندرهيدن[١٣٣] هذا بقوله بأن «إدريس الذى كان قويا بمساندة أوربة لم يكن بحاجة لاستثارة شفقة الأغالبة».

لكننا نعتقد بصواب ما ذهب إليه فورنل[١٣٤] من أن «اتحاد زناتة وصنهاجة - العدوين التقليديين- فى تدعيم حكم إدريس الثانى لم يكن كافيا لردع إبراهيم بن الأغلب ووقوفه عند حده » . كما نأخذ بتفسيره لعدم إقدام ابراهيم بن الأغلب على القيام بعمل حربى ضد الأدارسة «لأن ثورات البربر كانت لاتزال تهدد دولته». وفضلا عن ذلك فإن قبائل البربر بالمغرب الأقصى لم تكن إذ ذاك مجمعة على تأييد حكم إدريس الثانى لما ذكرناه من حنقها على العرب الذين أنزلهم إدريس مكان الصدارة فى دولته دون البربر، لذلك تألب زعيم البربر أبو خالد يزيد وحض قومه على مناهضة هذه السياسة [١٣٥]، كما خرج إسحاق بن محمود زعيم أوربة لنفس الأسباب، كل ذلك يدحض ما ذهب إليه ابن خلدون ومن أخذ عنه من أن إبراهيم بن الأغلب سالم إدريس الثانى خوفا منه وتهيبا .

وبالرغم من ثورات الجند فى إفريقية، ظل ابراهيم بن الأغلب يكيد للدولة الإدريسية ، منتهزا تخاذل البربر فى نصرتها ، ولاشك أن إسحق بن محمود الأوربى كان له دور كبير فى قيام الدولة، فقد ناصر إدريس الأول فور وصوله المغرب، ومهد له أمر دعوته ، وأخذ له البيعة من أوربة وسائر القبائل، كما تعهد إدريس الثانى بالرعاية منذ طفولته، وضمن لدولته البقاء والاستمرار . لكنه اتجه إلى أعداء أدريس الثانى حين أحس بتضعضع مكانته، ومكانة قومه من البربر . ويؤكد المؤرخون [١٣٦]، تواطؤه مع إبراهيم بن الأغلب فى التآمر على إدريس

١٣٢- Les siecles obscurs . p. 276 .

١٣٣- La Berberie Orientale . p. 262 .

١٣٤- Les Berbers . vol . I. p. 459 .

١٣٥- Ibid . p. 460 .

١٣٦- البكرى ص١٢٣ ، . Fournel : Op.. cit . vol I, p. 461 .

الثانى ، غير أن أحدا لم يذكر ثمة تفصيلات عن طبيعة هذا التواطؤ أو أهدافه . وما نعلمه هو أن إدريس الثانى بطش بالمتآمرين ، وأقدم على قتل الأوربى[١٣٧] رغم أفضاله السابقة فى عام ١٩٢هـ. وهذا الحادث ينهض دليلا على استمرار روح العداء بين الأغالبة والأدارسة بالرغم من توسلات إدريس الثانى ومناشدته تحقيق السلام. ونعتقد أن إدريس الثانى أقدم على قتل الأوربى بفضل قدوم أعداد من العرب إليه، استأنس بهم فى تدعيم دولته عوضا عن أنصاره من البربر. والجدير بالذكر أن هؤلاء المهاجرين جاءوا من إفريقية، وكانت عدتهم ثلاثمائة أسرة، وقد أسس لهم إدريس ربض القرويين[١٣٨] بمدينة فاس عام ١٩٣ هـ[١٣٩] التى حرص على بنيانها فى مكان يأمن فيه مؤامرات الأغالبة . ولم يحاول إبراهيم بن الأغلب أن يستغل هذا الموقف برغم ما يذهب إليه فورنل[١٤٠] عن «اهتمامه بإعادة العرب الذين غادروا القيروان إلى

١٣٧- البكرى : نفس المصدر والصفحة ، الاستقصا ج١ ص١٤٩ .

١٣٨- المغرب ص١٢٣ .

١٣٩- يتشكك المؤرخ فورنل فى حدوث هذه الهجرة فى عهد إبراهيم بن الأغلب ويرجح وقوعها فى أوائل حكم زيادة الله، ويقيم رأيه على اعتبارين أولهما أن حى الأندلسيين قد أنشىء سنة ١٩٨هـ بعد هجرة الربضيين إلى المغرب، ثم أنشىء حى القرويين بعد ذلك، أى أن حى الأندلسيين سابق فى إنشائه على القرويين . (أنظر Les Berbers . vol . I. p. 489) أما الاعتبار الآخر فهو اعتقاده بأنه لم يقع فى عهد إبراهيم بن الأغلب ومن بعده أبى العباس عبدالله ما يدعو إلى حدوث هذه الهجرة الهائلة.

(أنظر : Les Berbers : vol . I, p.p . 488-89) والواقع أن حى الأندلسيين قد أنشىء قبل حى القرويين ، لكنه لم ينشأ عام ١٩٨هـ كما يذهب فورنل ، بل أقيم عام ١٧٢هـ حسبما طالعنا بروفنسال بنظريته الجديدة عن تأسيس مدينة فاس ، والتى دعمها بأدلة مادية ، واستشهادات من كتابات المؤرخين أمثال الرازى وابن سعيد وابن الآبار وغيرهم مما يدفعنا إلى قبولها .

أما عدوة القرويين فقد أسست فى عهد إدريس الثانى عام ١٩٢هـ أو ١٩٣ هـ حسبما يذكر بروفنسال .

(أنظر : الإسلام فى المغرب والأندلس من ص١ إلى ٥٠) . ويتفق ذلك مع قول الإدريسى بأن ربض القرويين أنشىء عام ١٩٣ هـ شمال ربض الأندلسيين (أنظر : صفة المغرب ص٧٥) .

ومن ناحية أخرى فقد شهدت إفريقية الثورات والفتن منذ عام ١٨٦هـ، ومن المحتمل أن تكون الهجرة المعنية قد حدثت على دفعات حتى ازداد عدد المهاجرين عام ١٩٣هـ الأمر الذى دفع إدريس الثانى إلى إنشاء ربض القرويين .

١٤٠- Les Berbers. vol . I. p. 497 .

المغرب» ، وساهموا في تدعيم دولة الأدارسة (١٤١)، فإن المصادر المعاصرة لاتؤيد هذا القول . ونعتقد أن توانيه كان راجعًا إلى انشغاله بإخماد الثورات التي قامت بافريقية في عامي ١٩٤هـ، ١٩٦هـ. ولاغرو فقد اغتبط لهذه الهجرة التي أتاحت له التخلص من بعض مناوئيه، فضلا عن اغتباطه لذلك الصراع الذي نشب بين إدريس الثاني وبين قبيلة أوربة.

ثم مات إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦هـ، وانتعشت الدولة الإدريسية بعد موته ، فقد عمل إدريس الثاني على استمالة رجال أوربة من جديد (١٤٢)، كما اطمأن من جانب إفريقية وشرع في تدعيم نفوذه غربا وشرقا، فاستولى على نفيس وأغمات، وفتح بلاد المصامدة حتى السوس الأقصى، وعاد إلى فاس عام ١٩٩هـ (١٤٣)، ثم استأنف جهوده في تأكيد سلطانه في المغرب الأوسط، فأخضع نفزة بتلمسان ، وأدب الخوارج في تلك الجهات ، ودانت له البلاد من السوس إلى شلف(١٤٤).

وبموت أبي العباس عبدالله وتولية زيادة الله الإمارة عام ٢٠١هـ، لم يعبأ بما كان يدور على حدوده الغربية (١٤٥)، واكتفى باتهام إدريس الثاني «بتجاوزه حد التخوم من عمله»(١٤٦)، ولعل كف زيادة الله عن الأدارسة كان بسبب انشغاله بفتن الجند، ولسوء علاقته بالخلافة العباسية إلى حين. ويبالغ المؤرخون في تصوير عمق الخلاف بين الإمارة، المحبذ لانضمامه إلى الأدارسة على تبعيته لوالي مصر عبدالله بن طاهر ، في حين أن الخلاف كان أمرًا عارضًا ما لبث أن زالت أسبابه. لاتنكر أن زيادة الله أرسل نقوداً إدريسية إلى المأمون، غير أن ذلك لم يكن من قبيل التهديد والوعيد، كما يذهب بعض المؤرخين(١٤٧)، بقدر ما كان من قبيل تذكير الخليفة بجهود الإمارة في مواجهة خطر الأدارسة(١٤٨) ويبدو أن الأمراء الأغالبة درجوا

١٤١- Vonderheyden : Op. cit . p. 263 .

١٤٢- Loc. cit.

١٤٣- القرطاس ص٢٩ .

١٤٤- العبر ج٤ ص١٣ .

١٤٥- Vonderheyden : Op. cit. p. 263 .

١٤٦- ابن خلدون : المقدمة ص٢٥ .

١٤٧- السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٣٨٠، ٣٨١ . Vonderheyden : Op. cit. p. 263 .

١٤٨- الحلة السيراء ص٢٥٤ .

على «إنفاذ سكة إدريس فى تحفهم وهداياهم، تهويلا باشتداد شوكته، وتعظيما لما دفعوا إليه من مطالبته»[١٤٩].

ونتج عن توانى زيادة الله فى مناوءة إدريس الثانى إتاحة نوع من الاستقرار للدولة الإدريسية ، فنعمت بالاطمئنان إلى حين ، وامنت جانب إفريقية ، وسلمت من الفتن الداخلية التى طالما تسبب ابراهيم بن الأغلب فى إثارتها من قبل . غير أن هذا الهدوء المؤقت لايعزى إلى جبن الأمير الأغلبى أو خوفه من التعرض للخطر إذا اشتبك فى حرب مع الأدارسة كما يذكر فندرهيدن [١٥٠]، ولايعزى إلى أن فاس غدت فى عهد إدريس الثانى مصدر رعب للأغالبة كما يذكر فورنل [١٥١]، إذ الحقيقة أن زيادة الله لم يشأ مناجزة الأدارسة قبل القضاء على مشاكله الداخلية، فما أن تم له إخماد فتن الجند عام ٢١٢هـ حتى شرع يهتم بالعلاقات الخارجية، ففى الوقت الذى سير فيه حملته المشهورة لفتح صقلية، تابع سياسة والده فى الدس والكيد للأدارسة . وحسبه نجاحه فى اغتيال إدريس الثانى، وتوجيهه أقوى ضربة إلى دولة العلويين بالمغرب الأقصى ، ونعتقد أن وفاة إدريس المفاجئة تنهض دليلا على ما ذكره ابن الآبار[١٥٢] من أن «زيادة الله احتال عليه حتى اغتاله» . كما يؤكد ذلك قول ابن عذارى[١٥٣] بأنه «مات مسموما » ، «بحبة عنب غص بها، فلم يزل مفتوح الفم، سايل اللعاب حتى مات» كما يذكر البكرى [١٥٤]. وذلك ينفى تفكير زيادة الله فى التبعية له، ويؤكد أن روح العداء[١٥٥] غلبت على العلاقات الأغلبية الإدريسية.

١٤٩- ابن خلدون : المقدمة ص٥ .

١٥٠- La Berberie Orientale . p. 264 .

١٥١- Les Berbers . vol . I. p. 497 .

١٥٢- الحلة السيراء ص٢٠٠ .

١٥٣- البيان المغرب ج١ ص٢٩٩ .

١٥٤- المغرب ص١٢٣ .

١٥٥- ينفى ذلك ما قيل حول اشتراك الأدارسة فى فتح صقلية جنبا إلى جنب مع الأغالبة. أنظر : Cam. Med. Hist vol . 2 . p. 381 والواقع أن دولة الأدارسة لم تكن قط دولة بحرية مما ينفى هذا الزعم.

وبموت إدريس الثاني ، تداعت دولة الأدارسة، ولم يعول الأغالبة كثيرا على مناوءتها[١٥٦]. فلم تعد تشكل أدنى خطورة على حدودهم الغربية . وليس أدل على ذلك من عدم انتهاز الأدارسة فرصة خروج كثير من القلاع والحصون كسطيف وبلزمة على أمراء بنى الأغلب ، ولم يمدوا أيديهم لأتباعهم من زناتة حين بطش بهم أبو الغرانيق ومن بعده ابراهيم بن أحمد الأغلبى[١٥٧].

فقد قسمت دولة الأدارسة[١٥٨] بين أفراد الأسرة العلوية [١٥٩]، وشاعت الخلافات والفتن والحروب مما أضعف الدولة، وتقلص نفوذها حتى أصبح لايتجاوز مدينة سبتة [١٦٠]، كما وقعت تلمسان وما جاورها - على حدود إفريقية- فى حوزة آل محمد بن سليمان أبناء عمومة إدريس الثانى[١٦١] الذين آثروا المسالمة والاستكانة [١٦٢]. وهكذا انصرف الأغالبة - بعد اطمئنانهم على سلامة حدودهم الغربية- إلى مواصلة الجهاد فى صقلية وجنوب إيطاليا .

رابعا : الأغالبة والأمويون بالأندلس :

تأثرت العلاقات بين الأغالبة والأمويين بالأندلس بطبيعة نشأة كل من الدولتين ، ثم بالعداء التقليدى بين العباسيين والأمويين ، ومن ثم كانت هذه العلاقات عموما تتسم بروح العداء .

وإذا كانت المصادر تصمت تماما عن ذكر أدنى صلة بين الأغالبة والأندلس : فإن المؤرخ بروفنسال[١٦٤] يفسر هذا الصمت بأنه وتجاهل رسمى متبادل ينم عن العداء السياسى

١٥٦- Provencal : L'Espagne Musulmane . vol . I. 381

١٥٧- البيان المغرب ص١٦٠ وما بعدها ، . Vonderheden : Op. cit. 264

١٥٨- انظر البكرى : المغرب ١٢٣ وما بعدها .

١٥٩- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٨ ، ٨٩ .

١٦٠- بروفنسال (نشر) : نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ص٣ .

١٦١- العبر ج٤ ص١٦ .

١٦٢- Vonderheyden: Op. cit. p. 169

١٦٣- المغرب ص٣٠٧ .

١٦٤- L' Espagne Musulmane . vol . I. p. 169 .

الدفين» . والحقيقة أن المشاكل الكثيرة التى تعرض لها كل من الأغالبة والأمويين لم تمكن أيا منهما من الخروج بهذا العداء السلبى إلى عمل إيجابى ، فالإمارة الأموية شغلت بتحقيق وحدة الأندلس ، ووضع حد للفتن بين العرب والبربر [١٦٥]، ومواجهة حركات آل البيت الأموى الطامعين فى الإمارة[١٦٦] ، كما وجهت اهتماما وراء البرانس لمواجهة الخطر الكارولنجى ، فضلا عن خطر المجوس «النورمانديين» على سواحل البلاد [١٦٧]. ولم تستطع إنشاء أسطول تستطيع به مناجزة الأغالبة، إذ لم يتسن لها ذلك إلا فى عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر[١٦٨]. أما الأغالبة فقد شغلوا بفتن الجند فى الداخل والفتوحات فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ومناوءة جيرانهم الرستميين والأدارسة . ولذلك يمكن القول بأن «الجانب الأكبر من النشاط البحرى الإسلامى فى حوض البحر المتوسط الأوسط كان مغربيا ، أما فى الحوض الغربى فكان معظم النشاط فيه أندلسيا »[١٦٩].

ومع ذلك فيعتقد بعض المؤرخين أن ابراهيم بن الأغلب الذى كان معاصرا للحكم بن هشام قد ناصر الثوار على الإمارة الأندلسية ، فيذكر كونديه[١٧٠] أن «جيش عبدالله البلانسى- الثائر على الحكم بن هشام- كان مدعما بجند من إفريقية» ، ويشير عنان[١٧١] إلى أن عمى الحكم وهما سليمان وعبدالله كانا يقيمان فى عدوة المغرب وخاطبه فى مشروعهما ، ويؤكد عبد العزيز سالم[١٧٢] زيارة عبدالله لابراهيم بن الأغلب بالقيروان .

١٦٥- البيان المغرب ج٢ ص٩٥ وما بعدها .

١٦٦- أعمال الأعلام ص١١ وما بعدها ، Altamira : History of Spain . p. 97 .

١٦٧- الكامل ج٥ ص٢٩٩ ، ٣٠٠ ، البيان المغرب ج٢ ص١٣٠ ، ١٣١ .

١٦٨- أعمال الأعلام ص٤٢ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٣١ وما بعدها .

١٦٩- البيان المغرب ج٢ ص١٤٥ ، حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط . المجلة التاريخية المصرية : مجلد ٤ عدد ١ ص١٠٠ .

١٧٠- Condé : History of the dominion of the Arabs in Spain p. 247 .

١٧١- دولة الإسلام فى الأندلس ج١ ص٢٢٦ .

١٧٢- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٢٢٠ .

والحقيقة أنه لايمكن الجزم بما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، فلم تشر أى من المصادر إلى ما يوحى بمثل هذا الاتصال ، ولعل كونديه يقصد بجند إفريقية الذين استعان بهم البلانسى ، الجند المغاربة [١٧٣]. إذ الثابت أنه كان مقيما بدولة الأدارسة فى «عدوة المغرب» [١٧٤]، وليس من المعقول أن يتصل عبدالله وهو مقيم عند الأدارسة بأعدائهم الأغالبة يطلب منهم العون، وإذا ما علمنا أن عبدالله البلانسى غادر المغرب على وجه السرعة عقب علمه بموت أخيه هشام عام ١٨٠هـ [١٧٥]، ونزوله بسرقسطة قبل أن يصل أخوه سليمان إلى الأندلس عام ١٨٢هـ [١٧٦]، وإذا ما أدركنا أن ابراهيم بن الأغلب تولى الإمارة عام ١٨٤هـ[١٧٧]، ففى ذلك ما يؤكد عدم صحة تلك الرواية.

وإذا كنا نستبعد مؤازرة إبراهيم بن الأغلب للبلانسى ، فإننا لانصدق أيضا ما يروى عن تعاون الأغالبة والأندلسيين فى الفتوحات البحرية فى جزر البحر المتوسط ، يذكر بكلر[١٧٨] أن «قراصنة من شمال إفريقية ساعدوا بلاط قرطبة فى القيام بسلسلة من الغارات على كورسيكة وسردينية وإيطاليا عام ١٩٠هـ (٨٥٠م) » . ويذكر العدوى[١٧٩] بأنه «فى عام ١٩٣هـ (٨٠٨م) جاءت قوة بحرية من عرب المغرب ساعدت الأندلسيين فى غزو كورسيكة، كدليل على التعاون البحرى بين المغرب والأندلس»، لكن الثابت أن أسطول الأغالبة فى عام ١٩٣هـ كان يعمل فى مساعدة الصقالبة فى حصار مدينة باتراس . ولو صح القولان السابقان ، فإن هذه القوى البحرية المغربية كانت تنتمى إلى الرستميين الذين كانوا على صلة وطيدة بالأمويين فى الأندلس [١٨٠]، ذلك لأن الأغالبة والأدارسة والأمويين كانوا على عداء فيما بينهم فلم يوحدوا جهودهم البحرية[١٨١].

١٧٣- البيان المغرب ج٢ ص١٠٥ .

١٧٤- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص١١ ، البيان المغرب ج٢ ص٩٤ .

١٧٥- الكامل ج٥ ص١٠١ ، ١٠٢ .

١٧٦- البيان المغرب ج٢ ص١٠٣ .

١٧٧- عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٢٢٠ .

١٧٨- Haroun L' Rashid and Charles the great . p. 39 .

١٧٩- الأساطيل العربية ص٧٦ .

١٨٠- البلاذرى: فتوح البلدان ص٢٧٧، البيان المغرب ج٢ ص١٦١، اليعقوبى كتاب البلدان، ص٣٥٣ .

١٨١- فازيليف : العرب والروم ص٦٤ .

ولما شرع الأغالبة فى فتح صقلية عام ٢١٢هـ ، تكونت حملتهم من العرب والجند والبربر والأندلسيين، وفى أثناء الفتح كانت الإمدادات تصل إلى صقلية «من إفريقية والأندلس»[١٨٢]، ولم يكن هؤلاء الأندلسيون ينضوون تحت لواء الإمارة رسميا ، وإنما كانوا من المغامرين والثائرين على الحكم الأموى بالأندلس [١٨٣]، فقد ساهم الكثيرون منهم فى فتح صقلية .

وفى عام ٢١٤هـ تعرض الأغالبة المحاربون فى صقلية لمأزق حرج بعد موت قائدهم محمد بن أبى الجوارى، حيث حوصروا فى «مينوى» ، وشحت أقواتهم حتى أكلوا الدواب [١٨٤]، وفى تلك الأثناء وصل إلى مياه الجزيرة أسطول اندلسى بقيادة إصبغ بن وكيل الهوارى وسليمان بن عافية الطرطوشى للغزو والسلب [١٨٥]، وطلب المحاصرون إلى القائد الأندلسى نصرتهم، فاستجاب لهم على شريطة توليه القيادة ، وإمداده بالخيول [١٨٦]، ونجح الأندلسيون بالفعل فى ترجيح كفة النضال ، فرفع الحصار عن الجيش الأغلبى فى جمادى الآخرة سنة ٢١٥هـ[١٨٧]، ولايؤكد هذا ما يذكره الدكتور مؤنس[١٨٨] «من أن المغاربة والأندلسيين اشتركوا فى الفتوح فى البحر المتوسط بدرجة لايمكن معها الفصل بين جهودهما»، أو ما أشار إليه العدوى[١٨٩] من أن «نشاط الأغالبة اتسم بالتعاون البحرى مع القوى الأندلسية على الرغم من تبعية الأغالبة أنفسهم للخلافة العباسية» .

فالثابت أن إصبغ بن وكيل لم يشترك فى معارك صقلية رغبة فى الجهاد ، بقدر طمعه فى الرياسة والمغانم ، كذلك اتسمت العمليات الحربية الأندلسية بالطابع الفردى، فقد توجه أصبغ

١٨٢- البيان المغرب ج١ ص١٣٢ ، المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٢٩ ، العرينى : الدولة البيزنطية ص٢٣٧ .

١٨٣- Vonderheyden : Op. cit. p. 276 .

١٨٤- الكامل ج٥ ص١٨٨ .

١٨٥- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ١٢٣ .

١٨٦- البيان المغرب ج١ ص١٣٤ .

١٨٧- المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٢٩ .

١٨٨- المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ ص١٠٠ .

١٨٩- المسلمون والجرمان ص٢٧٣ .

ورجاله إلى مينوى مستقلين عن الجيوش الأغلبية التى اتجهت إلى بلرم [١٩٠]، ولما انتشر الطاعون الذى مات بسببه أصبغ ، عاد معظم رجاله من حيث أتوا، بينما انضمت أقلية منهم لتساعد الأغالبة فى فتح بلرم عام ٢١٦هـ لكن الخلاف سرعان ما نشب بين الطرفين [١٩١]، وليس من المستبعد أن يكون سببه ما جرى من نسبة الأندلسيين هذا النصر إلى الأمويين على نحو ما يذكر سكوت [١٩٢]. قصارى القول أن ما حدث من اشتراك إصبغ فى عمليات صقلية بعد الشروط التى أملاها، وعدم تبعيته لأسطول الإمارة الأندلسية ، وقيامه بالعمل فى صقلية مستقلا، وانسحاب معظم رجاله بعد موته ، واختلاف الباقين منهم مع الأغالبة ، ما ينهض دليلا على أن هدف الحملة لم يكن الجهاد أو التعاون بين بحرية الأندلس وبحرية الأغالبة ، بل أغلب الظن أن نجاح الأغالبة فى فتوحاتهم بصقلية كان يقابله أمراء قرطبة بشىء من الحقد والغيرة[١٩٣].

ولو تعاونت الإمارة الأندلسية والأغالبة ، لما وقف الأندلسيون موقفا عدائيا كالذى اتخذوه من الأغالبة إبان فتوحاتهم فى جنوب إيطاليا [١٩٤]، فحين تدخل الأغالبة فى النزاع بين أمراء بنفنت مؤازرين للأمير رادلخيس ، هب الأندلسيون لتعضيد خصمه سيكنولف عام ٢٢٥هـ (٨٤١م) [١٩٥]، ويؤكد هذا العداء أن الإمبراطور البيزنطى تيوفيل ، مدفوعا بخطر الأغالبة فى جنوب إيطاليا أوفد سفارة إلى الأمير الأموى عبد الرحمن الثانى لعقد محالفة للتعاون فى طرد الأغالبة من صقلية وجنوب إيطاليا [١٩٦]. حقيقة أن الأمير الأموى لم يستجب لطلب تيوفيل ، غير أنه رحب برسله وأرسل إليه الهدايا، «وبعث إليه بيحى الغزال من كبار أهل الدولة، فأحكم بينهما الوصلة»[١٩٧].

١٩٠- الكامل ج٥ ص١٨٧ ،. Bury : Ahistory of the eastem Roman empire . p. 304

١٩١- ابن الأثير : ج٥ ص١٨٨ .

١٩٢- History of the Moorish empire in Europe. vol . 2 . p. 24 .

١٩٣- Provencal : Op. cit . vol I. 170 .

١٩٤- Bury : Op. cit. p. 313 .

١٩٥- فازيليف : العرب والروم ص١٨٤ ، العرينى : الدولة البيزنطية ص٢٥٢ .

١٩٦- Brunschvig : la Tunisie dans le haut moyen âge . p. 16 .

١٩٧- المقرى : نفح الطيب ج١ ص٣٢٤ ، Hole: L'Andalouse . p. 84 ويعزو فازيليف عدم استجابة=

كما ظهر العداء واضحا بين الأمويين والأغالبة فى التجاء الثائرين على الإمارة بالقيروان إلى الأندلس كسالم بن غلبون الذى مرق على الأمير محمد بن الأغلب عام ٢٣٣هـ [١٩٨]، وفى مساندة أمراء قرطبة للرستميين - جيران الأغالبة وأعدائهم- فليس من شك أن دولة الرستميين كانت على صلة ودية بالأندلس .

وقد حرص أمراء قرطبة على تشجيع الرستميين فى إقامة العراقيل فى وجه أمراء القيروان، ففى عام ٢٣٩هـ أسس الأغالبة مدينة العباسية التى أحرقها الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمى، فابتهج الأمير محمد الأموى لذلك، وكافأه بمبلغ ألف درهم[١٩٩]، ولم يكن فى مقدور الإمام الرستمى الإقدام على هذا العمل دون اعتماد على أصدقائه الأمويين [٢٠٠]. لكن إذا كان الأمويون فى الأندلس قد ساندوا بنى رستم ضد الأغالبة، فلم يكن من المعقول أن يفكروا فى التحالف مع الأدارسة لنفس الغرض ، ذلك أن عداوتهم لبنى ادريس لم تكن بأقل من حنقهم على بنى الأغلب.

وإذا كان الأمويون قد كادوا للأغالبة عن طريق الرستميين فلم يتوان الأغالبة بدورهم عن تشجيع الخارجين على أمراء قرطبة، وإذا كانت الأدلة على مساعدة إبراهيم الأغلب عبدالله البلانسى فى الثورة على الحكم بن هشام تعوزنا ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد اتصال الثائر عمر

= الأمير الأموى لرغبات الإمبراطور البيزنطى إلى انشغاله بمشاكل الإمارة الداخلية التى كان أهمها ظهور خطر النورماندين (أنظر : العرب والروم ص١٦٥) وهذا التفسير فى الواقع أكثر قبولا مما يذكره بروفنسال من أن الأمير الأندلسى أحجم عن مظاهرة مشرك على توسيع رقعته فى دار الإسلام (أنظر : الإسلام فى المغرب والأندلس ص١٠٤) .

١٩٨- الكامل ج٥ ص٢٨١ .

١٩٩- العبر ج٤ ص٤٢٩ .

٢٠٠- Fournel : Op. cit . vol. I. p. 514 .

٢٠١- يعزو بروفنسال هذا العداء إلى ما كان فى صدر الإسلام من خصومة بين على ومعاوية . أنظر : (L'Espagne Musulmane . p. 173) ومن ثم فقد حرص الأمويون بالأندلس على محاربة أية دعوة شيعية فى شمال أفريقيا (أنظر : السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٥٦٩) ومن مظاهر هذا العداء ترحيب الأدارسة بالمناوئين لأمراء قرطبة، ومحاولات الأمويين استخلاص سبتة من أيدى الأدارسة .

(أنظر نبذ تاريخية من أخبار البربر فى القرون الوسطى نشر : بروفنسال ص٤٢٣) .

بن حفصون[٢٠٢] ببلاط القيروان وتبادله الهدايا مع الأمير الأغلبي الذي وعده بمناصرة الخلافة[٢٠٣]. وقد قصد ابن حفصون من اتصاله بالأغالبة أن يتوسطوا له لدى بغداد لتعترف به حاكما شرعيا على الأندلس [٢٠٤]، أما لماذا اتصل ابن حفصون بإفريقية بالذات فلأنه خبر

٢٠٢- ينتمي عمر بن حفصون إلى أصل قوطي، وقد اعتنق والده الإسلام ، واتسمت حياة عمر بالشذوذ والميل إلى سفك الدماء، فارتكب عدة فظائع ، وفر من وجه القصاص إلى دولة بني رستم، ثم ما لبث أن عاد إلى الأندلس خشية أن ينكشف أمره فيسلمه الرستميون إلى قرطبة .

وترأس ابن حفصون عصابة من المجرمين ، واتخذ من قلعة ببشتر الحصينة مقرا ثم اندرج في سلك الجندية، وخدم مدة في جيش قرطبة، لكنه ضاق ذرعا بحياة الجندية فلفظها عام ٢٦٨ هـ ليعود إلى قلعته، ومن ببشتر مارس ابن حفصون حياة جديدة أشبه ما تكون بحياة الصعلكة عند العرب بما فيها من فروسية وشجاعة، وإنصاف للمظلومين، ثم ناصب الإمارة العداء علنا، وانضوى تحت لوائه الكثيرون من مناوئي الأمير، ولم يمض عام ٢٧٠هـ حتى كان ابن حفصون مسيطرا على جنوبي الأندلس فأطاعته «أكثر بلاد الموسطة بين رية الخضراء، والبيرة ، وأحواز قرطبة» وضاعت سدى جهود الأمير المنذر في استرداد ما استولى عليه ابن حفصون .

ولما تولى عبدالله الإمارة، عول على استمالة ابن حفصون ، فاستجاب له ، لكنه غدر به واستولى على حصن بلاي، وجيش ثلاثين ألفا من أهل الكور، غير أن الأمير عبدالله سرعان ما استرد بنفسه هذا الحصن وزحزح ابن حفصون عن مدينة إستجة ، ثم عاد إلى قرطبة .

واشتد ساعد بن حفصون حينما تحالف مع بني حجاج بإشبيلية ، أعداء قرطبة فامتدت إغاراته إلى مورور وشذونة وقرمونة وغيرها . وفي ٢٨٥هـ ارتد عمر إلى النصرانية، ثم تمكن الأمير عبدالله من هزيمته ففر معتصما بقلعته ببشتر، واسترد عددا من القلاع والحصون فضلا عن مدينتي البيرة وجيان. وما لبث ابن حفصون أن عاود نشاطه بعد عودة الأمير إلى قرطبة ، وتمكن من الاستيلاء مرة أخرى على كل ما فقده باستثناء مدينة البيرة .

ولما آلت الإمارة إلى عبد الرحمن الناصر ، وضع نهاية لتمرد ابن حفصون ، وتمكن من كسبه إلى جانبه ، وتوفي عمر بن حفصون في عام ٣٠٦ هـ بعد أن شغلت ثورته عهود الأمراء محمد والمنذر وعبدالله . أنظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج٢ ص١٥٧ وما بعدها ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٣١ وما بعدها ، Dozy: Spanish Islam . p. p. 316 ff ., Conde : Op. cit. p. 302 . f . f.

٢٠٣- ابن حيان : المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص٩٣- عن كتاب عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٦١ .

٢٠٤- Mercier : Op. cit. p. 299 .

أحوال المغرب وظروفه، فقد قدر له أن يقضى فى برقة زمنا ، ثم استقر به المقام عند بنى رستم حتى لجوئه إلى قبيلة مكناسة [٢٠٥]، ويبدو أنه اتصل بالأدارسة - قبل لجوئه إلى القيروان «فخاطب ملوك الشيعة بإفريقية ، أضداد الدولة الأموية»، والراجح أنه ما انصرف عنهم إلا لاشتراطهم «أن يلتزم طاعتهم ، وإقامة دعوتهم» الأمر الذى يتعارض مع طموحه الشخصى، ولذلك صرف رسل الأدارسة ، ورد إليهم خلعهم [٢٠٦].

ويذهب بعض المؤرخين[٢٠٧] إلى أن لجوءه إلى بنى الأغلب طمعا فى الظفر بتأييد الخلافة كان كفيلا بأن يتيح له استرضاء الكثيرين من العرب والبربر الحانقين على بنى أمية، لكن الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى لم يحفل كثيراً بتحقيق مطالبه، واكتفى بحضه على المضى فى إثارة العراقيل فى وجه أمراء قرطبة[٢٠٨] ولاطفه ، ورد على هديته بهدية [٢٠٩]، ويبدو أن الأمير الأغلبى وقف على أهداف ابن حفصون الحقيقية، فلم يقم من جانبه بالوساطة المطلوبة [٢١٠]، وقد يكون تنصره سببا لذلك [٢١١]، أو حسبما يذكر ابن حيان[٢١٢] ودوزى[٢١٣] أن ابن الأغلب لم يتحمس لمطالب ابن حفصون لهزيمة الأخير عام ٢٧٧هـ (٨٩١م)، وتفرق شمل أنصاره .

ومهما يكن من أمر فقد اعتذر إبراهيم بن أحمد عن تلبية مطالبه لانشغاله بأمور الدولة، وفى ذلك ما يدل على أن الأغالبة كانوا يرحبون بمؤازرة أية حركة من شأنها إضعاف الإمارة الأموية كلما سمحت لهم ظروفهم بذلك، ولاشك فى أنهم رحبوا بابن حفصون حين ازداد خطره،

٢٠٥- البيان المغرب ج٢ ص٧٢ ، . Dozy : Op. cit. p. p. 166 , 67

٢٠٦- أعمال الأعلام ص٣٢ .

٢٠٧- Dozy : Op. cit. pp. 556 , 57 , Cam . med. hist. vol. 3 p. 419 .

٢٠٨- Provencal : Op. cit . pp. 362 , 367 . ff .

٢٠٩- ابن حيان : المرجع السابق ص٩٣ .

٢١٠- Scott : Op. cit. vol . I. p. 558 .

٢١١- ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص١٤٥ ، . Hitti : History of the Arabs p. 519

٢١٢- ابن حيان : المرجع السابق ص١٠٦ .

٢١٣- Spanish Islam . pp. 362 - 367 . ff .

وهدد حكم الأمويين فى قرطبة، فلما ظهرت حقيقة حركته، أو عدم جدواها وفشلها ، تخلوا عن مؤازرته .

ونحن بصدد دراسة العلاقات الأغلبية الأندلسية ، لايمكننا إغفال التعرض لعلاقات الأغالبة بالأندلسيين الذين استوطنوا كريت [٢١٤].

حقيقة أن مسلمى كريت انقطعت صلتهم بالوطن الأم وأصبحوا يعترفون بالتبعية للخلافة العباسية ، وغدت جزيرتهم تتبع مصر إداريا[٢١٥] لكنهم أسسوا قوة بحرية لها وزنها فى البحر المتوسط، ظلت تهدد باستمرار الشواطىء والجزر البيزنطية[٢١٦]، «ونال الروم منهم مكروه عظيم » [٢١٧]. ولكونهم معاصرين للأغالبة فذلك يدفعنا إلى محاولة تحديد العلاقة بين هاتين البحريتين الإسلاميتين .

يختلف المؤرخون حول تحديد هذه العلاقة فبعضهم يؤكد تعاون مسلمى كريت ومسلمى إفريقية فى مجال الفتوح البحرية ، كما يؤكد آخرون أن العداء ساد بينهما .

٢١٤- ثار سكان ربض قرطبة- بتحريض فقهاء المالكية- على الحكم بن هشام عام ١٩٩هـ وقد تمكن الحكم بدهائه من قمع الثورة وإخمادها بقسوة ، وأمر من بقى على قيد الحياة من الثوار بمغادرة البلاد، فقصد بعضهم المغرب الأقصى، بينما اتجه زهاء عشرة آلاف منهم إلى مصر ونزلوا الإسكندرية عام ١٩٩هـ وانتهز زعيمهم أبو حفص عمر البلوطى اضطراب أحوال مصر من جراء فتنة الجروى وابن السرى ، وانشغال المأمون بمشاكل العراق وفارس ، فتغلب على البلاد وأعلن استقلاله بها.

فلما بعث الخليفة قائده عبدالله بن طاهر واليا على مصر فى عام ٢٠٩هـ نجح فى إرغام الأندلسيين على مغادرة البلاد، فخرجوا إلى جزيرة كريت التى كانت أحوالها مضطربة آنذاك ، واستقروا بها وأسسوا عاصمة لهم سموها الخندق Candia ومن كريت أطلقوا غزواتهم المستمرة على السواحل والجزر البيزنطية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. وقد استرد البيزنطيون الجزيرة بعد ما ينيف على قرن ونصف من الزمان. أنظر : الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج٧ ص١٨٣ ، ابن عذارى : ج٢ ص١٠٦ وما بعدها ، الكندى : الولاة والقضاة ص١٨٤ ، المراكشى : المعجب ص١١ ، ابن القوطية : أخبار مجموعة ص١٣٠ ، Bury : Op. cit . p.p. 287 ff.

٢١٥- العدوى : الأساطيل العربية ص٢٩٢ ، Bury : Op. cit, p. 292 ,

٢١٦- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٩ .

٢١٧- ابن الداية : المكافأة ص١١٢ .

والرأى الأول يقول به بيورى[٢١٨] حيث يؤكد مساعدة الكريتيين للأغالبة فى فتح صقلية ، وكذلك لويس[٢١٩] الذى يذكر أن مسلمى كريت عاونوا الأغالبة فى الاستيلاء على برنديزى عام ٢٢٧هـ (٨٤١م) ، فى حين يذكر فازيليف [٢٢٠]، أن الأندلسيين الذين أعانوا سيكنولف اللومباردى على رادلخيس والأغالبة كانوا من مسلمى كريت .

ونحن نميل إلى تأييد وجهة النظر الأخيرة على الرغم من اشتراك الأغالبة والكريتيين فى عداء البيزنطيين، ومن كونهما اكتسبا مجدا بحريا على حساب القسطنطينية ، يؤكد هذا الطابع العدائى ما ذكره النويرى[٢٢١] من أنه «فى سنة ٢٤٤ هـ خرج العباس بن الفضل فوصل إلى قصريانة وسرقوسة ، وأخرج أخاه فى المراكب الحربية فى البحر، فلقيه الإقريطشى فى أربعين شلنديا، فقاتلهم أشد قتال ، فهزمهم وأخذ منهم عشر شلنديات برجالها ورجع».

ويخيل إلينا أن هذه الهزيمة وضعت حداً للتنافس البحرى بين الطرفين، إذ اتجه الكريتيون إلى ممارسة نشاطهم فى مناطق أخرى تاركين منطقه وسط البحر الأبيض للنشاط الأغلبى، فلما امتد نفوذ الأغالبة إلى صقلية وجنوب إيطاليا والبحرين والتيرانى والادرياتى، اتجه الكريتيون إلى منطقة بحر إيجه والجزر المجاورة [٢٢٢]. وفى الوقت الذى عكف فيه الأغالبة على الفتح المنظم، اتجه الكريتيون للأخذ بسياسة الإغارات الخاطفة، فكانوا ينزلون الخراب والدمار بالبليبونيز ، وارخيبيلاجو وتساليا[٢٢٣] دون أن يفتحوا أيا من هذه الجهات .

٢١٨- Bury : Op. cit. p. 300 .

٢١٩- القوى البحرية والتجارية ص٢١٤ .

٢٢٠- العرب والروم ص١٨٤ .

ورد هذا الرأى الأخير فى موسوعة كمبردج لتاريخ العصور الوسطى أنظر : Vol. 2 . 384 ويقطع الدكتور العرينى بأن العلاقات بين الطرفين اتسمت بروح العداء وخاصة فى الفترة ما بين عامى ٢٢٨-٢٤٤هـ (٨٤٢-٨٥٨م) لدرجة جعلت الأغالبة ينسحبون من البحر التيرانى والأدرياتى . أنظر : الدولة البيزنطية ص١٢٩ .

٢٢١- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ١٢٣، ١٢٤ .

٢٢٢- Bury : Op. cit . p. 290 .

٢٢٣- Ostrogorosky : History of the Byzantine state p. 228 .

ب- العلاقات التجارية

لم ترد بالمراجع أدنى إشارة صريحة تثبت وجود صلات تجارية بين الأغالبة ودول المغرب والأندلس ، ومع ذلك نعتقد أن العداء السياسى بين الأغالبة وبين هذه الدول كما لم يحل دون الاتصال الثقافى فإنه لم يؤد إلى اختفاء العلاقات التجارية تماما ، ذلك أن الأغالبة بعد سيطرتهم على التجارة العالمية فى نطاق البحر المتوسط شرقا وغربا وشمالاً وجنوبًا ، كان من الضرورى أن يدخلوا فى معاملات تجارية مع دول المغرب والأندلس .

لكن الواقع أن هذه المعاملات كانت فى أضيق الحدود ، إذ انصرف اهتمام الأغالبة إلى المتاجرة مع الشرق الإسلامى والمدن الإيطالية ، كما أن دول المغرب والأندلس كانت فيما يبدو تعيش فى اكتفاء ذاتى فى ذلك الحين. ولايعنى هذا أنها كانت متخلفة اقتصاديا ، إذ الثابت أنها كانت تعيش فى رخاء، فدولة المدراريين فى سجلماسة بالرغم من قيامها على أكتاف البدو من البربر(٢٢٤) إلا أنها عرفت الزراعة واكثرت من العناية بغرس أشجار النخيل (٢٢٥). وازدهرت بها صناعة غزل الصوف، واختطت بها المصانع والقصور (٢٢٦)، وراجت تجارة المدراريين مع غرب إفريقيا ، فكانوا يصدرون الملح والنحاس والأصواف ويعودون محملين بالذهب(٢٢٧) وغدت سجلماسة مركزا تجاريا مرموقا (٢٢٨)، وتمتع أهلها بالثراء العريض(٢٢٩).

= اكتشفت ثلاثة نقوش تدل على إغارات الكريتين على مدينة أثينا بالبليبونيز فى القرن التاسع الميلادى أنظر : Hitti : Op. cit. p. 451 وتوجد إحدى هذه النقوش فى المكتبة الملكية العامة بسان بطرسبرج .

ويحكى النقش قصة غزو أتيكا ، وانسياب الغزاة فى مدينة أثينا وقتلهم رجال الدين والعلماء ووجوه المدينة، وتدميرهم المنازل والكنائس ، وعبثهم بالأيقونات المقدسة، واستباحتهم النساء.

والملاحظ أن هذا النقش مكتوب بالخط الكوفى، وقد نسب بعض المؤرخين هذا الحادث إلى سقوط أثينا على يد الترك عام ١٤٥٦ ، لكن الأستاذ Kampouroglous يؤكد أن المقصود بالغزاة عرب كريت الذين أغاروا على المدينة عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م)، وطردهم منها نقفور فوقاس . أنظر : Setton : On the Raids of the Moslems in the Aegean .. Amercian Journal of Archeology . vol , 58 , p. p. 315-319 .

٢٢٤- صبح الأعشى ج٥ ص١٦٧ ، Fournel : Op. cit . vol . L 352 .

٢٢٥- المغرب ص١٤٨ .

٢٢٦- صبح الأعشى ج٥ ص١٨٥ .

٢٢٧- نفس المصدر والصفحة .

٢٢٨- Fournel : Op. cit. vol . I. p. 362 .

٢٢٩- المغرب ص١٤٨ .

كذلك نعمت دولة الرستميين برخاء مماثل بعد أن أصلحوا الأراضى ، وعبدوا السبل، وفتحوا أبواب التجارة[٢٣٠] التى حفلت كتبهم فى الفقه بذكر أساليب تنظيمها [٢٣١]. وكانت المنطقة التى تقع فيها تاهرت غنية بالعيون والآبار فضلا عن نهر «مينة» [٢٣٢]، حتى أطلق بعض الجغرافيين[٢٣٣] على هذه الدولة «عراق المغرب»، فازدهرت الزراعة ، وأنتجت البلاد «ضروب الغلات» [٢٣٤]. وكذلك نعمت دولة الأدارسة بالاستقرار السياسى والاقتصادى ، وكانت الزراعة مصدراً للثراء فيها [٢٣٥]. وعلى الرغم من كساد الأحوال الاقتصادية فى الأندلس حتى منتصف القرن الثانى الهجرى (التاسع الميلادى) نتيجة لتوالى الثورات على أمراء قرطبة[٢٣٦] وما اقترنت به من تخريب المزارع والمدن، فلم تلبث هذه الأحوال أن تبدلت بفضل نهضة البلاد الصناعية والزراعية [٢٣٧]، وعلى ذلك فقد نعمت هذه الدول بالاكتفاء الذاتى، ويبدو أنها حرصت على تحقيقه نتيجة ظروفها السياسية الصعبة، ولم نسمع عن وجود علاقات تجارية اللهم إلا بين الرستميين والأمويين فى الأندلس .

من ذلك يتضح أنه إذا كان للأغالبة ثمة صلات تجارية مع هذه الدول فلاشك أنها كانت محدودة . يذكر لويس[٢٣٨] أن «من صقلية قام تجار شمال أفريقيا بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الأقصى»، ويقول أيضا : «ويبدو أن مسلمى شمال أفريقيا نقلوا بضائع الشرق إلى بلاد المغرب وربما إلى بلاد الأندلس»[٢٣٩] «فربطوا توابل الشرق وحريره

٢٣٠- طبقات الإباضية ج١ ورقة ٢٦ .

٢٣١- أبو غانم الصفرى : المدونة ورقة ٤ مخطوط .

٢٣٢- مجهول : كتاب الاستبصار ص١٧٨ .

٢٣٣- البكرى : ص٦٦ .

٢٣٤- الأزهار الرياضية ج٢ ص٨٦ .

٢٣٥- لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٩٣ .

٢٣٦- ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص١١ وما بعدها .

٢٣٧- القوى البحرية والتجارية ص٢٧٥ .

٢٣٨- نفسه ص١٨٥ .

٢٣٩- نفسه ص١٨٩ .

ومصنوعاته برقيق الغرب وحديده وخشبه وزيت زيتونه»[٢٤٠]. ومما يحملنا على تصديق لويس ما عرف عن اتجار الأغالبة في الرقيق الأبيض والأسود حتى أصبح من أهم موارد التجارة العالمية ، فكانوا يجلبون من الأندلس «الخدم الصقالبة والجواري الأندلسيات»[٢٤١]. وفضلا عن ذلك فقد جلبوا جلود الخز والوبر والمصطكى والمرجان من بلاد الأندلس للاتجار بها[٢٤٢].

أما الرقيق الأسود الذى شاع فى المجتمع الأغلبى ولعب فى بعض الأحيان دوراً هاما فى النواحى السياسية فكان يجلب من بلاد السودان التى «كانت وما يحاذيها من نواحى البحر خاضعة للأدارسة»[٢٤٣]، ويذكر الإصطخرى[٢٤٤] أن هؤلاء السودان «ليسوا بنوبة و لا بزنج ولا من البجة إلا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع وأصفى».

وإذا كان الاتصال التجارى بين الأغالبة والأمويين فى الأندلس قاصرا فى المحل الأول على استيراد الرقيق الأبيض . وبينهم وبين الأدارسة مقصورا على جلب الرقيق الأسود ، فلاشك فى أن اتصالهم بالمدراريين والرستميين كان للحصول على الذهب والفضة . فالمعروف أن سجلماسة كانت غنية بالفضة، ومعدن الذهب الذى يوجد بديار الملثمين بين سجلماسة والسودان [٢٤٥]، ولم يكن من الممكن الوصول إليه إلا عن طريق المدراريين لصعوبة الطرق إلى تلك الجهات ووعورتها[٢٤٧]، لذلك حرص الأغالبة على تمهيد طرق القوافل[٢٤٨] لتسهيل التجارة مع هذه البلاد.

٢٤٠- نفسه ص٢٥٢ .

٢٤١- الاصطخرى : المسالك والممالك ص٣٤ .

٢٤٢- نفس المصدر والصفحة .

٢٤٣- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٩ .

٢٤٤- المسالك والممالك ص٣٤ .

٢٤٥- المقدسى : أحسن التقاسيم ص٢٣٠ .

٢٤٦- نفس المصدر والصفحة.

٢٤٧- الإصطخرى : المسالك والممالك ص٣٤ .

٢٤٨- الإدريسى : صفة المغرب ص١٢١ ، Vonderheyden : Op. cit. cit. p. 2 .

جـ- العلاقات الثقافية

إذا كان الطابع العدائي في الناحية السياسية قد انعكس على العلاقات الاقتصادية بين الأغالبة ودول المغرب والأندلس ، فكانت الصلات التجارية بينهما في أضيق الحدود، فإن ذلك لم يحل دون ازدهار الحركة الثقافية بين القيروان وقرطبة وفاس .

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية لاتمدنا بأدنى إشارة عن وجود علاقات ثقافية بين الأغالبة ودولتي الخوارج الصفرية والإباضية في سجلماسة وتاهرت. ويبدو أن الحياة الثقافية لم تزدهر في سجلماسة التي ظلت فترة طويلة بمثابة مجمع للخوارج الصفرية يضربون فيه خيامهم، ثم تحولت إلى ما يمكن أن نسميه بقرية صحراوية، وحين اتخذت شكل المدينة في عهد اليسع بن أبي القاسم انصرف اهتمام حكامها إلى إلى الشؤون التجارية ونشر المذهب الصفري[٢٤٩].

أما تاهرت فلا شك في مكانتها العلمية والثقافية في عهد الرستميين على الرغم من الاضطرابات والقلاقل الكثيرة التي سادتها، ففي اعتقادنا أن ما حدث من انقسامات وخلافات في دولة الرستميين كانت ترجع أحيانا إلى أسباب فكرية ومذهبية [٢٥٠]، فهي لذلك مظهر من مظاهر الازدهار الثقافي ، يشهد على ذلك ما أثير من خلافات بسبب مسألة الإمامة وشرعيتها ، وما جرى من حروب مع الواصلية «المعتزلة». وحسبنا أن البيت الرستمي «كان بيت العلوم، جامعا بفنونها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرائض»[٢٥١]، فالإمام عبد الوهاب نسخ له أصحابه بالمشرق من الكتب والمخطوطات ما قيمته ألف دينار[٢٥٢]، وكان الناس ينشدون العلم من ابنه الإمام أفلح قبل بلوغه مبلغ الرشد [٢٥٣]، أما الإمام محمد بن أفلح فقد كانت له تواليف متعددة بلغت أربعين كتابا[٢٥٤] كما شغف الإمام أبي حاتم يوسف محمد بالعلوم والفنون وهام بها حبا[٢٥٥] .

٢٤٩- سعد زغلول عبد الحميد : المغرب العربي ص٤٠١ ، ٤٠٢ .

٢٥٠- الدرجيني : طبقات الإباضية ج١ ورقة ٢٧ .

٢٥١- نفسه ورقة ٢٥ .

٢٥٢- نفسه ورقة ٢٦ .

٢٥٣- الشماخي : سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص٢٣١ .

٢٥٤- نفسه ص٢٢٢ .

٢٥٥- نفسه ص٢٨٢ .

وكان من الطبيعى أن تنعدم الروابط والصلات الثقافية بين تاهرت والقيروان، ويعزو جوتيه[٢٥٦] ذلك إلى جهل بنى رستم بالثقافة العربية، فلم يتسن لهم الاتصال بمدرسة القيروان المزدهرة . وفى اعتقادنا أن الاختلافات المذهبية كانت السبب الأساسى فى ندرة الاتصال الفكرى بين الدولتين، فمدرسة القيروان نهلت من أصول سنية مالكية ، والمالكية أشد المذاهب بغضا للنحل المتطرفة [٢٥٧]، بينما انتمى الرستميون إلى مذهب الخوارج الإباضية الذى يقول بتكفير مخالفيه [٢٥٨].

ومن ثم فلا غرابة فيما قام به سحنون - شيخ المالكية بالقيروان- من طرد طائفة الخوارج الإباضية من جامع القيروان بعد أن كانوا «يجتمعون فيه، ويتظاهرون بمذهبهم»[٢٥٩].

ويذكر الدباغ[٢٦٠] أن أحد سكان تاهرت ويدعى بكر بن حماد- وكان شاعرا- سمع من سحنون فى القيروان، وكذلك من عون بن يوسف، ثم رحل إلى البصرة عام ٢١٧هـ وعاد إلى القيروان، ويخيل إلينا أنه كان متخفيا مستتراً ، فلما كشف أمره، وسعى به عند الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد فر هاربا إلى تاهرت .

مما سبق يتضح وهن العلاقات الثقافية بين الطرفين بعكس ما كانت عليه علاقات الأغالبة مع البلدان الإسلامية الأخرى كمصر والأندلس والمغرب الأقصى ، حيث طغت وحدة الثقافة العربية الإسلامية على الخلافات السياسية والمذهبية.

فلم يحل العداء السياسى دون الاتصال الحضارى بين فاس والقيروان [٢٦١]، كذلك لم تؤد الخلافات المذهبية إلى نفس النتيجة، فبالرغم من أن إدريس بن عبد الله كان علويا ، وأن الدولة

٢٥٦- Les Siecles obscurs, p. 304 .

٢٥٧- رياض النفوس ج١ المقدمة ص١٣ .

٢٥٨- عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص١٠٣ .

٢٥٩- أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص١٠٢ ، الدباغ : ج٢ ص٥٥ ، ابن أبى دينار : ص٤٨ .

٢٦٠- معالم الإيمان ج٢ ص١٩٢ .

٢٦١- Vonderheyden : Op. cit. p. 265 .

الإدريسية كانت أشبه بملكية وراثية ، إلا أن مذهبها تمثل فى مزيج من التشيع الزيد والاعتزال . لذلك عرفوا بالتسامح والاعتدال ، ولم يكونوا قط شيعة إثنا عشرية كما ذهب بعض الدارسين المحدثين(٢٦٢) .

وعلى ذلك أسهمت فاس بنصيب كبير فى حضارة المغرب الإسلامى وعملت على نشر الإسلام والعروبة ومحاربة العقائد الشاذة فى المغرب الأقصى ، يؤكد ذلك ما قام به الأدارسة من فتوح بلغت ساحل المحيط انتهت باتمام إسلام المغرب، وفى إحاطة إدريس الثانى نفسه بحرس من العرب ، واعتماده عليهم فى الإدارة والقضاء ما ينم عن عزمه على نشر العروبة فى الدولة الناشئة إلى جانب الإسلام(٢٦٣) ، وأصبحت مدينة فاس فى عهده ليست مجرد حاضرة للمغرب الأقصى، بل صارت «دار علم وفقه وصلاح»(٢٦٤).

وجدير بالذكر أن موقع دولة الأدارسة الجغرافى أثر إلى حد كبير فى اتجاهاتها الثقافية ، فوقوعها بين إفريقية والأندلس ، وانقسام عاصمتها إلى شقين قروى وأندلسى، طبع حضارتها بخصائص حضارة القيروان وقرطبة (٢٦٥)، وإن كان من الثابت أن أثر القيروان كان أقوى من أثر الأندلس (٢٦٦). والحق أن فاس كانت تأخذ أكثر ما تعطى فى مضمار الثقافة والفكر، ولم تترك أثراً يذكر فى مدرسة القيروان ، فالمعروف أن الطرز العباسية فى الفن وجدت طريقها إلى بلاد الأدارسة عبر القيروان (٢٦٧) ، وقامت القيروان بدور الوسيط بين الشرق والمغرب الأقصى(٢٦٨)، وظهر أثر ذلك واضحا فيما شيده الأدارسة من منشآت : فقد استخدموا الطوب الأحمر فى إقامة الحصون كما كان يفعل الأغالبة، وليس من شك فى أن القبة نصف الدائرية

٢٦٢- أنظر : سعد زغلول عبد الحميد . المغرب العربى ص٤٠٨ .

٢٦٣- القرطاس ص١٣ ، ١٤ .

٢٦٤- مجهول : تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والأندلسيين ورقة ٥٣ .

٢٦٥- Marcais : Op. cit. p. 147 .

٢٦٦- حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٤٤٨ .

٢٦٧- Brunscvig : Op. cit. p. 24.

٢٦٨- السلاوى : الاستقصاء ج١ ص١٤٨ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٧٠ .

لمئذنة مسجد فاس تنتمى إلى طراز مدرسة القيروان فى الفن [٢٦٩]، كما يلاحظ أن جدران مدينة البصرة[٢٧٠] بالمغرب الأقصى بنيت على النسق العباسى[٢٧١] الذى وصل إلى المغرب الأقصى عن طريق القيروان، ولا غرابة فى ذلك إذا علمنا أن حوالى ثلاثمائة أسرة هاجرت من إفريقية ، وأقام لهم إدريس الثانى ربض القرويين بمدينة فاس، ونقلوا معهم أساليب حياتهم التى ألفوها فى إفريقية ، وظلوا يحتفظون بها فى ربضهم المستقل [٢٧٢]، ومما ساعد على انتشار هذه الأساليب فى مجتمع الأدارسة ما تمتع به العرب من مكانة مرموقة فى دولة إدريس الثانى وهيمنتهم على مصائرها [٢٧٣].

ومن المؤكد أن إفريقية لم تتأثر فى قليل أو كثير بالمظاهر الحضارية الإدريسية ، ويعزى ذلك إلى البون الشاسع بين الدولتين فى هذا المضمار وإلى عدم وفود رعايا الأدارسة إلى القيروان للدراسة على علمائها وفقهائها ، كما كان الحال بالنسبة للأندلسيين . وعلى ذلك فلم يقدر للمؤثرات الإدريسية التسرب خارج الحدود اللهم إلا إلى ديار الملثمين ، ولم تنافس الأندلس وإفريقية فى المجال الحضارى، بل وقفت حيرى بين تلك المدرستين الراقيتين[٢٧٤] تتلقى عنهما المؤثرات .

ومن المعروف أن بلاد الأندلس فى ذلك الحين شهدت تقدما حضاريا ملموسا ، وأخذت قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الأموى تزدهر من الناحية العمرانية[٢٧٥] والفكرية، وأخذت المؤثرات الشرقية تتسرب إلى بلاد الأندلس بكافة جوانبها فى الفن والشعر والأدب والموسيقى وأنماط السلوك، ولايخفى الدور الذى لعبه الحسن بن نافع الشهير بزرياب فى هذا الصدد[٢٧٦].

٢٦٩- Brunschving . Op. cit . p. 24 .

٢٧٠- هى مدينة واسعة تقع بحذاء جزيرة جبل طارق ، وتبعد عنها بمقدار اثنى عشر فرسخا . أنظر : الإصطخرى : المسالك ص٣٤ .

٢٧١- Terrasse : Op. cit. p. 214 .

٢٧٢- البكرى : المغرب ص١٢٤ .

٢٧٣- ابن أبى زرع : القرطاس ص١٣ ، العبر ج٤ ص٧ .

٢٧٤- حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٧١ .

٢٧٥- المقرى: نفح الطيب ج٢ ص٨٤ .

ولم يمنع العداء السياسى بين إفريقية والأندلس من التقاء مدرستى القيروان وقرطبة وحدوث التأثير المتبادل فى المجتمعين التونسى والأندلسى ، فقد لعبت القيروان وقرطبة- على تباعدهما- دورا طليعيًا فى مضمار الحضارة العربية، فغدتا بمثابة مشعلين لهذه الحضارة فى غرب الدولة الإسلامية (٢٧٧).

ولم يكن هناك مناص للالتقاء الفكرى والثقافى بين البلدين نتيجة مرور الحجاج الأندلسيين بإفريقية فى طريقهم إلى مكة (٧٨٢)، ولاشك أن ازدهار القيروان شجع هؤلاء الحجاج على التزود من مناهلها العلمية، وكثيرا ما استقروا بها طلبًا للعلم على أيدى أئمتها وفقهائها(٢٧٩) فى طريق عودتهم إلى الأندلس ، وساعد على ذلك التجانس الفكرى بين الثقافتين ، فقد نهلا من معين واحد هو فقه مالك(٨٠٢) الذى الذى كان دعامة الحياة العقلية فى إفريقية والأندلس ، ومصر حتى قدوم الشافعى (٢٨١).

فكما ذاعت مدونة سحنون فى إفريقية ، تعلق الأندلسيون بالواضحة لابن حبيب ، والعتبية

٢٧٧- Gautier : les Siecles obscurs . p. 259 .

٢٧٨- ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج٢ ص١٨ .

Idris : Op. cit. p. 125 .

٢٧٩- ابن الفرضى : نفس المصدر والصفحة .

٢٨٠- يرجع ذيوع مذهب مالك فى الأندلس إلى اتصال الأندلسيين المباشر بأهل الحجاز وتتلمذ بعض فقهائهم على مالك نفسه مثل يحيى الليثى الذى سماه مالك «عاقل الأندلس» (أنظر نفح الطيب ج٢ ص٢١٧) . وقد أقبل أهل الأندلس على فقه مالك لوضوحه ورسوخه وتحديده استعمال الرأى والقياس، الأمر الذى يتلاءم مع عقليتهم.

(أنظر : ابن خلدون : المقدمة ص٥٠) ويضيف الدكتور مؤنس إلى ذلك عاملا سياسيًا يكمن فى ميل مالك للأمويين وسخطه على بنى العباس ، الأمر الذى جعل الأندلسيين يعتبرون المالكية «مذهبا قوميا ، ورأيًا سياسيًا ارتبط مصيره بمصير البيت الأموى الأندلسى الحاكم» (أنظر ، صورة الأندلس ص٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) .

٢٨١- مما يؤكد ذلك تنقل الفقهاء المالكية بين الفسطاط والقيروان وقرطبة يدرسون ويدرسون أصول الفقه المالكى، فيحيى بن يحيى الليثى الذى يرجع إليه الفضل فى نقل المذهب إلى الأندلس أقام بمصر مدة سمع فيها من الليث بن سعد وفقه بفقه . أنظر : نفح الطيب ص٢١٧ .

للعتبي[٢٨٢]، بل إن المدونة حظيت بتقدير الأندلسيين فعكفوا على روايتها ودراستها[٢٨٣] كما كانت العتبية معروفة عند أهل القيروان [٢٨٤]. واحتل فقهاء المالكية بالأندلس مكانة مرموقة لدى الناس، واحتكروا لفترة طويلة مراكز القضاء والفتيا ، واشتهروا بزعامتهم الشعبية[٢٨٥] كما كان الحال بإفريقية .

ومن المؤكد أن ازدهار مدرسة المالكية بالقيروان أغرى طلاب الأندلس بالنزوح إليها للدراسة على فقهائها ومحدثيها [٢٨٦]، فأحمد بن سعيد بن حزم الذى اشتهر بالآثار والسنن وجمع الحديث تتلمذ فى القيروان على أحمد بن نصر ومحمد بن محمد اللبان واسحاق بن ابراهيم وغيرهم من أساتذة تونس [٢٨٧]، وأحمد بن فتح بن عبدالله لم يحدث بالأندلس إلا بعد سماعه من عبدالله بن أبى زيد بالقيروان [٢٨٨].

وقد حضر حلقات سحنون فى الفقه المالكى الكثيرون من طلاب العلم الأندلسيين ، فعبد الله بن الفرج الذى تولى صلاة قرطبة سمع منه[٢٨٩]، وكذلك بقى بن مخلد القرطبى[٢٩٠] ، ومحمد بن يوسف بن مطروح [٢٩١]، وعبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى- الذى برع فى النحو إلى جانب الفقه [٢٩٢]- وعبدالله بن محمد بن أبى الوليد[٢٩٣] وغيرهم .

٢٨٢- ابن خلدون : المقدمة ص٤٤٩ ، ٤٥٠ .

٢٨٣- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج٢ ص١٧٢ .

٢٨٤- نفسه ص١٨٢ .

٢٨٥- نفح الطيب ج٢ ص٢١٧ .

٢٨٦- الحميدى : جذوة المقتبس ص١٤١ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 126

٢٨٧- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج١ ص٥٥ .

٢٨٨- الحميدى : المرجع السابق ص١٤١ .

٢٨٩- القاضى عياض : ترتيب المدارك القسم الأول من ج٢ ورقة ١٣٢ .

٢٩٠- ابن الفرضى : ج١ ص١٠٧ .

٢٩١- نفسه : ج٢ ص١١ .

٢٩٢- السيوطى : بغية الوعاة ج٢ ص٧١ .

٢٩٣- جذوة المقتبس ص٢٤٩ .

واجتذبت مكانة سحنون وغيره من أعلام المالكية بعض الاندلسيين لدرجة آثروا معها الاستيطان بإفريقية وهجروا بلادهم، كمحمد بن عامر القيسى[٢٩٤] ، ويحيى بن عمر [٢٩٥]. ونبغ من طلاب الأندلس فى إفريقية الكثيرون ممن ساهموا بجهودهم فى تقدم الدراسات الفقهية، وبشير أبو العرب[٢٩٦] تميم إلى أن منهم من ناقش سحنون وعاب عليه رأيه فى بعض المسائل، وجادله، وقارعه الحجة بالحجة ، ومع ذلك حظى سحنون بمكانة مرموقة لدى الأندلسيين [٢٩٧]، فلما مات «كانوا يبكونه ، ويضربون خدودهم كالنساء» [٢٩٨]. وخلف سحنون ابنه محمد بن سحنون وابن غافق وأحمد بن علول ومحمد بن عبدوس ، وقد نالوا جميعا إقبال الأندلسيين على مجالسهم[٢٩٩].

والحق أن الأندلسيين بإفريقية لم يكونوا طلبة فقط يتلقون الدروس على فقهائها ، بل منهم تولى مهام التدريس وحظى بحب طلبته ومريديه، ومن هؤلاء أبو عبدالله محمد بن عبد الملك بن فرج القرطبى ، الذى حدث بالمغرب وصنف السنن [٣٠٠]، وإبراهيم بن زرعة الذى روى عنه سحنون، وظل يدرس بإفريقية حتى وفاته عام ٢١٢هـ [٣٠١]، ومحمد بن محمد بن خيرون الذى قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية ، واجتمع إليه الناس، ورحل إليه أهل القيروان من كل صوب [٣٠٢]، ويحيى بن عمر الذى استوطن سوسة، ودرس بجامع القيروان حتى أن العامة والخاصة لم يرووا الموطأ والمدونة إلا عنه [٣٠٣].

٢٩٤- ابن الفرضى : ج٢ ص٩ .

٢٩٥- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص١٣٤ .

٢٩٦- طبقات علماء إفريقية ص١٠٤ .

٢٩٧- البيان المغرب ج٢ ص١٦٥ .

٢٩٨- معالم الإيمان ج٢ ص٦٧ .

٢٩٩- نفسه ص٨٧ ، ٩٠ .

٣٠٠- نفح الطيب ج٢ ص٦ .

٣٠١- تاريخ العلماء والرواة للعالم بالأندلس ج١ ص١٦ .

٣٠٢- نفسه ج٢ ص١١٣ .

٣٠٣- معالم الإيمان ج١ ص١٥٧ ، ١٥٨ .

ومن ناحية أخرى فإن الكثيرين من فقهاء القيروان وعلمائها انتقلوا إلى الأندلس ، وقاموا بالتدريس فى مساجدها ، ومن هؤلاء أحمد بن سليمان الذى أقام ببجاية يدرس الفقه حتى توفى عام ٢٩٦هـ [٣٠٤]، وكذلك عبدالله بن محمد القيروانى الذى طاف كثيراً من كور الأندلس حتى استقر بإشبيلية [٣٠٥].

ولم يكن الاتصال الثقافى بين الأغالبة والأندلسيين قاصراً على الجانب الفكرى فحسب[٣٠٦]، بل ظهرت ثماره واضحة فى مجال العمارة والفنون، فقد أسهم الأندلسيون فى تشييد الكثير من المنشآت الحربية والدينية فى إفريقية ، فحين شرع الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبى فى إنشاء قلعة مدينة تونس عام ٢٦٢هـ استعان فى بنائها برجال من الأندلس [٣٠٧]، بل إن أحد أثرياء الأندلس ويدعى محمد بن خيرون المعافرى أقام بالقيروان مسجدا عام ٢٥٢هـ عرف «بالمسجد ذى الأبواب الثلاثة» على نفقته الخاصة [٣٠٨]. ولايخفى أن الطرز الأغلبية فى العمارة والفنون قد أثرت فى نظيرتها بالأندلس إلى أبعد الحدود ، فما حدث من استخدام الأندلسيين الطوب الأحمر فى إقامة مبانيهم إنما هو من أثر التقاليد الأغلبية فى العمارة، ويشير برونشويج[٣٠٩] إلى أن مسجد قرطبة بعد توسيعه قد تأثر بالأنماط الفنية بالقيروان، كذلك تأثر عبد الرحمن الناصر فى تشييده قصر الزهراء بما اتبعه أمراء الأغالبة فى إقامة قصورهم ، وقد درج الأمراء الأغالبة على الاقامة فى معسكرات خارج القيروان[٣١٠] عبارة عن قصور محاطة بالأسوار[٣١١] طلبا للأمن والراحة ، واحتذى الناصر حذوهم ليسلم من الأخطار الداخلية فى قرطبة فأسس قصر الزهراء على غرار القصور الأغلبية [٣١٢].

٣٠٤- ابن الفرضى : المرجع السابق ج١ ص٧٤ .

٣٠٥- جذوة المقتبس ص٢٥١ .

٣٠٦- Vonderheyden : Op. cit. p. 267 .

٣٠٧- البيان المغرب ج١ ص١٥٤ .

٣٠٨- نفسه ص١٥٠ ، Vonderheyden : Op. cit . p. 267 .

٣٠٩- La Tunisie danse l'haut moyen age p. 24 .

٣١٠- الإصطخرى : المسالك والممالك ص٣٤ .

٣١١- اليعقوبى : البلدان ص٣٤٨ .

٣١٢- Terrasse : L'Art Hispano - Mauresque p. 83 .

وتأثرت العمارة الأندلسية بنظام العقود الذى يعد من سمات التقاليد الأغلبية [٣١٣]، هذا فضلا عن تأثر الخزف الأندلسى بنظيره الأغلبى بدرجة واضحة[٣١٤].

* * *

٣١٣- Ibid . p. 401 .

وقد ذكر الدكتور أحمد فكرى أن زيادة الله هو أول من أنشأ تلك الحلية على باب مقصورة مسجد القيروان، ثم شاع استخدامها فى المغرب والأندلس وظهرت على أبواب المساجد ومداخل القصور ، وقد حفل مسجد قرطبة بإطارات مستطيلة منها لا تزال زاهية المنظر، وامتلأت الفراغات فيها بزخارف لاتستقر عليها العين من كثرة تعددها . أنظر : جامع القيروان ص٢٤ .

٣١٤- Terrasse : Op. cit. p. 177 .



الباب الرابع
الأغالبة والعالم المسيحى

١- العلاقات السياسية

أولا : الأغالبة والبيزنطيون :

طرد البيزنطيون من المغرب نهائيًا فى عام ٨٩هـ على يد موسى بن نصير[١] واستقرت الأمور للعرب، ودخلت البلاد مرحلة جديدة فى ظل الإسلام والحضارة العربية. ولم يكن طرد البيزنطيين من المغرب خاتمة للعداوة التقليدية بينهم وبين العرب ، بل دخلت هذه العلاقات فى طور جديد يتمثل فى الإغارات المتبادلة التى شنها البيزنطيون على الشواطىء المغربية، وكان عرب إفريقية بدورهم يقومون بإغارات مماثلة على الجزر الخاضعة للنفوذ البيزنطى فى البحر المتوسط، ولايخفى أن البحر المتوسط كان فى ذلك الحين بحيرة بيزنطية[٢].

ويبدو أن ما درج عليه الأمويون بالمغرب من الاهتمام بالنشاط البحرى جاء نتيجة للتهديد البيزنطى، ففى عهد عبدالملك بن مروان أقام عامله حسان بن النعمان دار صناعة بتونس[٣] ، ولم يدخر ولاة إفريقية الأمويين وسعا فى الإغارة على الجزر البيزنطية، فتعرضت جزيرة صقلية للإغارات فى السنوات ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ هـ [٤]، كما أغاروا على سردينية عام ١١٥هـ .

غير أن هذا النشاط البحرى انحسر بعد سقوط الخلافة الأموية، فلم يحفل ولاة إفريقية من قبل العباسيين بشؤون البحر المتوسط لما شغلت به الخلافة من مشاكل فى الشرق، على حين زاد

١- فتوح البلدان ص٢٧٢ ، نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ١٠ .

٢- حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٤ عدد ١ ص٤٥ .

٣- ابن خلدون : المقدمة ص٢٣ .

٤- المكتبة الصقلية : ج٢ ص٤٢٦ .

نشاطها فى الخليج العربى وبحار الهند ، هذا فضلا عن انشغال الولاة بثورات البربر[٥]. وليس من شك فى أن البيزنطيين إذ ذاك وجدوا الفرصة ملائمة ليتحولوا من الدفاع إلى الهجوم على الشواطىء المغربية [٦]، ويبدو أن إغاراتهم كانت من الكثرة والخطورة بحيث جعلت التجارة بين مصر وإفريقية تتحول عن الطريق الساحلى إلى المسالك الداخلية [٧]، بل اضطر بعض الولاة العرب إلى مهادنة البيزنطيين بتقديم الهدايا والألطاف اتقاء لشرهم . ولما لم تفلح جهود الولاة فى ردع المغيرين ، عمد المجاهدون من النساك والصالحين إلى إقامة الرباطات والمحارس على طول ساحل البلاد ، وشكلوا خط دفاع قوى حال دون توغل الأعداء فى الداخل طلبا للغنيمة والسبى[٨].

وكان قيام دولة بنى الأغلب فى إفريقية عام ١٨٤هـ (٨٠٠م) بداية تحول فى تاريخ العلاقات المغربية البيزنطية، فتسنى للبلاد التمتع بالاستقرار السياسى الذى حرمت منه طويلا، وأصبح الولاة قادرين ليس فقط على صد غارات البيزنطيين ، بل والقيام بحملات مضادة على مراكزهم البحرية والاستيلاء عليها. فبعد أن حصن إبراهيم بن الأغلب سواحل الإمارة بإقامة سلسلة من الرباطات فيما بين طبرقة وطرابلس، شرع فى اتخاذ سياسة الهجوم[٩] فأغار فى عام ١٨٩هـ (٨٠٥م) على البلوبونيز ، وساعد الصقالبة فى حصار مدينة باتراس تنفيذا لمخطط وضعه العباسيون للتضيق على القسطنطينية براً وبحراً [١٠]. وفى نفس العام عقدت معاهدة بين إبراهيم بن الأغلب وقسطنطين حاكم صقلية مدتها عشر سنوات وهى دليل على تراجع فى خطط البيزنطيين نحو إفريقية ، وتوقف سياستهم الهجومية ، إحساسا منهم بقوة الحكم الجديد فى البلاد. ونفذ إبراهيم بن الأغلب شروط المعاهدة ، وكف من جانبه

٥- المكتبة الصقلية : ج٢ ص٤٢٦ ، فازيليف : العرب والروم ص٦٤ .

٦- رياض النفوس ص٣٤٨ .

٧- لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٦٥ .

٨- المالكى : المرجع السابق ص٣٤٨ ، ٣٩٤ ، . Idris : Op. cit. p. 293

٩- Vonderheyden : Op. cit. p. 275 .

١٠- Setton : On the raids of the Moslms in the Aegan . P. 311 ,
العرينى : الدولة البيزنطية ص٢٣٥ .

عن الإغارة على الجزر والسواحل البيزنطية ، بسبب وطأة المشاكل الداخلية التى صحبت قيام دولته ، كما احترم البيزنطيون الاتفاق ، وتوقفت إغاراتهم على السواحل المغربية، فتمتعت البلاد بالأمن والهدوء، وشهدت صقلية فترة سلام لم تعرفها من قبل (١١).

واستؤنفت سياسة المسالمة فى عهد أبى العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب الذى جدد المعاهدة التى عقدها والده من قبل مع حاكم صقلية البيزنطى فى عام ١٩٨هـ (١٢).

وظلت هذه السياسة سائدة حتى أوائل سنى حكم زيادة الله الأول، فيقول ابن الآبار(١٣) أن «صاحب القسطنطينية فاوض الأمير الأغلبى لشراء عمودى محراب جامع القيروان». ولكن لم يطل أمد السلام بين الأغالبة والبيزنطيين، إذ يبدو أن تفاقم الثورات فى إفريقية شجع البيزنطيين على معاودة العدوان، الأمر الذى دفع زيادة الله إلى إعداد الأساطيل للإغارة على السواحل والجزر التابعة لهم. ففى عام ٢٠٤هـ بعث بقائده محمد بن الأغلب على رأس أسطول، الحق الضرر بالسواحل الصقلية ، وعاد محملا بالغنائم والأسلاب (١٤)، كما أنفذ أسطولا آخر لغزو جزيرة سردينية لكنه عاد مهزومًا (١٥). وبالرغم من تحصين زيادة الله للشواطىء الإفريقية، عن طريق إقامة القلاع والمحارس «كقصر زياد»(١٦) وربض «القصر الكبير» (١٧)، فإن ذلك لم يحل دون استمرار تهديدات البيزنطيين . ففى سنة ٢١٢هـ شن «فيمى» قائد أسطول صقلية- بتحريض من الإمبراطور - غارة على شواطىء إفريقية ، وتمكن من اختطاف عدد من التجار المغاربة(١٨).

١١- Bury : Op. cit . p. 295 .

١٢- Loc. Cit .

١٣- الحلة السيراء ص٢٥٢ .

١٤- المكتبة الصقلية ج٢ ص٣٣١ .

١٥- الكامل ج٥ ص١٨٥ .

١٦- رياض النفوس ص٣٤٧ .

١٧- نفسه ص٢٢٦ .

١٨- الكامل ج٥ ص١٨١ ، Bury : Op. cit. p. 296 .

هذه الإغارات المتبادلة تشير إلى نقيض ما يذهب إليه أماري من مراعاة الطرفين الأغلبي والبيزنطي اتفاقيات السلام المعقودة بينهما، فقد كانت الإغارات مستمرة بينهم وبين زيادة الله الأول، وكانت السفن البيزنطية من ناحيتها تخرج من مراسي صقلية متوجهة إلى سواحل إفريقية ، فلا تنصرف إلا بفضل حماة السواحل الزاهدين والنساك القابعين في الرباطات . ونادرا ما سنحت الفرصة لزيادة الله كيما يقوم بهجمات مضادة على القواعد البيزنطية في البحر المتوسط، وكان عليه كي يقطع دابر هذه الإغارات أن يقوم بغزو شامل لصقلية ؛ وتسنى له تحقيق ذلك بعد تخلصه من متاعبه الداخلية .

ولاجدال في أن مشاكل الدولة البيزنطية، وسياستها الفاشلة في صقلية شجعت الأمير على الاضطلاع بمهمته بنجاح ، إذ أن الحروب الكثيرة التي خاضتها بيزنطة في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، والثورات المتعددة ضد الأباطرة ، وفساد النظام الإداري، واندلاع القلاقل الدينية، والصراع مع البابوية حول السيادة [٢٠]، كل ذلك أضعف من الدولة ، فلم تتمكن من متابعة مسؤولياتها بصقلية ، وأضعف مركزها في الغرب . فشارلمان عول على غزو جزيرة صقلية مستعينا بنفر من الأحزاب المعارضة للإمبراطور البيزنطي[٢١]، بينما سقطت كريت في حوزة العرب في عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) [٢٢]، وبسقوطها فقدت بيزنطة قاعدة من أهم قواعدها في شرق البحر المتوسط [٢٣]، وغدت الجزيرة منطلقا للإغارات الإسلامية على سواحل البحر الإيجي [٢٤]. ولم تستطع البحرية البيزنطية المنهارة أن تحافظ على كيان الإمبراطورية في البحار الغربية ، ويعزو بينز[٢٥] هذا الانهيار إلى تراخي الاهتمام بالأسطول نتيجة إغارات

١٩- Storia dei Musulmani di Sicili, vol . I. p. 352 .

٢٠- Mercier : Op. cit. vol. I. p. 277 .

٢١- Bury : op. cit. p. 318 .

٢٢- Runciman . Byzantine Civilisation . p. 120 .

٢٣- Ostrogorsky : History of the Byzantine State. p. 188 .

٢٤- Runciman : Op. cit. p. 121 .

٢٥- الإمبراطورية البيزنطية ص١٨٥ .

العباسيين على ثغور الشام. واستفحل الأمر بسبب ثورة توماس الصقلبى[٢٦] فى وجه الإمبراطور ميخائيل الثانى الذى بلغت الإمبراطورية فى عهده ذروة الضعف ، ومزقتها الحروب الأهلية[٢٧].

وقد تحين الأغالبة كل هذه الفرص وشرعوا فى فتح الجزيرة عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) [٢٨]. وساعدهم على فتحها ما وصلت إليه أحوالها من فساد واضطراب ، ذلك أن العمال البيزنطيين بالجزيرة أسرفوا فى استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان، فأجدبت الأرض الزراعية، وهجرها الفلاحون واشتغلوا بالرعى، كما كسدت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة[٢٩]. وانهارت الأحوال الاجتماعية لما جرت عليه الدولة البيزنطية من نفى المجرمين والمتمردين والمنبوذين إلى الجزيرة، وامتلأت صقلية بجموع من العبيد الذين كثرت أعدادهم بشكل ملحوظ ، كما تداعت مكانة الكنيسة لتخليها عن مهامها الدينية ، وانصرافها إلى المباهج الدنيوية[٣٠]. كل هذه الأحوال سهلت من مهمة الفاتحين ، إذ وجد السكان فى الأغالبة مخلصين لهم ومنقذين . فلا جدال فى أن اضطراب الأحوال السياسية فى صقلية أدى إلى استعانة أحد الثائرين على الإمبراطورية بالأغالبة لفتح الجزيرة.

٢٦- هو أحد رجال الحرس الإمبراطورى ، فر من الخدمة العسكرية بعد ارتكابه جريمة خلقية، واتصل بالخلافة العباسية فآزرته فى الإغارة على حدود الدولة البيزنطية الشرقية بقواته التى كونها من العرب والفرس والقوقازيين ، وانتهز توماس فرصة مصرع الإمبراطور ليو الخامس عام ٨٢٠م ليتجه بأنظاره إلى القسطنطينية وازداد خطره بعد أن نصب نفسه مدافعا عن الأيقونية ، كما أعلن أنه مصلح اجتماعى لإنصاف الفقراء والمظلومين ، فجذب إلى جانبه غالبية سكان آسيا الصغرى، فضلا عن الصقالبة . وحظى توماس بعطف المأمون العباسى ، فأمده بجيش قوى ، وأمر بترسيمه إمبراطورا على يد بطريرك أنطاكية، وفى عام ٨٢١م عول على حصار القسطنطينية بعد أن هزم جيوش ميخائيل الثانى، غير أن حركته لم تنجح لتخلى أنصاره عنه، واستعانة الإمبراطور بأومر تاج خان البلغار ، فلم يجد توماس مناصا من الهرب إلى أركاديا سنة ٨٢٣م، وهناك ضيقت عليه الجيوش الإمبراطورية الخناق ، فقبض عليه وقتل .

أنظر Ostrogorsky : Op. cit. p. 181 ff.

٢٧- Ibid . p. 183 .

٢٨- فازيليف : العرب والروم ص٥١ . Bury : Op. cit. p. 296

٢٩- Scott: Op. cit . vol . I. pp. 3,4 .

٣٠- Amari : Op. cit . vol . I . pp. 362 . ff .

ويجدر بنا أن نعرض للدوافع التى حفزت الأغالبة للقيام بحملتهم المشهورة . يحاول بعض المؤرخين[٣١] الغربيين الحط من شأن الفتح والقول بأنه نوع من القرصنة المنظمة، بل اعتبره بعضهم مجرد حرب توسعية ذات أهداف اقتصادية ، وأنه «لم يكن فتحا منظما بقدر ما كان عملية سلب ونهب» [٣٢]، ويمضى فندرهيدن[٣٣] فى نفس الاتجاه، فينفى عن الفتح صفته الدينية ويبرز العامل الاقتصادى والاستراتيجى - كثراء صقلية، ووفرة خيراتها ، وكثرة سكانها ، وأهمية موقعها - كمغريات أسالت لعاب الفاتحين .

على أن التفسير الموضوعى لهذا الفتح لايمكن أن يتجاهل أمرين على جانب كبير من الأهمية : أولهما أن صقلية كانت قاعدة عدوانية للبيزنطيين يطلقون منها الإغارات على شواطىء إفريقية فتمعن فيها سلبا ونهبا وتخريبا ، وتهدد طرق التجارة مع المشرق ، ومن ثم كان على الأمير الأغلبى أن يعد حملة قوية للاستيلاء على الجزيرة والقضاء على هذا التهديد[٣٤]. كما أن الرغبة فى الجهاد - التى فترت حماستها حتى السنوات الأولى من حكم زيادة الله الأول- ما لبثت أن اشتدت بعد استقرار أحوال الدولة الأغلبية، وأصبح الأمير قادراً على تحقيقها ، ولعل ما نسج حول الحملة إلى صقلية من مناقشات دينية وفقهية ، وما جرى من اختيار قاضى وفقيه[٣٥] قائداً لها ، ما ينهض دليلا على طابعها الجهادى . ولاننسى أن الاضطرابات السياسية فى صقلية كانت الدافع المباشر للحملة الأغلبية ، وتتمثل فى حركة «إيوفيميوس» - قائد الأسطول البيزنطى بصقلية - ومحاولته الانسلاخ بالجزيرة عن كيان الإمبراطورية. وقد اختلفت المصادر الأوروبية فى تفسير هذه الحركة، فاعتبر بعض المؤرخين زعيمها بطلاً قومياً أخذ على كاهله مهمة إحياء الإمبراطورية الرومانية[٣٦]، بينما نظر إليها آخرون على أنها تعبير عن آمال الصقليين فى الخلاص من الحكم البيزنطى وتكوين دولة

٣١- ديومبين : دائرة المعارف الإسلامية- مادة بنى الأغلب مجلد ١ ص٣٢٨ .

٣٢- Marcais : Op. cit. p. 152 .

٣٣- La Berberie Orientale . p. 247 .

٣٤- القوى البحرية والتجارية ص٢٤٩ .

٣٥- ترتيب المدارك ج١ ورقة ٩٥ ، رياض النفوس ص١٨٦ ، ١٨٧ .

٣٦- العرب والروم ص٨٢ .

مستقلة بالجزيرة . ومهما كان الأمر فالذى لاشك فيه أن حركة إيوفيميوس كانت نتيجة طبيعية لمفاسد الإدارة البيزنطية فى الولايات، أو على الأقل الاستقلال بالولايات النائية والانسلاخ بها عن كيان الإمبراطورية.

والمصادر الأوربية تضطرب حين تسرد وقائع هذه الحركة ، بينما تمدنا الرواية العربية بتفاصيل مقبولة، فيذكر ابن الأثير[٣٧] أن الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى عين شخصا يدعى قسطنطين بطريقا للجزيرة سنة ٢١١هـ (٨٢٦م) ، واتخذ قسطنطين هذا من إيوفيميوس «فيمى»- حسبما يقول ابن الأثير- قائداً للأسطول ، لما عرف عنه من شجاعة وجرأة، ثم حدث ما أثار غضب الإمبراطور على قائد الأسطول[٣٨] فأعلن تمرده ، واتخذ من مدينة سرقوسة معقلاً له ولأتباعه ، وحين خف البطريق لقتاله تمكن إيوفيميوس من هزيمته وقتله. غير أن أحد هؤلاء الولاة- ويدعى بلاطه - خرج عليه تأييدا للإمبراطور البيزنطى ، وتمكن من هزيمته ، واقصاه عن سرقوسة ، فغادر إيوفيميوس الجزيرة إلى إفريقية مستنجداً بأمير القيروان ضد خصومه . وعرض إيوفيميوس على زيادة الله فكرة غزو الجزيرة، على أن يكون عامله عليها ، يدفع الجزية ويدين له بالطاعة[٣٩]. لكن سفارة من قبل بطريق صقلية وفدت إلى البلاط الأغلبى تدعو الأمير لاتخاذ موقف الحياد من النزاع القائم فى الجزيرة [٤٠]، فلم يسرع زيادة الله إلى تلبية عروض إيوفيميوس بل عقد مجلسه وطرح القضية على الفقهاء للبت فيها. وتجمع المصادر على وجود اتجاهين متنافرين داخل مجلسه ذاك، أحدهما مثله القاضى أبو محرز ، وقال بالتريث ، والآخر نادى بالتعجيل بإعداد حملة لفتح الجزيرة ، وتزعمه القاضى أسد بن الفرات[٤١] . ويخرج بيورى [٤٢] من موقف أبى محرز باستنتاج ليس ثمة ما ينهض

٣٧- الكامل ج٥ ص١٨٦ ، ١٨٧ ، العرينى : الدولة البيزنطية ص٢٣٦ .

٣٨- يشير فازيليف إلى أن إيوفيميوس اغتصب إحدى الراهبات وتزوجها على كره منها، فاشتكى أهلها للإمبراطور فى القسطنطينية ، فبعث إلى البطريق للتحقيق فى الحادث وأخذ القصاص من قائد الأسطول إذا ما ثبت إدانته. أنظر : العرب والروم ص٦٧ ، ٦٨ .

٣٩- الكامل ج٥ ص١٨٦ .

٤٠- Sott : Op. cit. vol . 2 . p. 11 .

٤١- رياض النفوس ص١٨٦ ، ١٨٧ .

٤٢- Ahistory of the eastern Roman empire. pp. 297 , 98 .

على صحته ، وهو أن أبا محرز لم يتخذ هذا الموقف إلا حفاظًا على حرمة الاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، تلك الاتفاقية التى لم ينقضها الجانب البيزنطى ، ويعنى المعاهدة التى كان أبو العباس عبدالله قد عقدها فى عام ١٩٨هـ (٨١٣م) ، وجددها زيادة الله فى عام ٢٠٨هـ (٨٢٣م) . والواقع أن المراجع لم تشر إلى تجديد اتفاقية عام ١٩٨هـ، بل كثيرا ما أغار البيزنطيون على الشواطىء الإفريقية فى الفترة ما بين عامى ١٩٨، ٢٠٨هـ ، كتلك الإغارة التى قام بها ايوفيميوس قبل خروجه على الإمبراطور وأسر فيها نفراً غير قليل من رعايا الأغالبة[٤٣]. لذلك كان من الطبيعى أن يأخذ زيادة الله برأى أسد بن القرات ، ويعمل على التعجيل بفتح الجزيرة لوضع حد لهذا التهديد. ودب النشاط داخل الرباطات والموانىء الأغلبية استعداداً للقيام بالحملة[٤٤] التى كرس لها زيادة الله كل موارد البلاد[٤٥]، حتى أنه لجأ إلى هدم القبور للاستفادة بأخشابها فى صناعة السفن[٤٦]، وتمكن من حشد سبعين سفينة[٤٧] بميناء سوسة [٤٨]، شحنها بعشرة آلاف راجل وسبعمائة فارس [٤٩]، وأسندت قيادة الحملة إلى القاضى أسد بن الفرات، فاجتمعت له الإدارة والقضاء فى آن واحد[٥٠].

وفى ربيع الأول من عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) ، أقلعت الحملة من ميناء سوسة متجهة إلى صقلية ، وألقت مراسيها بمدينة مازر ، حيث التقت بالجيش البيزنطى[٥١] بقيادة «بلاطة»

٤٣- المالكى ص١٨٦ ، ترتيب المدارك ج١ ورقة ٩٧ .

٤٤- Brunschvig : Op. cit. p. 14 .

٤٥- Vonderheyden . Op. cit. p. 267 .

٤٦- ترتيب المدارك ج٢ ورقة ٤٥ .

٤٧- البيان المغرب ج١ ص١٣٢ . وقد بالغ سكوت فى تقديره لعدد السفن فقال بأنها بلغت مائتى سفينة.

أنظر : The Moorish empire . vol . 2 . p. 12 .

٤٨- ميناء ساحلى بجنوب شرقى تونس ، يقع فى طرف داخل البحر، ويحوطه سور من اللبن .

أنظر : البكرى : المغرب ص٢٥ .

٤٩- البيان المغرب ج١ ص١٣٢ . ويذكر المالكى أن عدد الفرسان بلغ عشرة آلاف

أنظر : رياض النفوس ص١٨٨ .

٥٠- نفسه ص١٨٧ .

٥١- يبالغ المالكى فى تقدير جيش بلاطة فيقول بأنه بلغ مائة وخمسين ألف مقاتل .

أنظر : رياض النفوس ص١٨٨ .

وانتهى اللقاء بهزيمة البيزنطيين وهرب قائدهم [٥٢]، وغنم الأغالبة «السبى والسائمة والكراع»[٥٣]، ومن الجدير بالذكر أن أسداً منع إيوفيميوس وأتباعه من الاشتراك فى المعركة[٥٤]، لهذا لايمكن الأخذ بما ذهب إليه سكوت[٥٥] من أن المدينة استسلمت للمسلمين بفضل أتباع إيوفيميوس . على كل حال ، فبعد هزيمة بلاطة خضع الكثير من الحصون للفاتحين دون عناء[٥٦] مما حدا بزيادة الله أن يبعث للخليفة المأمون يعلمه بفتح الجزيرة[٥٧] قبل أن ترسخ فيها أقدامه .

وبعد سقوط مازر، شرع أسد فى حصار سرقوسة براً وبحراً ، بعد أن أتاه المدد من إفريقية[٥٨]. وقد بادر الإمبراطور ميخائيل الثانى بإرسال أسطول ضخم لفك الحصار عن المدينة، كما أرسل إلى البندقية مناشدا دوقها تقديم المساعدة[٥٩]، وفى ذلك ما يدل على أن الإمبراطور البيزنطى – رغم مشاغله- لم يفتر اهتمامه بالجزيرة . ويبدو أن ما أصاب الجيش الأغلبى بعد ذلك من هزيمة إنما يعزى إلى هذه النجدة من ناحية ، ثم إلى انتشار الطاعون وموت أسد بن الفرات[٦٠] قائد الحملة فى عام ٢١٤هـ من ناحية أخرى. بل إن محمد بن أبى الجوارى– القائد الذى خلف أسد – قرر الانسحاب والعودة إلى إفريقية، فلم تمكنه السفن البيزنطية من تنفيذ خطته [٦١].

٥٢– الكامل ج٥ ص١٨٦ .

٥٣– البيان المغرب ج١ ص١٣٢ .

٥٤– رياض النفوس ص١٨٨، المكتبة الصقليةج١ ص١١٧ .

٥٥– History of the Moorish empire in Europc. vol . 2 . p. 11 .

٥٦– الكامل ج٥ ص١٨٦ .

٥٧– رياض النفوس ص١٨٨ .

٥٨– الكامل ج٥ ص١٨٦ .

٥٩– فازيليف : العرب والروم ص٧٨ .

٦٠– أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص٨٢ .

٦١– الكامل ج٥ ص١٨٦ .

لكن المجاهدين المسلمين واصلوا الفتح، فاستولوا على مدينة، «مينوى» دون مقاومة تذكر، كذلك أسقطوا حصن «جرجنت»، وشجعهم ذلك على الزحف إلى مدينة قصريانه، وضربوا عليها الحصار، وتمكن أهلها من مخادعة إيوفيميوس وأردوه قتيلا . وسارع ميخاذيل الثانى بإرسال الإمدادات لتحول دون سقوط المدينة [٦٢]، غير أن وصول نجدة أندلسية قوامها ثلاثمائة مركب بقيادة إصبغ بن وكيل- - المعروف بفرغلوش- وصلت إلى الجزيرة لتمديد العون للجيش الأغلبى فى الوقت الذى وصلت فيه إمدادات جديدة من إفريقية ، فرجحت كفة الفاتحين، وتمكنوا من استرداد كل ما فقدوه من قلاع وحصون [٦٣].

واصل الجيش الأغلبى انتصاراته فحاصر «بلرم» التى استسلمت فى عام ٢١٦هـ (٨٣١م)، بعد أن طلب حاكمها أن يؤمن على نفسه وماله[٦٤]. وبسقوط بلرم أصبح الاتصال بين المحاربين فى صقلية وإفريقية أمراً ميسوراً ، وبات فى الإمكان نقل المؤن والإمدادات إلى أية بقعة فى الجزيرة، فى مأمن من الأسطول البيزنطى [٦٥].

لم يحاول الإمبراطور تيوفيل[٦٦] أن يعمل على استرداد بلرم [٦٧]، إذ يبدو أنه كان مشغولا بمواجهة حملات الخليفة المأمون على أرمينية سنة ٢١٥هـ(٨٣٠م)[٦٨] فتمكن الأغالبة من مواصلة نشاطهم، وخرجت السرايا من بلرم إلى سائر أنحاء الجزيرة[٦٩]، ففى السنوات ٢١٩،

٦٢- نفسه ص١٨٧ .

٦٣- البيان المغرب ج١ ص١٣٤ ، ١٣٥ . Bury : Op. cit. p. 304 .

٦٤- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٨٧ ، فازيلييف : العرب والروم ص١١٧ .

٦٥- Scott : Op. cit . vol . 2 pp. 22 , 23 .

٦٦- خلف تيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) ميخائيل الثانى فى حكم الإمبراطورية، واشتهر باهتمامه بالثقافة والآداب وخاصة الأدب العربى، ولم يحظ بحب البيزنطيين لإتباعه سياسة اللا أيقونية على الرغم مما عرف عنه من عدل وإنصاف للطبقات الفقيرة. انظر : Ostrogorsky : Op. cit. pp. 183 - 84 .

٦٧- حاول تيوفيل أن يفرغ من مشاكله فى الشرق ليواجه الموقف فى صقلية، فبعد انتصاره فى طرسوس والمصيصة سنة ٨٣١م، عرض على الخليفة المأمون مصالحته نظير رده خمسمائة أسير بيزنطى، كما أرسل وفادة ثانية فى نفس العام مقدما شروطا فى صالح العرب كرده كل ما فتحه من حصون .

أنظر : العرب والروم ص١١٨ ، Bury : Op. cit. p. 259 .

٦٨- Ostrogorsky : Op. cit. p. 185 .

٦٩- Scott: Op. cit. vol . 2 . p. 24 .

٢٢٠ ، ٢٢٢هـ تعرضت قرصيانة لإغارات الأغالبة، كما هاجمت سراياهم طبرمين وسرقوسة وإتنا «جبل النار» ، وقسطيلياسة، فى الوقت الذى تمكن فيه أسطولهم من الاستيلاء على جزيرة قوصرة سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م) [٧٠]، حقيقة أن الأغالبة لم يحرزوا خلال العامين التاليين لسقوط بلرم انتصارات حاسمة [٧١]، إلا أنهم فى الواقع غنموا الكثير من السلاح والمتاع والدواب[٧٢] ولم تعمل الدولة البيزنطية على مواجهة الأحوال المتدهورة فى صقلية إلا عام ٢٢٢هـ (٨٣٧م) [٧٣]. فأعد الإمبراطور تيوفيل جيشا بقيادة ألكسيس موسيلى ؛ لكن لم يكن له أثر يذكر واستدعاه الإمبراطور إلى القسطنطينية[٧٤].

وكان لوفاة الأمير زيادة الله وقع سيء فى نفوس المسلمين، فخبت روحهم ، ووهنت عزيمتهم[٧٥]، لكنهم ما لبثوا أن استردوا رباطة جأشهم بعد تولية الأمير أبى عقال الأغلب الملقب بخزر[٧٦].

وكان من الممكن أن ينتهز تيوفيل فرصة اضطراب أحوال المسلمين فى صقلية ، ويجند حملة لاسترداد الجزيرة ، لولا ما حدث من استيلاء الخليفة المعتصم على عمورية، كما أن أبا عقال سارع بإرسال الإمدادات إلى صقلية ، فتمكن الأغالبة من الاستيلاء على حصن البلوط وأبلاطنون، وقرلون ومرو ، وأغار أسطولهم على أرض قلورية[٧٧]. بينما اشتدت إغارات مسلمى كريت على السواحل البيزنطية، فلم يجد الإمبراطور البيزنطى مخرجا سوى الاتصال بدوق البندقية ولويس التقى الكارولنجى والخليفة الأموى عبد الرحمن الثانى، طالبا العون ضد

٧٠- الكامل ج٥ ص٨٨ .

٧١- العرب والروم ص١١٨ .

٧٢- ابن الأثير ج٥ ص١٨٨ .

٧٣- نفسه ص١٨٩ .

٧٤- العرب والروم ص١٢٣ .

٧٥- ابن الأثير ج٥ ص١٨٩ .

٧٦- تولى أبو عقال (٢٢٣-٢٢٦هـ) الإمارة عقب وفاة زيادة الله ، واتسم عهده بالهدوء فى الداخل، والانتصارات فى الخارج . انظر : البيان المغرب ج١ ص٣٩، العبر ج٤ ص٤٢٨ .

٧٧- أنظر : الأغالبة والفرنجة .

الأغالبة [٧٨]، والعباسيين [٧٩]، وعرب كريت [٨٠]. ولم تتمخض هذه المساعى عن جهد مشترك ضد الأغالبة في صقلية وجنوب إيطاليا [٨١]، فعند وفاة تيوفيل (٢٠ يناير سنة ٨٤٢م) كان الأغالبة قد استولوا على القسم الغربى من صقلية . وما اتخذه ميخائيل الثالث[٨٢]- ابن تيوفيل - من إجراءات دفاعية فى صقلية ، لم يحل دون تقدم الفاتحين ، فقد سقطت مواقع البيزنطيين بالجزيرة الواحد تلو الآخر، حتى أنه فى نهاية حكم ميخائيل لم يبق للبيزنطيين بصقلية سوى سرقوسة وطبرمين[٨٣]. فبعد وفاة أبى عقال عام ٢٢٦هـ، خلفه ابنه أبو العباس محمد (٢٢٦-٢٤٢هـ)، وتمكنت الجيوش الأغلبية فى عهده من فتح مدينة مسكان الحصينة سنة ٢٢٨هـ (٨٤٢م) ، وواصلت تقدمها فى جنوب شرقى الجزيرة، كما فتحت مسينا بفضل مساعدة أسطول من نابلى ، وتمت سيطرة الأغالبة على المضيق بين قلورية وصقلية[٨٤].

ولما عجت إفريقية بالثورات فى أواخر عهد أبى العباس محمد[٨٥]، امتد أثرها إلى صقلية، فاقتصرت أعمال الفاتحين حتى سنة ٢٤٣هـ على شن إغارات متفرقة ليست بذات

٧٨- Brunschvig : Op. cit. p. 16 .

٧٩- Vasiliev : Op. cit. p. 336 .

٨٠- Bury : Op. cit . p. 273 , Hole : Andalus. p. 83 .

٨١- يرى بروفنسال أن فتح عمورية على يد المعتصم لم يكن الدافع إلى سفارات تيوفيل ، ذلك لأنه كان نصرا قصير العمر، فما لبث الموقف العسكرى أن أصبح فى صالح بيزنطة فى آسيا الصغرى ، ويستنتج من إرسال السفارتين الأخيرتين إلى البندقية وآخن فى نفس العام، الذى أرسل فيه سفارة إلى قرطبة، ما يؤكد أن الهدف كان يكمن فى القيام بعمل مشترك ضد الأغالبة .

أنظر : بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص٩٨ ، ٩٩ .

٨٢- ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص٦٧ .

٨٣- Ostrogorosky : op. cit. p. 201 .

٨٤- ابن الأثير : ج٥ ص٢٦٨ .

٨٥- من أهم هذه الثورات : ثورة أبى جعفر أحمد بن الأغلب سنة ٢٣١هـ ، وثورة عامل الزاب محمد بن الأغلب وسالم بن غلبون سنة ٢٣٣هـ، وثورة عمرو بن سليم المعروف بالقويع سنة ٢٣٤هـ.

أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٤٠-١٤٤ .

قيمة[٨٦]، ففى سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠م) أغارت سراياهم على قصريانة ، وفى سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م) تكررت الإغارات على قصريانة فضلا عن قطانية وسرقوسة ونوطس ، وفى سنة ٢٤٣هـ (٨٥٧م) أغاروا على قصريانة وسرقوسة وطبرمين[٨٧].

ولما تحقق الاستقرار للدولة الأغلبية فى إفريقية على يد أبى إبراهيم أحمد بن محمد[٨٨] (٢٤٢-٢٤٩هـ) أحرزت جيوش الفتح نصراً عظيماً فى عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، فقد سقطت قصريانة قاعدة البيزنطيين [٨٩]، وكان لسقوطها وقع شديد فى القسطنطينية ، فأرسل الإمبراطور ميخائيل الثالث أسطولاً كبيراً لحقت به هزيمة كبرى فلاذ بالفرار [٩٠]. وبسقوط قصريانة تقلص النفوذ البيزنطى بصقلية ، إذ لم يعد المنطقة الواقعة حول سرقوسة على الساحل الشرقى، وبعض الجهات الداخلية، بينما استولى الأغالبة على ثلثى الجزيرة تقريبا[٩١]. لكن مناطق النفوذ الأغلبى لم تكن خاضعة لسلطانهم تماما، فقد انتقض سكان كثير من القلاع والحصون خاصة عندما وصلتهم الإمدادات البيزنطية[٩٢].

وتجدد أمل البيزنطيين فى استرداد صقلية عندما تولى باسل الأول[٩٣] العرش سنة ٨٦٧م، فقد كانت الظروف مهيأة تماما ليتفرغ الإمبراطور لمشاكله مع الأغالبة بعد تخلصه من مشاكل الإمبراطورية فى أرمينية، وقهره الروس والبلغار، وتحسن العلاقات مع البندقية وإمبراطور

٨٦- نفسه ص١٤٥ ، ١٤٦ .

٨٧- الكامل ج٥ ص٢٩٠ .

٨٨- خلف أباه أبى العباس محمد بعد موته، وقد تمتعت البلاد فى عهده بالسلام والرخاء، وإليه ينسب توسيع جامع القيروان وإصلاح قنطرة باب أبى الربيع وبناء سورسوسة وإصلاح المسجد الجامع بتونس .

أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٤٧ ، ١٤٨ .

٨٩- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٨ .

٩٠- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٩ ، Scott: Op. cit . vol . 2 . p. 31 .

٩١- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢١٧ .

٩٢- ابن الأثير : المرجع السابق ص٢٩٠ .

٩٣- ينتمى باسل الأول إلى أسرة مقدونية ، وقد نجح فى اعتلاء الحكم بعد موت برداس عم الإمبراطور واغتيال ميخائيل الثالث.

أنظر :. Ostrogorosky : Op. cit. p. 200

الفرنجة[٩٤]. وكان باسل قائداً قديراً ، نجح فى إقرار الأمن فى البلاد ، وراجت تجارة الإمبراطورية فى عهده رواجًا كبيراً ، واسترد سلطة البيزنطيين فى جنوب إيطاليا [٩٥] ، وألحق الهزائم بجيوش الأغالبة هناك، بل هددت أساطيله شواطىء إفريقية ذاتها، الأمر الذى دفع الأمير الأغلبى أبو الغرانيق محمد بن أحمد إلى إنشاء الحصون والمحارس على ساحل إفريقية[٩٦]. ورغم هذا لم يستطع باسل أن يسترد صقلية، وتركت الجزيرة لتلقى مصيرها[٩٧]، وخصوصا بعد استيلاء الأسطول الأغلبى على مالطة سنة ٢٥٥هـ (٨٧٠م) [٩٨]، إذ كسب الأغالبة نفوذا جديدا فى البحر المتوسط [٩٩]، وتأكدت سيطرتهم الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية[١٠٠].

وسقوط سرقوسة سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) دليل على خذلان الإمبراطور فى نضاله مع الأغالبة، ذلك أن الفاتحين بعد الاستيلاء على قصريانة جعلوا من سرقوسة هدفًا لهم، فشرعوا يرسلون الصوائف إليها فى السنوات ٢٤٧، ٢٤٨ و ٢٥٣، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ هـ [١٠١]، بقصد الاستطلاع [١٠٢]. وفى سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧م) - فى عهد الأمير إبراهيم بن أحمد (٢٦١-٢٨٩هـ) تمكن الفاتحون من حصار المدينة براً وبحرا، وهزموا أسطولا بيزنطيًا أرسل لفك الحصار الذى استمر ستة أشهر، ثم سقطت فى النهاية بعد معركة رهيبة قتل فيها عدة آلاف من سكانها، «وأصاب المسلمون فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة من مدائن

٩٤- Vasiliev : Op. cit. vol . I. p. 370 .

٩٥- Runciman : Op. cit. p. 39 .

٩٦- ابن خلدون : العبر ج٤ ص٤٣١ .

٩٧- Runciman : Op. cit. p. 39 .

٩٨- الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ص٨١ .

٩٩- Ostrogorosky : Op . cit . p. 210 .

١٠٠- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢١٧ .

١٠١- الكامل ج٦ ص٢٠ وما بعدها .

١٠٢- البيان المغرب ج١ ص١٥١ ، ١٥٢ ، . Scott : Op. cit. vol . 2 . p.38 .

الشرك»[١٠٣]. ويؤيد المؤرخ البيزنطى تيودوسيوس هذا القول [١٠٤]. وقد أقام المسلمون فى سرقوسة شهرين بعد الفتح هدموها، وجعلوها طعمة للنيران[١٠٥]، وبسقوط سرقوسة ، تم للأغالبة فتح الجزيرة تقريبا [١٠٦]، وأرسل الإمبراطور البيزنطى أسطولا ضخما لقتال الأغالبة، لكنه عاد أدراجه بعد أن منى بالهزيمة[١٠٧].

وظلت بعض المدن الهامة مثل طبرمين على ولائها للبيزنطيين بعيدة عن متناول الأغالبة، ويرجع ذلك ليس إلى مناعتها أو قوتها إنما إلى الخلافات داخل المعسكر الأغلبى، ففى الفترة ما بين سقوط سرقوسة وتولية العباس بن إبراهيم بن أحمد الأغلبى على صقلية ، حدث الكثير من المؤامرات والاغتيالات ، ومحاولات الاستقلال بالجزيرة عن الأغالبة، فضلا عما نشب من صراع العصبيات والقبائل المختلفة، وما جرى من فتن أذكاها الثوار الذين أبعدوا إلى صقلية[١٠٨]. وكان ثمة ارتباط بين هذه الأحوال السيئة فى صقلية وبين ما ساد إفريقية من فتن واضطرابات بسبب سياسة ابراهيم بن أحمد المتطرفة[١٠٩]، فلم يحرز الأغالبة بصقلية فى هذه الفترة تقدما يذكر فى ميدان الجهاد ، واقتصرت أعمالهم على بث السرايا، طلبا للغنيمة والسبى.

كما انتعش النفوذ البيزنطى مستغلا تلك الحال السيئة فأحرزوا عدة انتصارات بحرية وبرية، ففى سنة ٢٦٦هـ (٨٧٩م) هزم الأسطول الأغلبى ، ووقع معظمه غنيمة للبيزنطيين[١١٠]، وأرغم الأغالبة على طلب مهادنة البيزنطيين سنة ٢٧١هـ (٨٨٤م) كما أحرز البيزنطيون عدة انتصارات فى صقلية وجنوب إيطاليا . ففى سنة ٢٧٢هـ (٨٨٥م) استولى

١٠٣- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٥٥ .

١٠٤- أنظر : . Scott : Op. cit. vol . 2 . 38

١٠٥- الكامل ج٦ ص١٩ .

١٠٦- Scott : Op. cit. vol . 2 . p.45 .

١٠٧- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٩ .

١٠٨- البيان المغرب ج١ ص١٧٥ وما بعدها .

١٠٩- نفسه ص١٧٨ ، العبر ج٤ ص٤٢٦ .

١١٠- ابن عذارى : نفس المصدر ص١٥٦ .

القائد البيزنطى نقفور فوقاس على مدينة «سبرية» بعد أن أخلاها المسلمون [١١١]، وفى نفس العام لقيت «منتية» نفس المصير[١١٢]، وتم لنقفور استعادة سيادة البيزنطيين البحرية فى خليج نابلى[١١٣].

لكن هذا النشاط البيزنطى لم يدم طويلا، فقد شفى ابراهيم بن أحمد من مرضه واتخذ من الاجراءات ما كفل لدولته الاستقرار[١١٤]، وأرسل ابنه أبا العباس واليا على الجزيرة ومعه «مائة وعشرون مركبا، وأربعين حربى»، وتمكن الوالى الجديد من إقرار النظام، ووضع حد للشغب والفوضى[١١٥]، ثم استأنف الفتوح، فاقتحم مدينة «زلة» عنوة، وغنمها، واستسلمت له الحصون وارتضت دفع الجزية[١١٦].

بل إن إبراهيم بن أحمد استدعى ابنه للاضطلاع بأعباء الحكم بافريقية، وقرر أن يواصل بنفسه الحرب ضد البيزنطيين. وفى أواخر ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م) أبحر بأسطوله إلى صقلية، ونزل بمدينة بلرم، وضرب الحصار حول ميقش، ثم فتح مسينا ودمر أسوارها[١١٧] واتجه إبراهيم بن أحمد إلى طبرمين الحصينة، التى استعصت على جيوش الفاتحين فى السنوات ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٦ هـ- فسقطت فى آخر شعبان سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م) ودخلها الفاتحون عنوة، وهرب بعض سكانها عن طريق البحر [١١٨]. وبسقوط طبرمين دانت الجزيرة نهائيا للأغالبة [١١٩]. وأحدث سقوط المدينة وقعا سيئا عند البيزنطيين، ولم يستطع الامبراطور ليو السادس بن باسل أن يبذل محاولة أخيرة لاسترداد الجزيرة، فقد شغل بحرب سيمون البلغارى، واضطر إلى استدعاء قائده نقفور فوقاس من الميدان الغربى[١٢٠].

١١١- نفسه ص١٥٩ .

١١٢- الكامل ج٦ ص٦ .

١١٣- Scott : Op. cit. vol . 2 . p. 49 .

١١٤- البيان المغرب ج١ ص١٧٧ .

١١٥- الكامل ج٦ ص٩٧ .

١١٦- البيان المغرب ج١ ص١٧٧ .

١٧- الكامل ج٦ ص٦ .

١١٨- نفسه ص٥ ، ٦ لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢١ .

١١٩- Vasiliev : Op. cit . vol .1 . p. 372 .

١٢٠- Ostrogorosky : Op. cit. p. p. 226 , 27 .

بهذا تمكن إبراهيم بن أحمد من وضع نهاية للصراع البيزنطى الأغلبى على أرض صقلية، وانصرف إلى التمكين لنفوذه فى الجزيرة، ففى أواخر عام ٢٨٩هـ (٩٠١م) بعث حفيده زيادة الله إلى قلعة «ميقش» فافتتحها ، كما دفع أهل «رمطة» الجزية صاغرين لإبنه أبى محرز[١٢١]، ودانت حصون «دمتش» و «الباج» لطاعة الأغالبة [١٢٢]. وعبر إبراهيم إلى إيطاليا واستطاع أن يقود هناك عدة معارك ناجحة لقى حتفه فى إحداها فى ١٨ ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ [١٢٣]. وهكذا أنهى إبراهيم بن أحمد فتح الجزيرة قبل وفاته، وتم له طرد البيزنطيين منها نهائيا .

ثم دب الضعف فى دولة الأغالبة بعد ابراهيم بن أحمد ، وثارت الفتن بين أفراد الأسرة الحاكمة طمعا فى الإمارة ، فضلا عن تفاقم الخطر الشيعى واستفحاله وانشغال الأمراء بمقاومته ؛ حتى أن مدنا بأكملها دخلت فى الدعوة الجديدة. ومن المحتمل أن يكون الأغالبة قد اتصلوا بالبيزنطيين للاستعانة بهم لمدافعة الخطر الشيعى، بدليل قدوم سفراء من بيزنطة إلى رقادة بصحبة ابن حبشى وابن حجر رسولى زيادة الله إلى القسطنطينية بعد عودتهما . وما حدث من ترحيب زيادة الله بمقدمهم «وجمعه الناس للمباهاة بهم»[١٢٤] يرجح هذا الاحتمال.

ويحق لنا أن نسأل لماذا طال أمد الحرب فى صقلية حتى استغرقت ما ينيف على سبعين عامًا ؟ من الواضح أن فتح صقلية ارتبط أشد الارتباط بتطور الأحوال فى كل من إفريقية والدولة البيزنطية، وكانت الفتوح تتأثر بما يدور فى القيروان والقسطنطينية ، فالإمدادات التى كان يبعثها حكام القيروان أو الأباطرة البيزنطيون إلى صقلية تركت أثراً فعالاً فى سير عمليات الفتح ، وكانت هذه الإمدادات تتوقف كثرة أو ندرة ، قوة أو ضعفا ، على استقرار الأحوال العامة أو اضطرابها فى إفريقية وبيزنطة على حد سواء. لهذا كان تقدم العرب فى الجزيرة واستيلاؤهم على المدن والمعاقل الهامة يتم دائما فى عهود الأمراء الأقوياء كزيادة الله الأول، وأبى الغرانيق وإبراهيم بن أحمد ، بينما تدهور موقفهم فى الجزيرة حين عمت

١٢١- العبر ج٤ ص٤٣٦ .

١٢٢- الكامل ج٦ ص٦ .

١٢٣- نفس المصدر والصفحة.

١٢٤- ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص١١٥ . . Vonderheyden : Op. cit. p. 280

الاضطرابات إفريقية نتيجة الثورات والنزاع على الإمارة وضعف شخصية الأمراء أو فساد سياستهم . ومن ناحية أخرى فإن انتعاش النفوذ البيزنطى فى صقلية ارتهن أيضا بشخصيات الأباطرة ومشاكل الدولة العامة كالحروب مع العرب والروس والبلغار . ولا جدال فى أن إغارات المعتصم - مثلا- قد فتت فى عضد الإمبراطور البيزنطى تيوفيل وحالت دون تفرغه لمشاكل الإمبراطورية فى الغرب ، كذلك انعكس ضعف ميخائيل الثالث على أحداث صقلية ، وأدى إلى توطيد أقدام الأغالبة بالجزيرة، على حين اشتد ساعد البيزنطيين فيها حين تولى الحكم فى القسطنطينية إمبراطور قوى كباسل الأول.

ومن ثم فقد كان النضال بين الطرفين شاقا ومتكافئا، وإن رجحت كفة الأغالبة فى أغلب الأحيان. فلم يسلم البيزنطيون الجزيرة لقمة سائغة للفاتحين ، بل استبسلوا فى الدفاع عنها بالقدر الذى سمحت به ظروفهم الداخلية والخارجية[١٢٥]. ومن مظاهر عنف هذا النضال ما اتسمت به أعمال الفاتحين من تنكيل وقسوة وإرهاب ، على خلاف ما عرفت به الفتوح الإسلامية عادة . فعرف عن الجند الأغلبى الإسراف فى سفك الدماء، والإقدام على هدم المدن وإحراقها بعد فتحها [١٢٦]، دون نظر إلى طلبها الأمان [١٢٧]. ويبدو أنهم اضطروا إلى ذلك لخوفهم من انتفاضها عليهم عندما تتلقى الإمدادات من القسطنطينية ، والمعروف أن هذه الإمدادات كانت تتدفق خاصة بعد سقوط المدن والمعاقل الهامة بالجزيرة . وتبالغ المصادر العربية فى وصف هذه الإمدادات فتقدرها فى المرة الواحدة بما يزيد على المائة ألف من المقاتلة، فى حين أنها لم تتعد العشرة آلاف فى أغلب الأحيان[١٢٨]، كما يبالغ المؤرخون العرب فى تقدير ضحايا هذه المدن، فيذكرون أن القتلى فى المعركة الواحدة فاقوا العشرة آلاف ، فى حين لم يخسر المسلمون سوى بعض الأفراد[١٢٩]، ولو كانت اللقاءات بين الطرفين تنتهى على هذه الوتيرة، لما استغرق الفتح طيلة هذه المدة، ولو قعت الجزيرة لقمة سائغة لبنى الأغلب.

١٢٥- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢١١ .

١٢٦- البيان المغرب ج١ ص١٣٥ .

١٢٧- موطأ مالك ورقة ٢٢٨ .

١٢٨- Deihl : Byzantium ; greatnes and decliene. p. 43 .

١٢٩- الكامل ج٥ ص٢٦٨ وما بعدها .

وقد تمخض هذا النضال الطويل عن نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية .

فقد أصبحت صقلية بلداً إسلاميا تابعا للأغالبة ، وغدا حاكم الجزيرة فى بلرم بعين من قبل أمير القيروان . ولما كانت مهمة والى صقلية عسكرية فى المحل الأول ، فكان يختاره كبار رجال الجيش ثم يقلده أمير القيروان ويبعث إليه بعهد الولاية. ففى عام ٢٣٦هـ توفى محمد بن عبدالله أمير صقلية «فاجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل فولوه أمرهم، وكتبوا بذلك إلى محمد بن الأغلب فأرسل عهدا بولايته»[١٣٠]، وكذلك كان الحال بالنسبة لعبد الله بن العباس [١٣١]، ومحمد بن خفاجة[١٣٢] وغيرهما من ولاة بلرم .

وكان الوالى يسكن القصر فى بلرم ويودع فيه المال والسلاح والكساء، ويعين من قبله عمالا على المدن يخضعون له مباشرة [١٣٣]، كما كان للقضاء دار خاصة فى بلرم تجرى أحكامها وفق نظام القضاء فى القيروان [١٣٤].

وخضع سكان صقلية للأنظمة المالية الإسلامية المتعارف عليها فى إفريقية [١٣٥]، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية بالرغم من كثرة الحروب[١٣٦] وما نجم عنها من أضرار . ويصف الاصطخرى[١٣٧] الجزيرة بأن «فيها من الخصب والزرع والمواشى والرقيق ما يفضل سائر مدن الإسلام المتاخمة للبحر» . ولاشك فى أن الأغالبة أدخلوا أنواع جديدة من الزراعات إلى الجزيرة كالليمون والبرتقال والقصب والأرز والقطن [١٣٨]، كما ازدهرت الصناعة فى الجزيرة فى عهد

١٣٠- الكامل ج٥ ص٨٩ .

١٣١- نفسه ص٣٠٦ .

١٣٢- نفس المصدر والصفحة.

١٣٣- إحسان عباس : العرب فى صقلية ص٥٠١ .

١٣٤- رياض النفوس ص٥٠١ .

١٣٥- ابن حوقل : المسالك والممالك ص٨٤ .

١٣٦- ابن عذارى : ج١ ص١٣٥ وما بعدها .

١٣٧- المسالك والممالك ص٥١ .

١٣٨- Heyd : Op. cit. vol . I. p. 50 .

الأغالبة فاشتهرت صقلية بملابسها الكتانية ، وصناعة السفن والجلود والحبال والسكر والورق[١٣٩]، ومن الطبيعي أن تروج تجارتها بعد أن أصبحت مركزا هاما للتجارة الدولية، كما غصت بالفنادق والأسواق التى كانت كنظيرتها فى إفريقية من حيث تنسيقها وتخصصها[١٤٠].

وشهدت الأحوال الاجتماعية فى صقلية تطوراً ملحوظًا ، فقد اختفى العنصر البيزنطى من الجزيرة ، وتحررت طبقة العبيد[١٤١] بدخولها الإسلام، وظهرت عناصر جديدة من العرب والبربر والفرس والخراسانيين لتتولى الصدارة[١٤٢].

كما انعكست الأحوال الثقافية فى إفريقية على نظيرتها فى صقلية، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه المالكى وفقا لموطأ مالك ومدونة سحنون . وبين فقهاء بلرم اشتهر أبو عبدالله حمدون بن عبد الله[١٤٣] ومحمد بن ميمون بن عمرو ومحمد بن نصر بن حضرم الذين بفضلهم تم انتشار المذهب المالكى فى صقلية ، وألف سالم بن سليمان الكندى قاضى صقلية كتابه فى الفقه المعروف «بالسليمانية»[١٤٤].

ولا جدال فى أن ازدهار علم القراءات فى صقلية كان نتيجة طبيعية لسيادة طريقة نافع وورش بإفريقية التى دخلتها عن طريق مصر. وكذلك انتشر التصوف بصقلية وعمت الرباطات سواحلها ، ومن أعلامه الحسن الصقلى الحريرى الذى قضى عمره فى الزهد والعبادة والتنسك[١٤٥]. ويعجب المؤرخ سكوت لهذا الازدهار الثقافى الذى عم الجزيرة على الرغم من كثرة الحروب والصراع بين الأغالبة والبيزنطيين .

١٣٩- إحسان عباس : العرب فى صقلية ص٧٣ .

١٤٠- ابن حوقل : المسالك والممالك ص٨٣ .

١٤١- إحسان عباس : المرجع السابق ص٦٣ .

١٤٢- البيان المغرب ج١ ص١٣٢ .

١٤٣- رياض النفوس ص٣١٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ .

١٤٤- أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص١٤٨ .

١٤٥- العرب فى صقلية ، ص٨٦ .

١٤٦- أنظر : History of the Moorish empire . vol . 2 . p. 61 .

ومن أهم النتائج التى تمخضت عن فتح صقلية إسهام حركة الجهاد فى الجزيرة فى حل مشاكل دولة الأغالبة الداخلية، فليس يخفى أن فتن الجند المتوالية التى شغلت الأغالبة الأوائل، وهددت بالقضاء على دولتهم استطاع الأمراء التخلص من مثيريها بإرسالهم إلى ميدان الجهاد بصقلية. وتحولت احقادهم ضد دولة الأغالبة إلى نوع من الحماس الدينى كان له بعد الأثر فى إذكاء حركة الجهاد .

ومن ناحية أخرى لم تخل حركة الجهاد فى صقلية من فوائد مادية عادت على الأغالبة ، فقد آلت إليهم غنائم كثيرة [١٤٧]، إذ استولوا على كنوز الكنائس وأموال الأثرياء التى صارت لهم حقا مشروعا ، لهذا خففوا من الأعباء المالية على الرعية فى إفريقية ، ولم تعد الأزمات الاقتصادية تدفعهم إلى الثورة . كما شهدت إفريقية حركة عمرانية لم تعرفها من قبل، إذ بات فى مقدور الأمراء إقامة المساجد وبناء الرباطات والحصون والأسوار، وإنشاء المدن والمواجل والخزانات والقناطر .

وكان من الطبيعى أن تتأثر أحوال بيزنطة باستيلاء الأغالبة على صقلية وإحرازهم السيادة فى حوض البحر المتوسط ، فضلا عن خسارتهم المادية فقد فقدوا سيادتهم البحرية بعد أن «صار البحر المتوسط خاليا من أى نفوذ للأمم النصرانية بشئ من جوانبه» [١٤٨].

وكانت هنالك نتائج حضارية بسبب اللقاء بين الأغالبة والبيزنطيين، منها تأثر الفن الأغلبى- فى بعض جوانبه- بالتقاليد البيزنطية ، ويتجلى ذلك بصورة واضحة فى القلاع والحصون والعمائر التى شيدت فى إفريقية فى عصر الأغالبة[١٤٩].

ثانيًا : الأغالبة والفرنجة :

كانت علاقات الأغالبة بالفرنجة تتأثر بشكل واضح بعلاقات المودة بين شارلمان وهارون الرشيد، لذلك لايمكن فهم هذه العلاقات إلا إذا فهمنا طبيعة العلاقات العباسية الكارولنجية ، ومن ثم تعتبر دراسة علاقة شارلمان بهارون الرشيد أمرا ضروريا لفهم طبيعة العلاقات الأغلبية الكارولنجية .

١٤٧- ديومين : دائرة المعارف الإسلامية- مادة بنى الأغلب ص٣٢٨ .

١٤٨- ابن خلدون : المقدمة ص٢٥٤ .

١٤٩- Terrasse : Op. cit. p. 400 , 401 .

تنفرد مصادر تاريخ الفرنجة المعاصرة بالتعرض لهذا الموضوع ، بينما المصادر العربية تلوذ بالصمت تماما . وليس هذا الصمت - فيما نعتقد- إنكارا لوجود هذه العلاقة، بل يفسر بأن المعاصرين اعتبروا مسلك الخليفة فى مهادنة «عاهل الفرنجة» وملاطفته بالهدايا ، وحماية الحجاج المسيحيين ، منافاة لروح العصر. فى حين تبالغ المصادر الفرنجية فى هذا الموضوع تفخيما لشارلمان، واظهارا لعظمته واتساع امبراطوريته، حتى أن اجنيهارد[١٥٠] فى كتابه «سيرة شارلمان» يذكر أن الرشيد «قبل أن يجعل تحت سلطان شارل بيت المقدس والقبر المقدس» . وفى نفس المعنى يخبرنا راهب دير القديس جال «أن هارون الرشيد خاطب سفراء الفرنجة بأنه سيجعل الأرض المقدسة لشارل، وسوف يكون نائبه عليها»[١٥١]. وليس من المعقول أن يقبل الخليفة العباسى أن يكون تابعا لشارلمان أو نائبا له فى حكم بلد من بلاده[١٥٢] وكل ما حدث أن الخليفة سمح لشارلمان بممارسة نوع من الحماية للمسيحيين فى الدولة الإسلامية، وإغداق الهبات على الكنائس فى إفريقية وبيت المقدس[١٥٣].

وثمة أمر آخر يردده كل من أرخوا لشارلمان ، وهو أن تحالفا عقد بين هارون الرشيد وشارلمان لمواجهة أخطار الأمويين بالأندلس والبيزنطيين، ويستمدون القول مما حدث من عداء بين العباسيين والأمويين بالأندلس، فى الوقت الذى وقع فيه الاختلاف بين الدولة البيزنطية وإمبراطورية الفرنجة، فالتقت بغداد وآخن فى عداء قرطبة والقسطنطينية [١٥٧]، وأن ملك الفرنجة كان مدفوعا إلى ذلك برغبته فى إحياء الإمبراطورية الرومانية [١٥٥]، الأمر الذى جره إلى معاداة البيزنطيين الذين اعتبروا أنفسهم ورثة هذه الإمبراطورية، أما الرشيد، فكان يطمع فى استرداد الأندلس وبسط سيادته على الإمبراطورية البيزنطية[١٥٦].

١٥٠- Eginhard : Vie de Charlemagne , trad . par Halphen . p. p. 47 , 48 .

١٥١- ديفز : شارلمان ص٢٠٠ .

١٥٢- Buckler : Op. cit. p. 32 .

١٥٣- ديفز : شارلمان ص٢٠٣ .

١٥٤- نفسه ص٣٩٣ ، Winston : Charlemagne from the hammer to the cross. p. 281 , Brunschvig : Op. cit. p. 32 .

١٥٥- De Mas Latrie : Traites de paix et de commerce p. 5 .

١٥٦- Buckler : Op. cit . p. 4 .

لاتنكر أن تلك الظروف الدولية خلقت نوعا من التقارب بين البيزنطيين ومسلمى الأندلس ، وبين الفرنجة والخلافة العباسية، لكن الذى لاشك فيه أن هذه العلاقات لم تصل إلى درجة التحالف الفعلى . فالتقارب بين بيزنطة والأندلس لم يترك أثراً على دولة الفرنجة، ولذا لم يكن شارلمان بحاجة ليعيد التوازن المفقود عن طريق تحالفه مع العباسيين كما يذهب برنشويج[١٥٧]. ولم يكن فى نزاعه مع الأباطرة البيزنطيين يطمع فى أن يكون هو الإمبراطور الوحيد فى العالم المسيحى، بل كان يرغب فى أن يعترف به البيزنطيون إمبراطوراً فى الغرب ، حتى أنه فى عام ١٩٥هـ (٨١٠م) قدم للإمبراطور البيزنطى نقفور عروضا مغرية فى مقابل اعترافه بالإمبراطورية الغربية على قدم المساواة مع الإمبراطورية الشرقية[١٥٨].

ولم تكن الخلافة العباسية فى عهد الرشيد تطمع فى استرداد الأندلس [١٥٩]، فمشاكلها فى المشرق كانت كبيرة الأمر الذى دفعها إلى أن تتراخى عن دعم سلطانها فى المغرب. ونعتقد أن الرشيد لم يدر بخلده أن يعقد تحالفا مع شارلمان للقيام بحرب البيزنطيين ، فقد كان منتصرا ، وأرغم أباطرتهم على دفع الجزية [١٦٠]، وليس أدل على رهبة البيزنطيين منه من جعل يوم وفاته عيدا لهم[١٦١].

أما الأمويون بالأندلس فلم يهتموا بأمور المشرق بقدر انشغالهم بمشاكلهم فى الغرب[١٦٢].

لذلك ترجح أنه لم يحدث تحالف بين بغداد وآخن نتيجة الظروف السالفة الذكر. وفى نفس الوقت لم تكن علاقة شارلمان بهارون الرشيد «مجرد وهم تاريخى» كما يذهب الدكتور مؤنس[١٦٣]، بل إن كل ما حدث لم يتعد تبادل السفارات والهدايا[١٦٤]. وكانت هذه العلاقات

١٥٧- La Tunisie le haut moyen age . p. 16 .

١٥٨- ديفز : شارلمان ص١٨٧ . . Eginhard : Op. cit. pp. 50 , 51

١٥٩- طرخان : المسلمون فى فرنسا وإيطاليا- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٣ ج٢ ص٥١ .

١٦٠- التاريخ المجموع على التحقيق ص٥١ .

١٦١- ابن الداية : المكافأة ص٨١ .

١٦٢- البيان المغرب ج٢ ص٩٥ وما بعدها .

١٦٣- المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية- المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ ص١٥٧ .

١٦٤- Eginhard : Op . cit . p. 49 ، لعرينى : بعض معالم عهد شارلمان- المجلة التاريخية المصرية مجلد٨ ص١٥٠ .

الودية بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة الكارولنجية استمرارا لما كان من تقارب بين المنصور وبيبين القصير [١٦٥].

كانت السفارات المتبادلة بين الطرفين تمر بإفريقية سالكة الطرق البرية، [١٦٦]، خشية عدوان البيزنطيين الذين كانت لهم السيادة فى البحر المتوسط ، وكان مندوبون ومرشدون من إفريقية يرافقون هذه السفارات جيئة وذهابا بين بغداد وآخن [١٦٧].

أما الأغالبة فقد اقتصروا على القيام بهذا الدور فقط، دور الوساطة ، ولم يرسلوا سفارات مباشرة من القيروان إلى بلاط الفرنجة . وقد ذكر أن مندوبا أغلبيا كان فى بلاط شارل فى عام ١٨٥هـ (٨٠١م) ، لعل مهمته كانت إبلاغ الإمبراطور بنجاح سفارته التى كان قد أرسلها إلى الرشيد فى عام ١٨١هـ (٧٩٧م) . يؤكد ذلك أن المندوب الأغلبى كان برفقته مبعوثا آخر من قبل الرشيد [١٦٨]. وجدير بالذكر أن شارلمان كان قد أوفد سفارة سنة ١٨١هـ بقصد الحصول على فيل من أفيال الرشيد[١٦٩]، وقد استجاب الرشيد إلى طلبه ، ووصل الفيل فعلا إلى بلاط آخن سنة ١٨٧هـ (٨٠٢م) يصحبه يهودى اسمه اسحاق [١٧٠]. ومن المعروف أن هذا الفيل مر بافريقية ، ومن أحد ثغورها شحن فى سفينة أبحرت به إلى ميناء «لونا» بايطاليا ومنها إلى آخن [١٧١].

١٦٥- القوى البحرية والتجارية ص١٧٨ .

١٦٦- نفسه ص١٠٣ .

١٦٧- Latrie : Op. cit. p. 11 .

١٦٨- Buckler : Op. cit. p. 11 ، بعض معالم عهد شارلمان ص١٤٨ .

١٦٩- Eginhard : Op. cit. p. 49 .

١٧٠- يرى بارتولد أن إسحاق هذا كان من عمال الرشيد فى الهند، وأن الرشيد كلفه باحضار الفيل «أبى العباس» واصطحابه إلى بلاط شارلمان . أنظر : Buckler : Op. cit. p. 46 بينما الثابت أنه كان من رجال شارلمان الذين أوفدهم فى سفارته إلى الرشيد فى عام ٧٩٨م حسبما يورد إجنيهارد .

أنظر : Vie de charlemagne . pp. 49 , 50 .

١٧١- Op. cit. pp. 11 , 185. لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٨٨ .

وفى سنة ١٨٥هـ (٨٠١م) استقبل ابراهيم بن الأغلب سفارة من قبل شارلمان فى مدينة القصر القديم، وسط مظاهر الحفاوة والترحاب [١٧٢]. وسواء أكانت هذه السفارة قادمة من بغداد[١٧٣] أو ذاهبة إليها [١٧٤]، فقد توقفت بإفريقية ، ولم تكن موجهة بصفة مباشرة إلى البلاط الأغلبى بقصد توطيد العلاقات والاتفاق للقيام بعمل مشترك ضد الأمويين بالأندلس كما يذهب كارل بروكلمان [١٧٥]. وأغلب الظن أنها كانت عائدة من بغداد بتوصية من الرشيد على أن يسمح ابراهيم بن الأغلب للفرنجة بحمل رفات القديس سيبرين والشهداء الآخرين المدفونين بمدينة قرطجانة القديمة [١٧٦]. وقد استجاب ابراهيم بن الأغلب لهذا المطلب وأرسل رسولا من قبله برفقة السفارة ليحمل للإمبراطور تحياته الشخصية[١٧٨].

ولم يجل بخاطر ابراهيم بن الأغلب أن يمضى قدما فى توطيد علاقاته بشارلمان لانشغاله بالمشاكل الداخلية التى صحبت قيام الدولة، فاكتفى بمجارات الخلافة العباسية فى مجاملاتها لبلاط آخن ، وقام بتخصيص الأدلاء لاصطحاب السفارات عبر بلاده إن شرقا أو غربا .

١٧٢- Bruschvig : Op. cit. p. 15 .

١٧٣- Mercier : Op. cit. p. 267 .

١٧٤- Fournel : Op. cit. vol . 2 . p. 453 .

١٧٥- History of the Islamic People p. 453 .

١٧٦- Mercier : Op. cit. p. 268 , Fournel , op. cit . vol . 2 . 453 , Reinaud : Invasions des Sarrazins en France . p. 116 .

١٧٧- أورد لوازيل نصا حول هذا الموضوع يقول :

Unus enim ... alter Saracenus de Africa, Legatus Amiratie Abraham, qui inconfinio Arficaé in Fossato preasidebat.

وقد ترجمه جيزو فى كتابه Memoire relatif d'l'histoire de france على أن إبراهيم حاكم فاس المتاخمة لحدود إفريقية أرسل مندوبا إلى شارلمان. وقد تناقل بعض المؤرخين كلمة Fossato الواردة بالنص على أنها مدينة فاس عاصمة الأدارسة . لكن الصحيح أن المقصود بها «الخندق» الذى حفره ابراهيم بن الأغلب حول مدينة العباسية ، ذلك أن فاس لم تكن قد أنشئت بعد :

أنظر :، Fournel : Op. cit. vol 2 . p. 454

١٤٨- Reinaud : Op. cit. p. 116 .

أما ما يروى عن عدم تعرض سواحل بلاد الكارولنجيين لإغارات الأغالبة[١٧٠] طوال ـ
شارلمان ، فلا يرجع إلى الصلة التى توطدت بين الفرنجة وبين إبراهيم بن الأغلب[١٨٠]، بـ
ما يرجع إلى ظروف الدولة الأغلبية التى لم تكن قد تجاوزت دور التكوين ، ولم تفق بعد
مشاكلها الداخلية، فضلا عن احترام إبراهيم بن الأغلب للصداقة العباسية الكارولنجية[١٨١]
فلما توفى الرشيد فى عام ١٩٤هـ (٨٠٩م) بعث إبراهيم بحملة بحرية احتلت كورسيـ
وسردينية اللتين كان شارلمان يتعهد للبابوية بحمايتهما[١٨٢]. وينم ذلك عن تحول واضح
العلاقات الأغلبية الكارولنجية ؛ ذلك التحول الذى عمقه استقرار دولة الأغالبة فى عهد ز
الله الأول، إذ تسنى للأمير أن يجعل من مراسى تونس وسوسة منطلقا لإغاراته البحرية ـ
سواحل الفرنجة[١٨٣] وهو فى حل من ولائه للخلافة.

ففى سنة ٢٠٦هـ (٨٢١م) تمكنت سفن أغلبية من الإغارة على جزيرة سردينية وعا
محملة بالغنائم إلى إفريقية[١٨٤]، كما أن الفرنجة لم يتوانوا عن شن الإغارات على شواط
إفريقية، وباتت هذه السواحل ما بين أوتيكا وقرطاجنة معرضة لغارات قراصنتهم[١٨٥]
والراجح أنهم تعاونوا مع بيزنطة فى هذا السبيل[١٨٦] ، ففى عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) أ
بونيفاس كونت لوكا على إفريقية ، وفر أسطول الأغالبة هاربا إلى خليج تونس[١٨٧]، و

١٧٩- Halphen : Charlemage et l'empire Carolingien . p. 11 .

١٨٠- Latrie : Op. cit. pp. 5 , 11 . ff.

١٨١- Reinaud : Op. cit. p. 123 .

١٨٢- Pirenne : Mohammed and charlemagne . p. 160 .

ويعتقد الدكتور العرينى أن هذا الحادث ينهض دليلا على تأييد حكومة بغداد لنشاط شارلمان . أنظ
بعض معالم عهد شارلمان ص١٤٦ . لكن يتضح نقيض ذلك إذا ما علمنا أن كورسيكة وسردينية كا
تخضعان لحماية شارلمان . أنظر : Reinuad : Op. cit. p. 121 .

١٨٣- Ibid . p. 123 .

١٨٤- الكامل ج٥ ص١٨٥ .

١٨٥- Cam . Med . hist. vol . 2 . 381 .

١٨٦- لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٦٦ ، Pirenne : p. 161 .

١٨٧- Latrie : Op. cit. p. 6 .

الفرنجة عند مدينة «سرت» وأعملوا فى سكانها السلب والنهب [١٨٨]، وامتدت إغاراتهم حتى أبواب القيروان نفسها [١٨٩]، ولم ينسحبوا إلا بعد أن تصدى لهم رجال الرباطات بقيادة محمد بن سحنون [١٩٠]، ويبدو أن هذه الإغارات أحدثت من الخسائر ما دفع الخليفة المأمون إلى التدخل طالبا من الفرنجة أن يكفوا أيديهم عن إفريقية[١٩١].

وقد بلغت العلاقات العدائية بين الأغالبة والفرنجة ذروتها بعد نزول جيوش الأغالبة فى جزيرة صقلية وعبورهم مضيق مسينا إلى شبه الجزيرة الإيطالية التى كانت غالبيتها تخضع لحكم الكارولنجيين[١٩٢].

١٨٨- . Fournel : Op. cit. vol . 2 . 495

١٨٩- . Scott : Op. cit. vol . 2 . 17

١٩٠- رياض النفوس ص٣٤٨ .

١٩١- . Buckler : Op. cit. p. 46

١٩٢- دخلت إيطاليا ضمن نطاق الإمبراطورية الكارولنجية بعد تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث فى كنيسة القديس بطرس (Cam. med . hist. vol3 . p. 47) ومن مظاهر السيادة الكارولنجية استماع الإمبراطور إلى الشكاوى وتصديقه على الانتخابات التى تجرى فى كرسى رافنا وإرساله المبعوثين لجمع الرسوم الملكية وتعيينه للسلطات البلدية (ديفز : شارلمان ص١٩١) وكان بيبن بن شارلمان حاكما على إيطاليا حتى عام ٨١٠م بينما فوض الإمبراطور مبعوثيه حكم إيطاليا حتى سنة ٨١٢م، إلى أن عين برنهارد بن بيبين حاكما عليها سنة ٨١٢ م (ديفز : المرجع السابق ص٢٢٧) غير أن البيزنطيين واللومبارد شاركوا الفرنجة فى بعض النواحى، فكان البيزنطيون يمارسون نفوذا إسميا على البندقية وبعض أجزاء من إقليم كمبانيا والطرفين الجنوبيين من شبه الجزيرة (Heyd : Op. cit. p. 98) وقد حاول شارلمان إقصاء النفوذ البيزنطى تماما فأخضع أستريا ومدن دلماشيا لسلطانه سنة ٨٠٥م ، وتمكن ابنه بيبين من ضم البندقية سنة ٨١٠م والحق بالبيزنطيين عدة هزائم بحرية (Ostrogorsky : Op. cit. p. 176) لكن الفرنجة تنازلوا عن هذه الأقاليم فى سنة ٨١٢ م (ديفز : المرجع السابق ص٢٥٠) فتحولت إلى دويلات مستقلة تخضع لحكم أسرات وطنية (Heyd : Op. cit. P. 98) مع احتفاظ بيزنطة بسيادتها الإسمية عليها، فالبندقية رغم احتفاظها برسم التبعية للبيزنطيين انتهجت سياسة الحياد بين الشرق والغرب (ديفز : المرجع السابق ص٢٥٠) أما نابلى فقد حكمها الدوق ستيفن الذى أسس بها أسرة حاكمة حرصت على عدم الاحتكاك بالبيزنطيين ، ورغم ما بذله البيزنطيون من جهود لفرض سيادتهم عليها سنة ٨١٨م فانهم فشلوا امام نضال أهلها، فظلت مدينتهم تنتهج سياسة =

والواقع أن ظهور الأغالبة فى إيطاليا كان بناء على استدعاء من عناصر إيطالية ثائرة، فقد نشب نزاع بين دوقية نابلى ودوقية بنيفنت اللومباردية، وانتهى الأمر بعقد معاهدة سنة ٢٢٠هـ (٨٣٦م) أرغمت فيها نابلى على دفع الجزية للدوق سيكر اللومباردى[١٩٣] . ولم يستجب لويس التقى إمبراطور الفرنجة لاستغاثات نابلى المتكررة بطلب العون ضد اللومبارد ، فلم يجد أندريه دوق نابلى بدا من الاستغاثة بالأمير الأغلبى فى بلرم بصقلية. واستطاع أسطول الأغالبة أن يرفع الحصار اللومباردى الذى كان مفروضا على نابلى، وأرغم سيكر على عقد صلح جديد أطلق بمقتضاه سراح أسرى نابلى سنة ٢٢١هـ (٨٣٧م) [١٩٤]. ومن هنا بدأ التحالف بين نابلى والأغالبة [١٩٥]، وكان ذلك تأكيدا للصلات التجارية القديمة [١٩٦]، فقد كانت إفريقية تصدر زيت الزيتون إلى نابلى مقابل ما تستورده منها من الثياب الكتانية المشهورة [١٩٧].

وكانت هناك اعتبارات عسكرية دفعت الأغالبة إلى التدخل فى جنوب إيطاليا ، ذلك أن العمليات العسكرية ضد البيزنطيين فى صقلية استلزمت ضرب معاقلهم فى الطرف الآخر من مضيق مسينا، وبصفة خاصة أسطول البندقية الذى كان يهدد شمال صقلية ، وحدا بهم هذا إلى

= الاستقلال (Bury: Op. cit. p. 309) وكذلك كان الحال بالنسبة لجايتا وأما لفى، فعلى الرغم من تبعيتهما الإسمية لدوق نابى فقد تمتعا بالاستقلال فى شكل المدينة الدولة (Ibid p. 310) .

أما اللومبارد فلم يوفوا بالوعود التى قطعوها على أنفسهم بالتبعية لشارلمان فى سنة ٧٨٨م (ibid. p. 311) ، وظلت بنيفنت تتمتع بالاستقلال الذاتى، وفى الفترة ما بين ٨١٠ ، ٨١٢ م لم تنجح جيوش الفرنجة فى تغيير وضعها ، وباتت هذه الدوقية بعيدة عن متناول نفوذ الفرنجة (ديفز : المرجع السابق ص٢٥١، ٢٥٢).

١٩٣- Bury : Op. cit. p. 63 , Cam . med . hist. vol . 2 . p. 383 , lot: les invasions barbares. p. 101 .

١٩٤- فازيليف : العرب والروم ص١٦٠ .

١٩٥- مما يؤكد ذلك التحالف العثور على عملة ذهبية تحمل اسم الدوق أندريه محاطة بحروف وزخارف ونقوش عربية . أنظر : Bury : oP. cit . p. 312 .

١٩٦- لويس : القوى البحرية ص١٠٨ ، العرينى، الدولة البيزنطية ص٢٥ .

١٩٧- المكتبة الصقلية ج١ ص١١ .

خوض المعارك فى أرض قلورية سنة ٢٢٥هـ (٨٣٩م) [١٩٨]، وليس فى بداية القرن التاسع كما يذكر فازيليف [١٩٩]. على كل حال ، كانت تلك الغزوة من قبيل الاستطلاع، إذ لم يطل مقام الأغالبة بقلورية فأحرقوا مدينة برنديزى وعادوا أدراجهم إلى صقلية[٢٠٠].

وفى نفس سنة ٢٢٥هـ مات سيكر، وانقسمت مملكة اللومبارد إلى إمارتين متصارعتين هما بنيفنت وسالرن ، وشجع ذلك الأغالبة على العبور إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا إلى الفتح المنظم ، فدانت لهم المدن والمعاقل فى أرض قلورية وانكبردة واستقروا فيها بصفة دائمة[٢٠١] ، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة [٢٠٢] ، كما خربوا كابوا فى غزوة خاطفة[٢٠٣].

وقد أرسل الإمبراطور البيزنطى تيوفيل رسله إلى البندقية يحض دوقها على تحرير تارنت[٢٠٤]. وتقدم أسطول البندقية، لكن السفن الأغلبية أغرقته سنة ٢٢٦هـ (٨٤٠م)[٢٠٥]، وهو يحاول تنفيذ رجاء الإمبراطور .

وقام الفاتحون بعدة إغارات انتقاما لهجوم البندقية ، فاتجهوا إلى شمال الإدرياتى وأغاروا على شواطىء دلماشيا ، وأحرقوا مدينة أوسيرو فى جزيرة خرسو ، ثم عبروا البحر ونهبوا أنكونة، وظلوا فى زحفهم حتى وصلوا إلى مصب نهر البو [٢٠٦]، ويبدو أنهم أغاروا على

١٩٨- نفس المصدر والصفحة .

١٩٩- العرب والروم ص١٥٩ .

٢٠٠- طرخان : المسلمون فى فرنسا وإيطاليا ص١١٤ ، Lot : op. cit. p. 101 .

٢٠١- ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٦٨ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص٢٩ .

٢٠٢- يرى لويس أن مسلمى كريت هم الذين استولوا على تارنت (أنظر : القوى البحرية والتجارية ص ١١) ، لكن ذلك أمر مستبعد إذا ما علمنا أن الأغالبة احتكروا النشاط البحرى فى منطقة الجنوب الإيطالى.

٢٠٣- القلقشندى : صبح الأعشى ج٥ ص٤١٠ .

٢٠٤- Bury : Op. cit. p. 313 .

٢٠٥- العرب والروم ص١٦١ .

٢٠٦- نفسه ص١٦٢ ، Bury : Op. cit. p. 313 ، العرينى : الدولة البيزنطية ص١٢٩ .

باري لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها(٢٠٧). وفي سنة ٢٢٧هـ (٨٤١م) جدد الأغالبة غزو خليج كورنيرو، وأحرزوا نصراً حاسما على أسطول البندقية عند جزيرة سان سجو، ثم انتهزوا فرصة وقوع الانقسام في إمارة بنيفنت اللوماردية، وحاصروا باري فسقطت في نفس العام على يد خلفون البربري (٢٠٨). وكان سقوط باري نقطة تحول كبرى في نشاط الأغالبة في جنوب إيطاليا إذ أصبحت مركزا هاما تخرج منه السرايا للإغارة على سائر أنحاء شبه الجزيرة، مثلها كمثل بلرم بالنسبة لصقلية(٢٠٩)، ومما زاد في أهميتها وقوعها عند مدخل الإدرياتي وتحكمها في الملاحة فيه(٢١٠).

وفي سنة ٢٢٨هـ (٨٤٢م) ساعد دوق نابلي حلفاءه الأغالبة أثناء حصارهم مدينة مسينا في صقلية (٢١١)، غير أن هذا التحالف ما لبث أن انفض سنة ٢٢١هـ (٨٤٥م) . ويعزو بيوري ذلك(٢١٢) إلى أن نابلي لم تعد في حاجة إلى حلفائها العرب بسبب انتهاء التهديد اللومباردي ، ويبدو أنها عمدت إلى ذلك بعد أن استفحل نشاط الأغالبة واتخذوا من سواحلها قواعد لأساطيلهم التي أصبحت تهدد أمنها وتجارتها(٢١٣). ومهما كان الأمر، فالثابت أن دوقها سرجيوس عقد تحالفا مع سورنتوم وأمالفي وجايته لمواجهة النشاط الأغلبي، وأحرز المتحالفون نصرا على قوة بحرية أغلبية قرب رأس ليكوزا، غير أن ذلك لم يضع حدا للإغارات الأغلبية ، بل ازدادت عنفا وكثرة، ففي نفس العام اجتاحوا مدينة آرل ونهبوها ، ثم استقروا في جزيرة إيشيا المواجهة لرأس ميزينوم (٢١٥)، ويذكر البلاذري(٢١٦) أن المفرج بن سلام تمكن من فتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها .

٢٠٧- فتوح البلدان ص٢٧٧ ، الكامل ج٥ ص٢٦٢ .

٢٠٨- البلاذري : نفس المصدر والصفحة ، ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة.

٢٠٩- . Bury : Op. cit. p. 313

٢١٠- طرخان : المسلمون في فرنسا وإيطاليا ص١١٥ .

٢١١- الكامل ج٥ ص٢٦٧ ، العرب والروم ص١٨٠ .

٢١٢- . Ahistory of the eastern Roman empir p. 313

٢١٣- القوى البحرية والتجارية ص٢١٦ .

٢١٤- . Helphen : Op. cit. p. 331

٢١٥- . Loc. cit., Lot: Op. cit. p. 102

٢١٦- فتوح البلدان ص٢٧٧ ، الكامل ج٥ ص٢٦٣ .

وكان ينبغى على لويس الثانى- ابن لوثر- الذى توج ملكا على إيطاليا فى ١٥ يونيه سنة ٨٤٤م أن يدفع عن بلاده الخطر الأغلبى، لكن يبدو أنه لم يبد اهتماما بما حدث فى إيطاليا كما فعل لويس التقى ولوثير الأول من قبل، والسبب افتقار الفرنجة آنذاك إلى قوة بحرية لمواجهة الأساطيل الأغلبية [٢١٧]. وفى سنة ٢٣٢هـ (٨٤٦م) اضطر الإمبراطور إلى الدفاع عن ممتلكاته فى إيطاليا بعد أن شرع الأغالبة فى الاستيلاء عليها [٢١٨]، فقد أقلع أسطول أغلبى فى ثلاثة وسبعين سفينة من إفريقية قاصدا روما نفسها، بعد أن استطاع المسلمون فى صقلية الاستيلاء على مسينا[٢١٩]. ويبدو أن هذه الحملة كانت تنوى تحقيق أهداف كبرى تتويجا لحركة الجهاد فى جنوب إيطاليا ، ولم يكن الهدف مجرد السلب والنهب كما يعتقد بيورى[٢٢٠] وفازيليف[٢٢١]. وقد باغت الأغالبة مدينة أوستى على نهر التيبر ووصلوا إلى أسوار روما فى عام ٢٣٣هـ، وقد هاجموا الجانب الغربى لأنه لم يكن محصنًا ، وغنموا مغانم كثيرة ، واستولوا على كنوز كنيستى القديس بطرس والقديس بول [٢٢٢]، لكن الأغالبة لم يستولوا على المدينة، ولم يكن ذلك وهنا فى قوتهم [٢٢٣]، أو استبسالا لأهلها فى الدفاع[٢٢٤]، إنما لأن قيصر ابن الدوق سرجيوس حاكم نابلى قدم على رأس أسطول كبير[٢٢٥]، فآثر الأغالبة الانسحاب ، وعادت الحملة إلى إفريقية [٢٢٦]. وقد أحدثت تلك الغزوة أثراً كبيراً فى البلاط الكارولنجى، واعتقد الإمبراطور أن تلك نكبة «وتكفير عن الآثام التى

٢١٧- Lot : Op. cit . p. 102 .

٢١٨- Pirenne : op. cit. p. 161 .

٢١٩- الكامل ج٥ ص٢٦٨ .

٢٢٠- Ahistory of the eastern Rman empire . p. 314 .

٢٢١- العرب والروم ص١٨٥ .

٢٢٢- Halphen : Op. cit . p. 332 .

٢٢٣- Bury : Op. cit. p. 314 .

٢٢٤- العرب والروم ص١٨٥ .

٢٢٥- Bury : Op. cit. p. 314 .

٢٢٦- القوى البحرية والتجارية ص١٨٥ .

اقترفها المسيحيون، وانتعاش وصحوة للكفرة»(٢٢٧)، لكنه لم يقم بعمل حاسم لوقف النشاط الأغلبي في إيطاليا لانشغاله بخوض حروب خارج إيطاليا استغرقت كل جهوده(٢٢٨).

ثم تفاقم الخطر الأغلبي بتخريب بنيفنت ، وحصار جايته حول منتصف عام ٢٣٢هـ (٨٤٦م) (٢٢٩)، فلم يجد الإمبراطور مناصًا من التدخل . وفي العام التالي ظهر لويس الثاني في جنوب إيطاليا ، وناجز الأغالبة في عدة معارك أحرز فيها بعض الانتصار (٢٣٠)، ثم ما لبث أن حلت به الهزيمة في نفس العام ، وكاد يقضي عليه لولا دوق نابلي(٢٣١) . وضاعت عبثا جهوده في لم شمل الإمارات الإيطالية لإقصاء الأغالبة عن باري وتارنت ، بسبب انصراف هذه الإمارات إلى أمورها الخاصة(٢٣٢).

وانتهز الأغالبة هذه الفرصة فأغاروا على سواحل الكارولنجيين في ايطاليا وخارجها ، ففي سنة ٢٣٥هـ (٨٤٩م) سقطت مدينة آرل في أيديهم (٢٣٣)، كما عاودوا غزو روما وحشدوا لذلك أسطولا كبيرًا في جزيرة سردينية ، وأبحروا تجاه مدينة أوستي ، لكن مصب التيبر كان محصنا هذه المرة(٢٣٤)، فلم يستطع المسلمون اقتحامه . واجتمعت الأساطيل الإيطالية(٢٣٥)

٢٢٧- Halphen . Op. cit . p. 332 .

٢٢٨- Cam . med . hist. vol . 2 . p. 47 .

٢٢٩- العرب والروم ص١٨٦ .

٢٣٠- Cam . med . hist vol. 2 . p. 385 .

٢٣١- العرب والروم ص١٨٦ .

٢٣٢- Cam . med . hist. vol . 2 . 385 .

٢٣٣- Lot : Op. cit. p. 103 .

٢٣٤- باشر الإمبراطور لوثر وابنه لويس تحصين الجهة التي يلتقي فيها نهر التيبر بالبحر عقب غزوة العرب الأولى لروما. أنظر : . Lot : p. 103 .

٢٣٥- يشير فازيليف إلى أن البابا ليو الرابع لما علم بتحركات الأغالبة من سردينية، عقد حلفا مع أمالفي وجايته ونابلي في قصر اللاتيران لمواجهة الغزاة. أنظر : العرب والروم ص١٨٦ ، ويشاركه بيوري هذا القول . أنظر :

A History of the eastern Roman empire p. 314 .

لمواجهة الأغالبة ، فلم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم بعد أن هبت عاصفة حطمت الأسطول الأغلبي[٢٣٦].

على كل حال أظهرت تهديدات الأغالبة لروما عجز البابوية وعدم قدرتها على مواجهة الغزو، لذلك لم يجد البابا مناصًا من التسليم للويس الثانى بتبنى الدفاع عن المسيحية فى الغرب[٢٣٧]، خاصة بعد أن اقتنع بأن الإمارات الإيطالية لاتقوى على هذا العبء بسبب خلافاتها واضطراباتها[٢٣٨]، وأن الخسائر التى سببها الأغالبة فادحة[٢٣٩]، وأن نشاطهم البحرى هدد جنوب إيطاليا كله[٢٤٠].

وقد قرر لويس الثانى الاستيلاء على بارى معقل الأغالبة ، مدفوعا بحماس دينى أذكاه رهبان دير كاسان[٢٤١] وباركه البابا، الذى توج لويس الثانى إمبراطورا سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م)[٢٤٢]، لكنه لم يقم بعمل حاسم ضد الأغالبة ، فقد انصرف إلى مشاكله فى شمال إيطاليا [٢٤٣]، وصراعه مع البابا نيقولا الأول[٢٤٤]، الأمر الذى أتاح للأغالبة الفرصة لتشديد قبضتهم، فتمكن العباس بن الفضل والى بلرم من الاستقرار بجنوده فى جنوب إيطاليا[٢٤٥].

= أما لوط فيذهب إلى أن أسطول نابلى وحده هو الذى انفرد بالتصدى للغزاة.

أنظر : Les invasions barbares, p. 103 .

٢٣٦- Cam. med . hist. vol . 2 . p. 285 , Bury : Op. cit. p. 314 .

٢٣٧- Halpen: Op. cit. p. 397 .

٢٣٨- العرب والروم ص١٨٧ .

٢٣٩- Lot: Op. cit. p. 103 .

٢٤٠- القوى البحرية والتجارية ص٢٦٨ .

٢٤١- Lot: Op. cit. p. 103 .

٢٤٢- Bury : Op. cit. p. 315 .

٢٤٣- Cam . med : hist. vol . 2 . p. 285 .

٢٤٤- Bury : Op. cit. p. 385 .

٢٤٥- الكامل ج٥ ص٢٩٠ .

وفى سنة ٢٥٢هـ (٨٦٦م) حاول لويس الثانى تجنيد الإيطاليين أنفسهم للدفاع عن بلادهم، فكون منهم جيشًا عظيمًا، وأعد أسطولاً كبيراً، وحاصر مونت كاسينو سنة ٢٥٣هـ[٢٤٦] (٨٦٧م) وتمكن من هزيمة الأغالبة فى عدة معارك، واضطرهم للاعتصام بمدينتى بارى وتارنت [٢٤٧]، لكن هذه الجموع هزمها أمير بارى الأغلبى فى نفس العام [٢٤٨].

وفى سنة ٢٥٣هـ (٨٦٧م) مات البابا نيقولا الأول، وخلفه هادريان الثانى الذى ارتمى فى أحضان الإمبراطور، وفوضه أمر الدفاع عن المسيحية فى الغرب [٢٤٩]. واستجاب الإمبراطور لنداءات البابا ، لكنه أدرك عدم استطاعته إقصاء الأغالبة عن شبه الجزيرة بدون أسطول بحرى قوى[٢٥٠]. وكيما يحقق أهدافه ، ناشد البيزنطيين المساعدة البحرية واستجاب له الإمبراطور باسل الأول الذى كان قد تفرغ لمناجزة العرب فى الشرق والغرب على السواء[٢٥١]، ومن ثم ساهم بأساطيله فى الحصار البحرى الذى نصب حول مدينة بارى . ففى عام ٢٥٧هـ (٨٧٠م) ظهر أمام شواطىء المدينة أسطول كبير اشتمل على سفن من راجوزة ودلماشيا ، فى الوقت الذى حاصرت فيه جيوش لويس الثانى المدينة من البر فسقطت آخر الأمر فى يد الإمبراطور الكارولنجى[٢٥٢].

حقيقة أن هذا النصر أقصى الأغالبة عن أهم معاقلهم فى شبه الجزيرة، لكن وقعه لم يكن طيبا فى نفوس الإيطاليين، بل إن مؤرخى شارل الاصلع ولويس الثانى- هنكمار[٢٥٣] ومجينهارد[٢٥٤]- لم يذكرا عبارة واحدة تنم عن تخليص بارى من يد المسلمين [٢٥٥]، كما

٢٤٦- العرب والروم ص٢٣١ ، Cam . med. hist, vol . 2 . p. 386 .

٢٤٧- Lot: Op. cit. p. 104 .

٢٤٨- فازيليف : العرب والروم ص٢٣١ .

٢٤٩- Halphen : Op. cit, pp. 401 , 402 .

٢٥٠- العرينى : الدولة البيزنطية ص٢٩١ .

٢٥١- Vasiliev : Op. cit. p.370 .

٢٥٢- القوى البحرية والتجارية ص٢١٨ .

٢٥٣- Hinkmar : Annales de Saint bertin

٢٥٤- Meginhard : Annales de folda

٢٥٥- Halphen : Op. cit. p. 413 .

ساءت العلاقة بين الفرنجة وبين الإمبراطور البيزنطى باسل الأول صاحب الفضل الأكبر فى تحقيق الانتصار ، إذ أن حلاوة النصر جعلته يفاخر بأنه «إمبراطور الرومان» ضاربا عرض الحائط بدعاوى الإمبراطور البيزنطى فى هذا الصدد ، مخاطبا إياه بأنه «ملك القسطنطينية» فقط(٢٥٦). وقد نقم أمراء إيطاليا على الإمبراطور لويس الثانى خشية اغتنامه الفرصة لبسط سلطانه الفعلى عليهم، فأسرعوا بأسره ، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد تعهده بترك ما غنمه من أسلاب ، وبألا ينتقم منهم جزاء خيانتهم (٢٥٧)، بل إن أمير بنفنت لم يتورع عن التماس حماية بيزنطة سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م) ، واستجاب له الإمبراطور باسل الأول الذى استولى على أوترانتو فى نفس العام(٢٥٨)، مدفوعا بحقده على لويس الثانى، ولرغبته فى توطيد سلطانه بجنوب إيطاليا (٢٥٩).

أما الأغالبة بعد سقوط باري، فإنهم درجوا على شن إغاراتهم على السواحل الغربية لشبه الجزيرة ، وعصفوا مراراً بسالرن ، وتقدموا حتى كابوا ، وفشلت محاولات الإمبراطور فى وقف هجومهم ، وظلوا على ذلك حتى عام ٢٦٢هـ (٨٧٥م) ، وهو العام الذى مات فيه الإمبراطور لويس الثانى(٢٦٠). وكانت مدن الساحل الإيطالى التجارية تؤازر الأغالبة فى هذه الإغارات حتى أن لويس الثانى أعلن أن «نابلى إفريقية أخرى»(٢٦١).

وبتولى شارل الأصلع حكم الإمبراطورية، وبتخليه عن أمور إيطاليا ، أتاح الفرصة لازدياد النفوذ الأغلبى فى شبه الجزيرة مرة أخرى ، كما ضمن للبيزنطيين استعادة سلطانهم فى جنوب إيطاليا ، فقد واصلوا منذئذ نشاط الكارولنجيين ضد الأغالبة(٢٦٢) . ذلك أن الأغالبة - بعد

٢٥٦- يتضح ذلك من الرسالة التى بعثها إلى الإمبراطور البيزنطى غداة سقوط باري، إذ بدأها بقوله : «من لويس الذى هو بفضل الله الإمبراطور أوغسطس الرومانى إلى أخيه العزيز باسل العظيم التقى إمبراطور روما الجديدة» . أنظر ، Halphen : Ibid . pp. 409 . 10 .

٢٥٧- Lot : Op. cit. p. 105 .

٢٥٨- العرينى : الدولة البيزنطية ص٢٩٢ .

٢٥٩- Ostrogorosky : Op. cit. p. 210 .

٢٦٠- Cam . med . hist . vol . 2 . 386 .

٢٦١- Pirenne . Op. cit. p. 182 .

٢٦٢- Cam. med . hist . vol . 2 .p. 386 .

موت لويس الثانى- نجحوا فى مصانعة بعض الأمراء اللومبارد الصغار فى الجنوب، بل ظهروا فى دوقية نابلى ، وهددوا روما نفسها ، وتواطأ معهم بعض موظفى البلاط البابوى على تسليم المدينة إليهم فى عام ٢٦٣هـ (٨٧٦م) ، هذا فى الوقت الذى انصرف فيه الكونت بسو- نائب شارل الأصلع فى إيطاليا- عن توسلات البابوية ، بل إن البابا حنا الثامن حاول - دون جدوى- الاستعانة بالإمبراطور، وفشل فى حث الإمبراطورة ريشيه على التأثير على زوجها لمواجهة الأغالبة . بل أصم الإمبراطور أذنيه عن تهديدات البابا بسحب لقبه الإمبراطورى[٢٦٣]، فلم يجد البابا بدا من شراء سلم الأغالبة بالمال ودفع إتاوة قدرها خمسة وعشرين ألف قطعة فضية [٢٦٤]، كما اضطر إلى أن يتجه ببصره إلى القسطنطينية[٢٦٥].

ومما هو جدير بالذكر أن النفوذ البيزنطى كان قد انتعش فى إيطاليا منذ أن سلم أهالى بارى مدينتهم إلى قائد الثغر البيزنطى سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م) [٢٦٦]، كما كانوا يقومون بعمليات بحرية ناجحة فى مياه صقلية، ويبدو أنهم أقاموا أسطولا دائما عند ثرمة (طبرمين)، ولكن هذا لم يمنع الأغالبة من إقامة قاعدة لهم فى مونت جاريلياتو سنة ٢٦٦هـ (٨٨٢م) [٢٦٧].

وفى عام ٢٦٩هـ (٨٨٥م) أنزلت بيزنطة جيشا بقيادة نقفور فوقاس ، تمكن من تدعيم مركزها فى جنوب إيطاليا [٢٦٨]، ، وأنشأ ثغرين أحدهما ثغر لونجو بارديا وعاصمته بارى، والآخر ثغر كالابريا وعاصمته ريو[٢٦٩].

وعلى الرغم من هذه الإجراءات الدفاعية ، لم تسلم شبه الجزيرة الإيطالية من الاعتداءات الأغلبية، تلك الاعتداءات التى اتخذت طابع الهجوم الخاطف والسلب ثم العودة إلى القواعد

٢٦٣- Hopkins : Op. cit. p. p. 329, 30 .

٢٦٤- القوى البحرية والتجارية ص٢١٩ .

٢٦٥- Hopkins : Op. cit. p. 330 .

٢٦٦- Vasiliev : Op. cit. p. 370 .

٢٦٧- Cam . med. hist. vol . 2 . 149 .

٢٦٨- لويس : القوى البحرية والتجارية ص٢٢٠ .

٢٦٩- Cam . med . hist. vol . 2. p. 150 .

فى صقلية ، ففى سنة ٢٨٧هـ غزى الأغالبة قلورية بقيادة أبى العباس بن ابراهيم بن أحمد، وملكوا ربو عنوة ، وغنموا من الذهب والفضة مالا يحصى، وشحنوا المراكب والأمتعة ورجعوا إلى مسينا، وهدموا سورها [٢٧٠]، وفى عام ٢٩٠هـ (٩٠٢م) أغار الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد على كالابريا ، وعصف بها، وكفت جيوشه عن التوغل داخل شبه الجزيرة بسبب موته المفاجىء فى كوسينزا فعادت هذه الجيوش أدراجها إلى صقلية[٢٧١]. ولو استمر ذلك الحماس الدينى والتفوق الحربى لتمكن الأغالبة من أن يفتحوا إيطاليا كلها، بعد أن دانت لهم صقلية تمامًا بسقوط طبرمين آخر معاقل البيزنطيين فيها.

لكن موت إبراهيم بن أحمد ، واضطراب دولة الأغالبة فى إفريقية فى عهد ابنه أبى العباس عبدالله، وانشغال خليفته زيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعى أدى إلى انصراف الأغالبة عن أعمال الفتح فى إيطاليا . وكان سقوط الدولة الأغلبية على يد الفاطميين الشيعة خلاصا لإيطاليا من الخطر الأغلبى [٢٧٢]. وبالرغم من ذلك فقد احتفظ الأغالبة حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة فى إيطاليا مثل سابينو شمال بنيفنت وجنوب بسطوم، وجاريليانو، ظلت تهدد المناطق المجاورة لاسيما روما ذاتها[٢٧٣].

على كل حال، إذا كنت العلاقات الودية قد سادت زمنا بين الأغالبة فى إفريقية وصقلية والكارولنجيين فى إيطاليا وفرنسا، فقد ظل الطابع العدائى غالبا عليها، خاصة بعد موت شارلمان .

ولما اضطربت العلاقات السياسية ضعفت الروابط الدينية بين كنيسة إفريقية والبابوية ، فتناقصت الكنائس تدريجيا عن ذى قبل، ولم تحفل البابوية بإرسال مندوبيها لبحث المسائل الدينية [٢٧٤]، فلما فشت الانقسامات فى كنيسة إفريقية فى أواخر القرن التاسع، واتصل

٢٧٠- ابن الأثير : الكامل ج٦ ص٢٩٨ ، . Vasiliev : Op. cit. p. 371

٢٧١- ابن الأثير : نفس المصدر ص٦ ، القوى البحرية والتجارية ص٢٢١ .

٢٧٢- القوى البحرية والتجارية ص٢٢١ .

٢٧٣- Lot : Op. cit. p. 105 .

٢٧٤- Latrie : Op. cit . p. 10 .

أساقفها بروما لإرسال مبعوثين من قبل البابا لحسم الخلافات [٢٧٥]، لم يفعل البابا أكثر من تفويض أحد الأساقفة الإفريقيين لمعالجة الأمر ، وطلب منه حضور المجمع الدينى المزمع عقده فى روما.

ومن المحقق أن أساقفة إفريقية لم يتمكنوا من حضور المجامع الدينية فى روما طيلة القرن التاسع [٢٧٦]، ولانجد لذلك تفسيراً سوى اضطراب العلاقات السياسية آنذاك .

ب- العلاقات التجارية

لاشك أن بيزنطة كانت تسيطر على البحر المتوسط والملاحة البحرية فيه حتى ظهور قوة الأغالبة البحرية، إذ باستيلائها على جزر صقلية وقبرص ورودس فضلا عن جزر البليار ، وتحكمها فى المضايق البحرية فى البحر المتوسط، آلت إليها السيادة البحرية، ومن ثم هيمنت على النشاط التجارى وفرضت نوعا من الرقابة التجارية على الشواطىء الإسلامية . ومن الطبيعى أن تحول بيزنطة دون قيام مسلمى شمالى إفريقيا بنشاط تجارى من قواعدهم البحرية فى تونس ، ذلك أن وجود أساطيلهم فى صقلية وقوصرة كان يهدد دائما المدن والموانىء الأغلبية على ساحل البحر المتوسط ، وما إنشاء الأغالبة المحارس والحصون والرباطات إلا خوفًا من التهديد البيزنطى [٢٧٧].

وعلى الرغم من العداء التقليدى بين الأغالبة والبيزنطيين ، فقد قامت بينهما علاقات تجارية محدودة خلال عهود الأمراء الأغالبة الأوائل، وكانت صقلية تمثل حلقة الاتصال فى هذا الصدد ، فتشير المصادر إلى أن المعاهدات التى عقدت بين الطرفين كانت تتضمن بنودا تجارية، تنص على تأمين التجارة وتبادل السلع. فالمعاهدة التى عقدت بين أبى العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب وجريجورى حاكم صقلية فى سنة ١٩٢هـ أسفرت عن تحقيق مزيد من الأمن والرواج التجارى بين إفريقية وصقلية [٢٧٨]. وبفضلها أصبح التجار الأفارقة قادرين على

٢٧٥- Vonderheyden : Op. cit. p. 230 .

٢٧٦- Latrie : Op. cit. pp. 10 , 11 .

٢٧٧- المالكى : رياض النفوس ج١ ص٣٨٤ ، ٣٩٤ .

٢٧٨- نفس المصدر والصفحة .

ممارسة نشاطهم فى صقلية، كما سمح للبيزنطيين بالمتاجرة مع المدن والموانىء الأغلبية[٢٧٩]، فاستورد الأغالبة السكر من صقلية، وصدروا إليها الجلود والسلاح والحرير والعاج[٢٨٠]، وزيت الزيتون[٢٨١].

غير أن هذه العلاقات لم تستمر طويلا بسبب ما جرى من تبادل الإغارات بين الطرفين وما كانت تسفر عنه من سلب ونهب وخسائر اقتصادية ، ويخبرنا ابن الأثير[٢٨٢] أن التجار المغاربة لم يعودوا آمنين على تجاراتهم بسبب تلك الإغارات بعد أن دأب البيزنطيون على اختطافهم من سواحل إفريقية وإرسالهم إلى صقلية أو القسطنطينية.

وبشروع زيادة الله فى فتح صقلية سنة ٢١٢هـ، توقفت العلاقات التجارية تماما، فلم نسمع عن تبادل تجارى بين الأغالبة والبيزنطيين بين ما وصلنا من تفاصيل حول الصراع العسكرى البرى والبحرى بينهما.

وعلى ذلك فمن المستبعد حدوث ما ذكره بيرين[٢٨٤] من أنه فى عام ٢٦١هـ (٨٧٩م) وصل إلى صقلية أسطول تجارى برفقة الأسطول الحربى الذى أرسله الإمبراطور إلى الجزيرة فى نفس العام، وأن هذا الأسطول عاد بكمية هائلة من الزيت المستجلب من إفريقية أدى إلى خفض أسعاره فى القسطنطينية . ومن المحتمل- فى اعتقادنا - أن هذه الكمية من زيت إفريقية كانت فى طريقها إلى المدن الإيطالية التى كانت على صلة تجارية وطيدة بالأغالبة، واستولى عليها نقفور فوقاس وهو يقوم بدعم مركز بيزنطة فى المياه الإيطالية .

وبفضل الانتصارات التى أحرزها الأغالبة على الأساطيل البيزنطية، وإقصاء البيزنطيين عن معاقلهم البحرية فى مالطة وردوس وقوصرة فضلا عن صقلية ، تداعت سيادة بيزنطة

٢٧٩- لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٧٦ .

٢٨٠- idris : Op. cit. p. 305 .

٢٨١- القوى البحرية والتجارية ص١٧٦ .

٢٨٢- الكامل ج٥ ص١٨٦ .

٢٨٣- المكتبة الصقلية ج٢ ص٤٢٧ ، . Bury : Op. cit . p. 292

٢٨٤- Mohamed and charlemagne . p. 181 .

البحرية، واختفت هيمنتها على مصائر تجارة البحر المتوسط، فقد أرغم البيزنطيون على القضاء على نظام الرقابة التجارية الذي ظل مفروضا على السواحل الإسلامية حتى أوائل القرن الثاني الهجري ، «ولم يحدث ذلك نتيجة الدبلوماسية والمفاوضات، ولكن عن طريق تحطيم قوة القسطنطينية البحرية، وبناء قوة أخرى خاصة بالأغالبة»[٢٨٥]. ونجم عن ذلك قيام سكان إفريقية بدور الوساطة فى تجارة البحر المتوسط بين الشرق والغرب[٢٨٦]. كما تسنى لهم أيضا احتكار دور الوساطة التجارية مع عالم البحر المتوسط والعالم الإفريقى جنوب الصحراء[٢٨٧] ، فكانت سفنهم دائبة الحركة إلى موانىء سورية ومصر لجلب التوابل والمتجات الفاخرة من بلاد الشرقين الأدنى والأقصى إلى العالم الغربى[٢٨٨]، كما جلبت قوافلهم الذهب والرقيق من الجنوب للاتجار مع بلاد البحر المتوسط[٢٨٩].

ولاجدال فى أن الأغالبة لعبوا هذا الدور بنجاح، فأمنوا الطرق التجارية برا وبحرا [٢٩٠]، وسكوا عملة طيبة أحرزت شهرة عالمية تداولها التجار فى أسواق بلدان البحر المتوسط[٢٩١].

وتمخض هذا النشاط التجارى الأغلبى عن ازدهار أحوال البلاد الاقتصادية من زراعة وصناعة وتعدين وتجارة، وتألقت المدن والموانىء الأغلبية، وغصت بالفنادق والأسواق وبيوت المال، وازدانت بالعمائر والمنشآت التى لم يبخل الأمراء فى إقامتها وتزيينها .

كما تأثرت أحوال بيزنطة الاقتصادية من جراء فقدان مركزها التجارى السالف ، على الرغم مما تمتعت به من تماسك اقتصادى فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر[٢٩٢]، ولاغرو فقد فقدت ما كان يرد إليها من موارد صقلية وأهمها الغلال والمعادن ، هذا فضلا عن

٢٨٥- القوى البحرية والتجارية ص١٨٤ .

٢٨٦- Heyd : Op. cit. p. 78 .

٢٨٧- Brunschvig: Op. cit. p. 24 .

٢٨٨- القوى البحرية والتجارية ص٢٥٢ .

٢٨٩- نفسه ص٢٥٥ .

٢٩٠- الكامل ج٦ ص٥ .

٢٩١- De Candia : Monnaies Aghlabites . p. 271 .

٢٩٢- Diehl : Op. cit. pp. 52 , 83 . ff .

عن خسارتها الأدبية بعد فقدانها السيادة البحرية [٢٩٣]، «فقد صار البحر المتوسط خاليا من أى نفوذ للأمم النصرانية بشىء من جوانبه»[٢٩٤]، وانتقلت السيادة للدول الإسلامية فى بلاد الشام وكريت وإفريقية والأندلس [٢٩٥].

وفيما يتعلق بالصلات التجارية بين الأغالبة والفرنجة ، فالمعروف أن روح الود سادت علاقاتهما السياسية فترة من الزمن، وكان من المتوقع أن يروج النشاط التجارى بينهما فى عصر شارلمان، لكن الثابت أن تلك العلاقات السياسية الودية لم تتمخض عن صلات تجارية منتظمة بين القيروان وآخن[٢٩٦].

على كل حال لم تنعدم تلك الصلات التجارية، إنما كانت محدودة، وأغلب الظن أن السفارات المتبادلة بين الطرفين أسفرت عن شىء من التبادل التجارى، إذ أكدت إمكان الانتقال بين إمبراطورية الفرنجة وإفريقية على الرغم من السيطرة البحرية البيزنطية. ومما ساعد على ذلك ما أظهره شارلمان من الاهتمام بالشؤون البحرية فى البحر المتوسط ، فحوالى عام ٢٩١هـ (٨٠٧م) كانت بحرية الفرنجة تجوب ساحل ليجوريا وتسكانيا وتحقق لشارلمان سيطرة على المياه الإيطالية [٢٩٧]. وذلك يبطل ما زعمه بيرين[٢٩٨] من من افتقار الفرنجة إلى أسطول بحرى فى البحر المتوسط، فقد بدأ شارلمان يهتم بالنواحى التجارية فى البحر المتوسط لمنافسة البيزنطيين، وكاد يحقق بغيته لولا وفاته[٢٩٩].

وإذا كانت هناك علاقات تجارية بين الفرنجة والشرق الإسلامى[٣٠٠]، فلا شك فى أن إفريقية الأغلبية قد لعبت دورا حيويا فيها، وقد راجت تجارة الرقيق بالذات بين الأغالبة

٢٩٣- Vasiliev : Op. cit. p. 333 .

٢٩٤- ابن خلدون : المقدمة ص٥٤ .

٢٩٥- القوى البحرية والتجارية ص. ٢٥ .

٢٩٦- Heyd : Op. cit . p. 191 .

٢٩٧- لويس : المرجع السابق ص١٦٦ .

٢٩٨- Mohammed and Charlemagne. p. 161 .

٢٩٩- لويس المرجع السابق ص١٨٣ .

٣٠٠- Pirenne : Op. cit. p. 163 .

والفرنجة على الرغم من جهود شارلمان فى محاربتها [٣٠١]، ومن المحتمل أن يكون زيت الزيتون الإفريقى قد صد إلى بلاد الفرنجة .

على أن هذه العلاقات التجارية المحدودة اختفت تماما فى عهود خلفاء شارلمان بعد أن ساد العداء العلاقات السياسية بينهم وبين الأغالبة . وعلى الرغم من سيطرة الأغالبة البحرية فى المنطقة الوسطى من البحر المتوسط، فمن المشكوك فيه أنهم تعاملوا مع الفرنجة ، يشهد على ذلك اختفاء السلع الشرقية التى كان الأغالبة يتحكمون فيها من بلاد الفرنجة ، فلم تعد أسواق آخن تغص بالتوابل والزيت والحرير المشهور وغيره من السلع التى كانت متوفرة فيها من قبل [٣٠٢]. على أننا لانتسلم بما ذهب إليه بيرين من «أن السيطرة الإسلامية- التى كانت القوة الأغلبية تمثل ركيزتها- قد قضت تماما على حركة التجارة الشرقية»[٣٠٣]، وأن «الإسلام مسؤول عن فصم وحدة البحر المتوسط»[٣٠٤]، وأن «مسلمى شمال إفريقية لم يمكنهم القيام بدور بيزنطة السابق فى تجارة البحر المتوسط» ، وأن «التجارة الإسلامية اتسمت بالطابع المحلى بوجه عام»[٣٠٥]، وأن «العلاقات الأغلبية الكارولنجية لم تتعد الحروب وما يتصل بها من سلب ونهب»[٣٠٦]. إذ الثابت أن وحدة البحر المتوسط زمن السيادة البيزنطية كانت قائمة على أساس احتكارى استغلالى ، فالبيزنطيون فرضوا نوعاً من الرقابة التجارية على الدول الإسلامية والمسيحية على السواء [٣٠٧]، واختصوا أنفسهم - وحدهم - بالوساطة التجارية فى التجارة العالمية، ولم يسمحوا لأية قوى أخرى مشاركتهم هذا الدور .

فلما آلت تلك السيادة إلى البحرية الأغلبية تعاونوا مع غيرهم فى نقل التجارة العالمية ، وشاركهم تجار المدن الإيطالية والتجار اليهود المعروفون «بالرهدانية» - «تجار البحر» كما يسميهم ابن خرداذبة [٣٠٨]- هذه الوساطة التجارية.

٣٠١- Heyd : Op. cit . p. 95 .

٣٠٢- Pirenne : Op. cit. p. 172 .

٣٠٣- Ibid . p. 173 .

٣٠٤- Ibid . p. 164 .

٣٠٥- Ibid . p. 174 .

٣٠٦- Loc , cit.

٣٠٧- لويس : القوى البحرية والتجارية ص١٥٩ .

٣٠٨- المسالك والممالك ص١٥٤ .

ولم يكن نشاط الأغالبة فى جنوب إيطاليا مجرد سلب ونهب، بل خاضوا حروبا من أجل الجهاد ، واستقروا بشبه الجزيرة ردحًا من الزمن استقرارا تاما، وأنشأوا المساجد لتكون مراكز للدعوة الإسلامية، فالمفرج بن سالم أقام مسجداً بمدينة بارى [٣٠٩]، والمسجد الذى بنى فى ريو لم يثر نقمة أهلها ، بل احترموا طقوس المسلمين وشعائرهم الدينية[٣١٠]. واتصف أغلب الولاة المسلمين فى هذه الجهات بدماثة الخلق والتسامح الدينى، فكانوا يسمحون للحجاج الفرنجة بالمرور إلى الأماكن المقدسة من الموانىء الإيطالية[٣١١]، وقدموا لهم كافة التسهيلات ، يدل على ذلك رحلة برنار الرشيد الذى أبحر من بارى فى عام ٢٥١هـ (٨٦٧م) قاصداً الأراضى المقدسة بفلسطين[٣١٢].

ونكتفى بما أورده لويس[٣١٣] عن عدم مسؤولية الأغالبة عن عرقلة التجارة العالمية، إذ يقول : «لادليل على أن المسلمين اعترضوا سبيل تجارة أوربا اللاتينية أكثر مما فعلوا مع بيزنطة، والواجب اسقاط هذا الزعم باعتباره خرافة، وإذا كان ثمة شك حول هذا الموضوع، فمن اليسير تبديده لو أننا درسنا طريق الحج إلى الأراضى المقدسة حينذاك ، فالواقع أنه لم يحدث أى ازعاج أو اعتراض من قبل حكام المسلمين لطريق الحجاج، بدليل ازياد أعدادهم ».

وغنى عن البيان أن دولة الفرنجة التى كانت محرومة من التجارة الشرقية زمن السيادة البيزنطية أصبحت السلع الشرقية تصل إليها عن طريق البندقية [٣١٤]، فقد اشترك تجار المدن الإيطالية مع الأغالبة فى عملية الوساطة التجارية [٣١٥]، وتحولت هذه المدن من مجرد ثغور ذات امتيازات خاصة إلى وسطاء فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب[٣١٦]، وعلى الرغم

٣٠٩- البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٧ .

٣١٠- كليليا : مجاهد العامرى ص٢٠٠ .

٣١١- Heyd : Op. cit. p. 92 .

٣١٢- Prienne : Op. cit. p. 169 .

٣١٣- القوى البحرية والتجارية ص١٩٠ .

٣١٤- Pirenne : Op. cit . p. 180 .

٣١٥- Latrie : Op. cit. p. 11 .

٣١٦- لويس : الرجع السابق ص١٨٨ .

من خضوع بعض هذه المدن للسيادة الاسمية البيزنطية وبعضها الآخر لأباطرة وملوك الفرنجة، فإن حافز الربح دفعها إلى عقد صلات تجارية مع مسلمى إفريقية . ومن الطبيعى أن تزداد هذه العلاقات بعد زوال السيادة البيزنطية[٣١٧]، فارتبطت البندقية ونابلى وسالرن وجايتا وأمالفى بعلاقات تجارية مع إفريقية الأغلبية[٣١٨]. وأكثر من ذلك أن بعض هذه المدن - مثل نابلى- ساعدت الأغالبة فى فتح صقلية كما ساعدت بعضها الآخر الأغالبة فى حروبهم بجنوب إيطاليا نفسها، نظير جزء من المغانم [٣١٩]. وقيامها فى وجه الأغالبة فى بعض الأحيان لم يكن مرده إلى تأثرها بالواجب القومى أو الدينى ، بل لخوفها من سيطرة الأغالبة على مياهها الإقليمية مما قد يؤثر فى نشاطها التجارى .

ومن هنا وطدت تلك المدن علاقتها التجارية بالأغالبة ، فالبندقية صدرت الرقيق الأبيض والخشب لمدن أفريقية، ولم تحجم عن تجارة الرقيق إلا بعد تحريم الإمبراطور لوثر لهذه التجارة وعقده معاهدة فى هذا الصدد مع البندقية فى عام ١٢٤هـ (٨٤٠م) [٣٢٠]. وازدهرت أيضا حركة التبادل التجارى بين لونا وبيزا وشمالى أفريقيا [٣٢١]، ولم تثمر جهود البابا يوحنا الثامن فى منع أمالفى من المتاجرة مع الأغالبة[٣٢٢]، وصدرت المدن الإيطالية إلى إفريقية الحديد والخشب والأسلحة[٣٢٣]. أما نابلى ومدن كمبانيا فكانت علاقتها بالأغالبة أشد وثوقا فصدروا إليهم «العبيد والمنسوجات[٣٢٤] نظير حصولهم على زيت الزيتون ومصنوعات بلرم ومدن إفريقية» . ونجم عن ذلك ازدهار أحوال هذه المدن الاقتصادية ، وشاعت العملة الاغلبية فى معاملاتها التجارية[٣٢٥]، بل إن الفرنجة أنفسهم تأثروا بعملة الاغالبة ، فقلدوها فيما ضربوا من عملاتهم الخاصة[٣٢٦].

٣١٧- Pirenne : Op. cit. p. 98 .

٣١٨- Heyd . op. cit. p. 98 .

٣١٩- Pirenne . Op. cit. p. 183 .

٣٢٠- القوى البحرية والتجارية ص١٧٩ .

٣٢١- نفسه ص١٨٠ ، ١٨١ .

٣٢٢- Pirenne : Op. cit. p. 181 .

٣٢٣- لويس : المرجع السابق ص٢٧٠ .

٣٢٤- المكتبة الصقلية ج١ ص١١ .

٣٢٥- لويس : المرجع السابق ص٢٧٢ .

٣٢٦- نفسه ص١٩٦ .

الباب الخامس

نهايــة الأغالبـة

ارتبط ظهور الدعوة الفاطمية فى المغرب بما ساد إفريقية من اضطراب فى عهد الأغالبة الأواخر، ففى الوقت الذى اختل فيه سلطان الأمراء، وانفصمت علاقتهم بالرعية، واندلعت الثورات ضدهم، وشاعت الفوضى فى إفريقية ، وجدت الدعوة للفاطميين حقلا خصيبا نبتت فيه وترعرعت لتنقض على الدولة الأغلبية فتسقطها وتضع حدا نهائيا للنفوذ السياسى السنى فى المغرب.

فقد اضطربت أمور إفريقية فى عهود الأمراء الثلاثة الأواخر إبراهيم بن أحمد وأبى العباس عبدالله وزيادة الله الثالث، وبالرغم مما اتبعه إبراهيم بن أحمد من سياسة رشيدة فى السنوات الست الأولى من حكمه، فلم يلبث أن تخلى عنها بعد إصابته بلوثة جعلته يبالغ فى سفك الدماء ، فقتل إخوته الثمانية وبناته الستة عشرة فضلا عن الكثير من الغلمان والجوارى[1] ، وامتد شره إلى الرعية فاشتط فى فرض المغارم على الناس فتألبوا عليه وأكثروا من الفتن والثورات [2].

ففى سنة ٢٧٥هـ حدثت «ثورة الدراهم» المشهورة احتجاجا على عسف الأمير فى سياسته المالية، وتغييره فى معايير النقد المتداول ، فلم يجد التجار بدأ من إغلاق حوانيتهم ، ولما عول الأمير على حبسهم ، ثارأهل القيروان احتجاجا ، فطلب إلى وزيره أبى عبدالله بن أبى إسحاق أن يهدىء من ثائرتهم فلم يفلح ، فاضطر إلى الخروج إليهم بنفسه، ولم تهدأ الثورة إلا بعد توسط الفقهاء [3].

وفى سنة ٢٧٨هـ[4] نكل إبراهيم بن أحمد بأهل بلزمة من العرب[5]، واغتال غدرا ألف

١- ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص١٧٨ ، ١٧٩ .

٢- نفسه ص١٧٨ ، . . Hopkins : Op. cit. p. 45 , Bruschvig: Op. cit. p. 11

٣- ابن عذارى : ج١ ص١٦ ، ٦١ .

٤- سنة ٢٨٠هـ حسب رواية ابن عذارى. أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٦٣ .

٥- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٣٦ ، Vonderheyden : la Berberie Orientale . p. 256.

رجل من شجعاتهم ، «فكان قتلهم سبب انقطاع دولة بن الأغلب»[٦]، إذ كانوا يخضعون الكتاميين ويذلونهم، بل «اتتخذوهم خولا وعبيدا، وفرضوا عليهم العشور والصدقات»[٧]، فلما نكل بهم أتيح لكتامة أن تتحرر وتناصر أبا عبد الله الشيعي على بنى الأغلب[٨] الذين اضمحل سلطانهم [٩].

وفى نفس العام خرج أهل تونس والجزيرة والأريس وباجه وقمودة، وسبب ثورتهم ظلم إبراهيم بن أحمد ونهبه أموالهم وعيرهم، وبلغ من شدة الثورة أنه لم يبق للأمير من نفوذ إلا على المنطقة الساحلية وطرابلس[١٠] ولكى يسترد نفوذه التزم القسوة فى سلسلة حروب نهب فيها جنوده الأموال، «وسبوا الذرية واستحلوا الفروج»[١١]، وتعرض عرب تونس من بنى تميم لتنكيل القائد ميمون بن حبشى بصفة خاصة [١٢]، ونعتقد أن ما أصاب عرب بلزمة من القيسية وعرب تونس من بنى تميم ساعد على انحلال عصبية الأغالبة، وكان نذير هلاكهم .

وثمة مظهر آخر من مظاهر هذا التدهور تمثل فى استعانة إبراهيم بن أحمد فيما خاضه من حروب بجند من السودان، حقيقة أن الجند السودان عرفوا طريقهم إلى دولة الأغالبة منذ أوائل عهدها حين استخدمهم إبراهيم بن الأغلب- مؤسس الأسرة- فى حرسه الخاص ، لكن أعدادهم زادت [١٣]، فى عهد إبراهيم الثانى واستعاض بهم عن الجند العربى، فزاد سلطانهم حتى تدخلوا فى المنازعات بين أفراد البيت الأغلبى، ونصروا أميرا على آخر، ولم يتورعوا عن سفك دماء بعض أفراد الأسرة الاغلبية .

٦- ابن عذارى : ص١٦٣، ١٦٤ ، النويرى : ورقة ٣٦ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 256

٧- النويرى : ورقة ٢٦ .

٨- ابن عذارى : ص١٦٤، النويرى : ص١٦٤، الباجى المسعودى: الخلاصة النقية ص٣٢ .

٩- ابن الأثير : الكامل ج٦ ص١٢٧ ،

O' Leary : Ashort history of the Fatimid Caliphate. p. 58 .

١٠- البيان المغرب ج١ ص١٦٤ .

١١- ابن عذارى: ص١٦٥ .

Vonderheyden : Op. cit. p. 256 .

١٢- ابن عذارى : ص١٧٣ .

١٣- نفسه ص١٦٤، . Vonderheyden , Op. cit. p. 256

وتفاقم الأمر باغضابإبراهيم الثانى طبقة الفقهاء المالكية[١٤]، فنجم عن ذلك إحجامهم عن التعاون معه فى سياسة الرعية، ورفضوا تولى مناصب القضاء[١٥] وجاهروه بالعداء ونددوا بجوره وعسفه[١٦]. ودافع الفقهاء عن الرعية «وارتبطوا فى أذهان الناس بالزعامة القومية»[١٧]. فالفقيه أحمد بن معتب انتهز تعلق الأمير به وتوسط لديه ليفرج عمن حبسهم من التجار أثناء الدراهم[١٨]. لهذا تحول الأمير الأغلبى عن فقهاء المالكية الكبار وشرع فى الاعتماد على أناس من طبقات أدنى، فحسن البناء الذى ولاه الأمير قضاء قسطيلية ثار أهلها فى وجهه لبغيه وظلمه [١٩]، وأحمد بن وهب قاضى طرابلس كان «قليل العلم»[٢٠]. وإمعانا فى اضطهاد فقهاء المالكية عمد الأمير إلى تولية الاحناف قضاء القيروان، فأمعنوا فى التنكيل بالمالكية، حتى أن القاضى أبا العباس بن عبدون «استطال على طبقة المدنيين وامتهنهم وضرب جماعة منهم كابن معتب والدمنى والعطار وابن المدائنى وأبا القاسم مولى مهرية، وطلب يحيى بن عمر حتى توارى عنه»[٢١]. ولاعجب إذا اتخذ فقهاء المالكية ومن ورائهم الرعية موقفا معاديا للإمارة الأغلبية، ونعتقد أن تلك الحالة من التدهور التى وصلت إليها الإمارة الأغلبية كانت من العوامل التى شجعت العباس بن أحمد بن طولون على محاولة غزو إفريقية، كما أعطت الفرصة لأبى عبدالله الشيعى داعى الفاطميين لممارسة دعوته.

١٤- المالكى : رياض النفوس ص١٤ ، ١٥ من المقدمة .

١٥- لما أرغم عبد السلام بن سحنون على تولى القضاء قال لابنه : «اليوم ذبح أبوك بغير سكين ..» أنظر : الديباج المذهب ص١٦٣ ، ترتيب المدارك قسم ١ من ج٢ ورقة ٧ .

١٦- بعث أبو الاحوص أحمد بن عبدالله فقيه سوسة رسالة إلى ابراهيم بن أحمد يقول فيها: «يا فاسق، ياجائر ، يا خائن ، قد حدت عن شرائع الإسلام ، وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم ..» أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٧٥ .

١٧- رياض النفوس ج١ ص١٦٠ ، ١٦١ .

١٨- البيان المغرب ج١ ص١٦٠ ، ١٦١ .

١٩- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص١٦١ .

٢٠- نفسه ص١٩٤ .

٢١- نفسه ص١٨٧ .

فلما ظهر نفوذ الشيعى وعلا شأنه، حاول إبراهيم بن أحمد إصلاح الأمور «فرد المظالم ، وأسقط القبالات، وأخذ العشر طعاما، وترك لأهل الضياع خراج سنة سماها سنة العدل، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها فى الضعفاء والمساكين»(٢٢)، لكن هذه المسألة انفضت بتنازل إبراهيم بن أحمد لابنه أبى العباس عبدالله عن الحكم ، فامتدت يده إلى تلك الأموال فأنفقها فى ملذاته بدلا من صرفها فى وجوه الإصلاح(٢٣).

وتفاقمت أحوال الإمارة فى عهده القصير، فاضطرب نظامها الإدارى نتيجة إقصائه العمال السابقين وتوليته «على الكور من أحب» (٢٤)، كما ازداد خطر فتيان البلاط وتدخلوا فى شؤون الحكم، وساهموا فى المكائد والمؤامرات داخل البيت الأغلبى، وحسبنا - فى هذا لصدد- اغتيالهم الأمير ليتولى الحكم ابنه زيادة الله الثالث سنة ٢٩٠هـ(٢٥).

وقد اتخذ زيادة الله بعض إجراءات دلت على تداعى دولته واضطراب شأنها ، فقد حاول استرضاء الرؤساء لمبايعته ، لكنهم لم يبايعوا إلا بعد أن أعطاهم الصلات والأموال، ووزع الأعطيات على الجند(٢٦) ، واستهل حكمه بذبح أقاربه، فأمر بقتل أعمامه فى جزيرة الكراث- على اثنى عشر ميلا من مدينة تونس(٢٧)- كما استحل دم قتلة والده من الفتيان، واستدعى أخاه أبا عبدالله الأحول من طبنه ليلقى نفس المصير(٢٨). ويذهب ابن الأثير(٢٩) إلى أن موت الأحول أفضى إلى ضعف البلاد فأصبحت فريسة لأبى عبدالله الشيعى. كما امتدت يده إلى عمه أبى الأغلب الزاهد المقيم بسوسة، وكذلك إلى ابن الصياد وغيره من مشاهير الدولة(٣٠).

٢٢- البيان المغرب ج١ ص١٧٨ .

٢٣- نفس المصدر والصحفة.

٢٤- نفسه ص١٧٩ .

٢٥- نفسه ص١٨٠ .

٢٦- نفسه ص١٨٢ .

٢٧- نفسه ص١٨٣ .

٢٨- نفس المصدر والصفحة .

٢٩- الكامل ج٦ ص١٢٣ .

٣٠- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٨٤ . . Fournel : les Berbers. vol 2 . p. 61

وانغمس زيادة الله فى حياة اللهو والترف [٣١]، فلازم الندماء والمضحكين ، وأهمل أمور الدولة وأحوال الرعية[٣٢].

وواصل زيادة الله سياسة والده وجده فى تولية العمال من قليلى الخبرة والدراية، فلم يعمر حماس بن مروان قاضى القيروان طويلا مع ما عرف عنه من علم وعدل فى أحكامه [٣٣]، واستبدل بإبراهيم بن الخشاب الذى ظل فى القضاء حتى نهاية الدولة مع أنه «لم يكن عنده علم ولا حفظ» [٣٤]، أما ابن أبى سمحان الذى ولى قضاء بعض الكور «فكان نظير ابن الخشاب فى جميع معانيه»[٣٥].

وليس أدل على فساد جهاز الدولة الإدارى مما عرف عن تشيع وزراء زيادة الله وعماله ووجهاء دولته، فكانوا على صلة بأبى عبدالله الشيعى يتلقون منه الأوامر وينفذونها [٣٧]، وقام الوزير ابن الصائغ بدور خطير فى هذا الصدد [٣٧]، حتى لقد سمح عامل طرابلس الأغلبى بمرور المهدى إلى المغرب [٣٨]، مما يدل على أن الأمير الأغلبى أفلت منه زمام السيطرة على حدود الدولة.

فإذا أضفنا إلى كل ما سبق تخاذل الكثيرين من قواده وخروجهم عليه[٣٩]، وحنق البربر- عموما- على العرب[٤٠] وحبهم للمغامرة والحروب مع ما اشتهروا به من التعصب لآل

٣١- ابن الآبار : الحلة السيراء ص٢٩٤ .

٣٢- الكامل ج٦ ص١٢٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص٥٠ .

٣٣- البيان المغرب ج١ ص١٨٣ .

٣٤- الخشنى: طبقات علماء افريقية ص١٧٦ .

٣٥- ذكر الخشنى أن رجلا قال لسعيد بن الحداد : من أعلم ، ابن الخشاب أو ابن سمحان، فقال : إن سألتنى أيهما أغرق فى الجهل أنبأتك ، وأما أعلم ، فما علمته. أنظر : طبقات علماء إفريقية ١٧٦ .

٣٦- الكامل ج٦ ص١٢٨ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 297

٣٧- Hopkins : Op. cit. p. 2 .

٣٨- ابن الأثير : المرجع السابق، ص١٣٠ .

٣٩- البيان المغرب ج١ ص١٨٨ .

٤٠- Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale . p. 62 .

البيت والاعتقاد بظهور المهدى المنتظر، أدركنا النجاح الذى أحرزته الدعوة الفاطمية فى إفريقية[٤١].

فبلاد المغرب كانت ميدانا من ميادين الدعوة للمهدى الذى «سيظهر ليملأ الأرض نورا وعدلا»، واتخذت الدعوة طابع الكتمان والسرية نتيجة الخوف من إرهاب بنى العباس، ولايخفى ما جرى عليه العباسيون من التزام سياسة العنف فى معاملة بنى عمومتهم ، لذلك عاش محمد الحبيب بسلمية - من أرض حمص- متخفيا ، وأخذ يرسل الدعاة إلى كل الأنحاء[٤٢].

واختلف إلى المغرب من دعاته رجلان هما أبو سفيان والحلوانى ليمهدا للدعوة الشيعية فيه، ونجحا فيما ذهبا إليه [٤٣]- إلى حد كبير- وخاصة فى كتامة . وبالرغم من افتقارنا إلى مزيد من أخبارهما فلاشك أنهما ماتا فى وقت متقارب [٤٤]، بعد أن تركا أثرا واضحا لدى الكتاميين ساعد فيما بعد أبا عبدالله الشيعى على مواصلة جهودهما فى الدعوة للمهدى[٤٥].

كان أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد المعروف بالشيعى[٤٦] قد اتصل بالإمام محمد بن جعفر ، فتوسم فيه الكفاية وأرسله إلى ابن حوشب القائم على أمر الدعوة باليمن

٤١- Vonderheyden : Op. cit. p. 284, Hassan Ibrahim : Relations between the fatimids in North Africa and Egypt. Bulletin of the Faculty of Arts. Cairo University Vol X. part. 2 . p. 50 .

٤٢- البيان المغرب ج١ ص١٦٦-، العبر ج٣ ص٣٦٤ .

٤٣- ابن خلدون : المرجع السابق ص٣٦٤ ، . O'Leary : Op. cit. p. 52

جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص١٨ .

٤٤- الكامل ج٦ ص١٢٧ .

٤٥- كتاب الاستبصار ص٢٠٢ .

٤٦- اختلف المؤرخون حول أصله وموطنه ، فبعضهم يذهب إلى أنه من رام هرمز بنواحى خوزستان ، ثم قدم إلى العراق للعمل بسوق الغزل فى البصرة ، أنظر : العبر ج٢ ص٣٦٢ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص٦٨ . لكن المقريزى فى خططه يؤكد أنه من أهل صنعاء باليمن، متفقا فى ذلك مع ابن الأثير. انظر : المقريزى : الخطط ج٢ ص١٥ ، الكامل ج٦ ص١٢٧ . بينما يرى محمد بن محمد اليمانى أن الكوفة كانت مقر إقامته . أنظر : ملحق كتاب : . Ivanova : Ismaili tradition concerning the rise of Fatimids. p. 121

للاسترشاد بأمره[٤٧] قبل مسيره إلى المغرب، ومن صنعاء أمده ابن حوشب بالأموال قائلا : «إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك» [٤٨]. فتوجه أبو عبدالله إلى مكة، وأثمرت اتصالاته بحجاج كتامة بفضل «معرفته وجدله وفصاحته»[٤٩]، فتعلقوا به لما كان عليه من العبادة والزهد [٥٠]، ورافقهم فى عودتهم، وأدركوا القيروان عام ٢٨٠هـ. ومن القيروان اتجه الشيعى إلى جبل إيكجان[٥١] فى بلاد كتامة واتخذه مقرا . والحق- لم يكن الأمر ممهدا له تماما، فلم تلبث الخلافات والحروب أن نشبت بين رجال كتامة، إلا أنهم سرعان ما انصاعوا له، «وأطاعوه واجتمعوا على دعوته»[٥٢]، واشتد ساعده بانضمام كثير من القبائل الأخرى إليه، فعكف على تنظيم الدعوة، ودعى الناس إلى «طاعة الإمام المعصوم من أهل البيت»[٥٣]. وأخذ يحضهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عما انتشر بينهم من الرذائل وقبيح العادات [٥٤]، كما «صير لهم ديوانا ، وألزمهم العسكرية»[٥٥].

فلما انتهت مرحلة الدعوة والإعداد بدأت مرحلة الصدام المسلح بين الشيعى والأغالبة، ذلك الصدام الذى انتهى بقيام «دولة مستجدة» على انقاض دولة الأغالبة ، تلك هى دولة الشيعة العبيديين[٥٦].

٤٧- إتعاظ الحنفا ص٦٩ ، . O' Leary : Op. Cit. p. 51

٤٨- الكامل ج٦ ص١٢٧ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص١٩ .

٤٩- البيان المغرب ج١ ص١٦٦ .

٥٠- العبر ج٣ ص٣٦٢ .

٥١- أقام أبو عبدالله فى مكان يسمى «فج الأخيار» ، وقال لأنصاره : «إن هذا المكان ما سمى إلا بكم، ولقد جاء فى الآثار أن للمهدى هجرة ينبو فيها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من الكتمان ..» . أنظر : خطط المقريزى ج٢ ص١٦ .

٥٢- ابن خلدون : العبر ج٣ ص٣٦٢ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص٢٠ .

٥٣- ابن عذارى : ج١ ص١٧٢ .

٥٤- ابن حوقل : المسالك والممالك ص٦٦ .

٥٥- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٧٢ .

٥٦- ابن خلدون : المقدمة ص٢٥٩ .

وجدير بالذكر أن الشيعى على الرغم من ازدياد سطوته ، واستفحال قوته، تحاشى جذب الأنظار إليه، يذكر فندرهيدن[٥٧] أن أهل إفريقية لم يعرفوا الكثير عن أخباره لجهلهم بما كان يدور فى بلاد كتامة، وحين هم الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد باستطلاع أخباره، اكتفى بسؤال عامله على مدينة ميلة، «فصغره عنده وذكر له أنه يلبس الخشن ويأمر بالخير والعبادة»[٥٨].

والراجح أن إبراهيم بن أحمد تنبه إلى مرامى أبى عبدالله الحقيقة فبعث إليه رسولا[٥٩] ليقف على حقيقة أمره، ومعه رسالة[٦٠] يمنيه فيها بالجاه والسلطان إذا أطاع ، ويهدده بسوء العاقبة إذا رام بالدولة شرا. ولم يستجب الشيعى لمغريات ابن الأغلب بل كشف عن حقيقة موقفه، وأنه صاحب دعوة لايثنيه عنها ترغيب أو ترهيب [٦١].

ولم ينتظر أبو عبدالله ريثما تباغته جيوش إبراهيم بن أحمد ، بل شرع فى مناوشة مدينة ميلة، وهى معقل حصين تحيط به سلسلة من القلاع[٦٢]. وتجلت الخيانة فى صفوف الأغالبة ، فأرشد رجل من أهل المدينة- يدعى الحسن بن أحمد [٦٣]- الشيعى على أماكن الضعف فى حصونها[٦٤]. ضرب الشيعى الحصار حول ميلة ، وفتح أرباضها بعد معارك عنيفة استبسل فيها المحاصرون[٦٥] فطلب أهل المدينة الأمان ، فأمنوا ، وانسابت جيوش الشيعى داخل المدينة[٦٦]. وبسقوط ميلة سقط حصن الدفاع الأول عن إفريقية سنة ٢٨٩هـ[٦٧].

٥٧- La Berberie orientale . pp. 291 . 92 .

٥٨- الكامل ج٦ ، العبر ج٣ ص٣٦٢ .

٥٩- ذكر النويرى أن هذا الرسول يدعى ابن المعتصم المنجم. أنظر : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٦ .

٦٠- أنظر : ملحق ٥ .

٦١- انظر : ملحق ٦ .

٦٢- Vonderheyden : Op. cit. p. 292 .

٦٣- ذكر النويرى أن شخصا من وجوه ميلة يدعى قيس بن جرير هو الذى ارتكب هذه الخيانة .
أنظر : نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٢٩ .

٦٤- الكامل ج٦ ص١٢٨ .

٦٥- نفس المصدر والصفحة.

٦٦- العبر ج٣ ص٣٦ .

٦٧- Vonderheyden : Op. cit. p. 292 .

سارع ابراهيم بن أحمد بإرسال ابنه الأحول على رأس جيش عدته اثنى عشر ألفا، أتبعه بمثله لملاقاة الشيعى، ونجح الأحول فى هزيمته، وكاد يفتك برجاله لولا سوء الأحوال الجوية، فاستطاع الشيعى الانسحاب إلى إيكجان وجعلها «دار هجرة»(٦٨) بينما اتخذ الأحول طريقه نحو تاصروت وميلة فأضرم فيهما النيران ثم عاد إلى القيروان(٦٩).

وفى تلك الأثناء تنازل إبراهيم بن أحمد عن الحكم لابنه أبى العباس ثم مات هذا الأخير سنة ١٩٠هـ ، وتولى زيادة الله الثالث الإمارة، واستهل زيادة الله حكمه باغتيال الأحول الذى كان قد توجه لقتال الشيعى إذ كتب إليه «يستقدمه وقتله»(٧٠). ويعتبر فورنل وفندرهيدن(٧١) مقتل الأحول «بداية النهاية لدولة الأغالبة».

نشط الشيعى فنظم الجيوش وأذكى الحماس بين رجاله ، وأخبرهم «أن المهدى يخرج فى هذه الأيام»، كما اتصل سرا برجال زيادة الله لينصروه (٧٢). وبدأ الشيعى الهجوم فاتجه إلى شطيف (٧٣)، وحاصرها أربعين يوما دون جدوى فانسحب إلى إيكجان ، وأعاد تنظيم صفوفه ثم عاود حصار المدينة فسقطت فى يده وقتل عاملها ابن عسلوجة(٧٤).

بعد سقوط شطيف أعد زيادة الله جيشا كبيرا، إذ جند مائة ألف مقاتل (٧٥)، وزودهم بالأموال والسلاح (٧٦)، وانضم إلى هذا الجيش بعض الكتاميين من أعداء الشيعى، كما انضم

٦٨- إتعاظ الحنفا ص٧٩ .

٦٩- الكامل ج٦ ص٢١٧ ، العبر ص٣٦٢ .

٧٠- ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة.

٧١- Les Berbers . vol . 2 . p. 61 , La Berberie Orientale , p. 293 .

٧٢- الكامل ج٦ ص١٢٨ ، اتعاظ الحنفا ص٨٠ ، الخطط ج٢ ص١٧ .

٧٣- ذكر فندرهيدن أن الشيعى استولى على ميلة بعد استحواذه على شطيف ، أنظر : La Berberie Orientale . p. 293 .
والصحيح استرداده ميلة قبل توجهه إلى شطيف ، أنظر : نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٢٩ .

٧٤- نفس المصدر والورقة ٣٠ .

٧٥- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٣٠ ، المنصورى : زبدة الفكرة ج٥ ورقة ١٥٧ .

٧٦- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٠ .

إليه «كل شجعان إفريقية »[٧٧]، «وأمجاد العرب والموالى»، لكن لم يحقق النصر لجهل قائده بفنون الحرب [٧٨]. فقد مكث القائد ابراهيم بن حبشى بقسنطينه ستة أشهر منتظرا قدوم الشيعى إليه [٧٩]، ولم يجازف الشيعى بملاقاة هذا الجيش الضخم إنما آثر التريث ، فبعث بطلائعه للاستكشاف ، فالتقت بجيش الأغالبة عند بلدة كزمة [٨٠]. ثم انقض الشيعى بقواته على حين غرة فأجهز على جيش ابن حبشى الذى فر بفلوله إلى إفريقية مدحورا ، «وغنم الشيعى من الأموال والامتعة والسلاح مالا يحصى كثرة»[٨١]. وكان لهذا النصر أثر طيب على الشيعية والكتاميين «فشرقت أنفسهم ، وتحققت آمالهم، وصح عندهم ما كان الشيعى يعدهم»[٨٢] فى الوقت الذى ساد فيه إفريقية الهلع والخوف [٨٣]، وبدا الخطر الشيعى محدقا منذرا بابتلاع إفريقية كلها بعد أن دانت للشيعى جميع المناطق الواقعة غربى القيروان[٨٤].

ووضح تخاذل الأغالبة فى موقف زيادة الله الثالث من رحلة عبيدالله المهدى الذى أدرك المغرب سنة ٢٩٢هـ، فقد ظل عبيدالله مقيما بسلمية، تصل إليه الأموال من الدعاة فيغدق على العمال العباسيين «فيصير كل من يلى البلد شبيها بالعبد له لجزيل ما يوليه»[٨٥]. ولكن

٧٧- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٣٠ .

٧٨- نفس المصدر والصفحة.

٧٩- العبر ج٣ ص٣٦٣ .

٨٠- وردت عند ابن عذارى «كينونة». أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٨٦ وعند ابن خلدون «بلزمة». أنظر : العبر ج٤ ص٣٦٣ وكذلك عند فندرهيدن La Berbeire Oriental p. 294 لكن الثابت أن بلزمة لم تسقط فى يد الشيعى إلا بعد استيلائه على طبنة فيما بعد. أنظر : النويرى: نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٠ ، ابن خلدون : العبر ج٣ ص٣٦٣ .

٨١- النويرى : المرجع السابق ورقة ٣٠ .

٨٢- نفس المصدر والصفحة.

٨٣- البيان المغرب ج١ ص١٨٧ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 294

٨٤- حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص٥٠ .

٨٥- سيرة جعفر الحاجب ، رواية محمد اليمانى أنظر : ص١٠٨ من ملحق كتاب : Ivanova : Ismaili tradition ...

أحد العمال الترك أفضى إلى الخليفة المكتفى بخبره ، فأمر بالقبض عليه، وأبلغ الدعاة ببغداد المهدى الخبر ، فغادر سلمية[٨٦] فى خاصته ومواليه [٨٧]. وقد اتجه المهدى إلى دمشق فطبرية فالرملة حتى وصل مصر [٨٨]، ثم تمكن من مغادرتها إلى المغرب بعد إفلاته من عاملها عيسى النوشرى[٨٩]، وعند طرابلس[٩٠] تركه أخو الشيعى واتجه إلى القيروان[٩١]، لكنه وقع فى يد زيادة الله بعد أن وشى به بعض التجار، وأنكر أخو الشيعى علاقته بالمهدى فحبسه زيادة الله مدة ثم أطلق سراحه[٩٢]. وأرسل زيادة الله إلى عامله على طرابلس للقبض على المهدى، فأجاب بأن المهدى خرج إلى قسطيلية . وغادر المهدى قسطيلية على وجه السرعة ومر بتوزر فى طريقه إلى سجلماسة [٩٣]، وبقى آمنا فى رحاب أميرها اليسع بن مدرار بعد «أن أهدى إليه وواصله»[٩٤] وقد بعث زيادة الله كتابا إلى اليسع بشأنه فى الوقت الذى وصله كتاب الخليفة المكتفى يأمره بالقبض عليه، «فتغير اليسع بن مدرار على المهدى وحبسه»[٩٥]،

٨٦- العبر ج٣ ص٣١٣ .

٨٧- إصطحب المهدى معه داعى دعاته فيروز ، وطيب ، ومحمد بن زكرياء، وأبا يعقوب القهرمانى ومحمد بن عزيزة وجعفر الحاجب . انظر : سيرة جعفر الحاجب ص١١٠ .

٨٨- نفسه ص١١٢ .

٨٩- المقريزى : إتعاظ الحنفا ص٨٢ ، جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ص٢٢ . ويذكر بعض المؤرخين رواية مؤداها أن النوشرى لم يكن على علم بأمر المهدى، لذلك أطلقه اعتقادا بأنه ليس إلا تاجرا . أنظر: ابن الأثير: الكامل ج٦ ص١٢٩، ابن خلدون: العبر ج٣ ص٣٦٣، Fournel : Op.cit. vol . 2 . p. 69 والراجح أنه كان يعلم حقيقة أمره وأطلقه بعد أن قدم إليه الأموال وأتحفه بالهدايا جريا على سياسته مع العمال العباسيين . أنظر : كتاب شرح الأخبار ص٣٣ من ملحق كتاب Ivanova السابق .

٩٠- فى طريق المهدى إلى طرابلس خرج عليه لصوص عند موضع يسمى الطاحونة نهبوا قافلته ومتاعه وكتبه وملاحم آبائه ، فاغتم لفقدها . انظر : الكامل ج٦ ص١٢٩، العبر ج٣ ص٣٦٣ .

٩١- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٢ .

٩٢- الكامل ج٦ ص١٢٣ .

٩٣- سيرة جعفر الحاجب ص١١٩ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص٢٣ .

٩٤- ابن الأثير : الكامل ج٦ ص١٣٠ ، جمال سرور : المرجع السابق ص٢٣ .

٩٥- العبر ج٣ ص٣٦٢ ، شرح الأخبار ص٣١ .

وظل المهدي حبيسا في سجلماسة والشيعي مشغولا في حرب الأغالبة. ونجاح المهدى على ذلك النحو في عبور إفريقية واستمالته العمال الأغالبة، ينهض دليلا على براعة الدعوة في التخفي والتستر من ناحية، وعلى تداعي الدولة الأغلبية وتقلص سلطان أميرها من ناحية أخرى[٩٦].

وكما أخفق زيادة الله في القبض على المهدى ، منيت جيوشه بالهزائم المتوالية على يد الشيعي، ففى سنة ٢٩٣ هـ أسند قيادة جيشه إلى مدلج بن زكريا وأحمد بن مسرور الحال، ولكنهما انتهزا فرصة قيادة هذا الجيش الضخم واتجها إلى القيروان للإطاحة بالأمير، وكادا يحققان غرضهما لولا خروج أهل القيروان عليهما، وقتلهم مدلج بن زكريا[٩٧]. وحاول زيادة الله استمالة الجند ، فأسرف في بذل الأموال، حتى أنه كان يعطيهم «الأموال جزافا بالصحاف كيلا بلا وزن»[٩٨]، وأخفق زيادة الله في تحصين باغاية وطبنة ، وأسند القيادة لقواد جدد وأغار بنفسه على قلاع الشيعي دون جدوى ، فلم يستطع استعادة طبنة وبلزمة[٩٩]، وأصبحت حدود إفريقية الغربية مكشوفة تماما.

اتجه الشيعي في سنة ٢٩٣ هـ بقواته إلى مدينة طبنة وحاصرها «ونصب عليها الدبابات »، فسقط سورها بعد معركة حامية، واستسلمت المدينة بعد أن استأمن أهلها [١٠٠]، ثم توجه إلى بلزمة فحاصرها ورماها بالنار فأحرقها «وفتحها بالسيف ، وقتل الرجال، وهدم الأسوار»[١٠١]. وعمل أبو عبدالله بعد فتح بلزمة على استمالة أهل إفريقية «فرفض جباية العشور عينا ، ولم يقبل الخراج من المسلمين في الوقت الذى أخذ فيه الجزية والصدقة مالا عملا بتعاليم الشريعة» [١٠٢]، وقد أثمرت تلك السياسة وحققت أغراضها فأقبل أهل إفريقية على الشيعي «وكاتبوه، ودخلوا في طاعته»[١٠٣].

٩٦- Vonderheyden : Op. cit. p. 297 .

٩٧- البيان المغرب ج١ ص١٨٨ ، ١٨٩ .

٩٨- نفسه ص١٨٩ .

٩٩- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٠ .

١٠٠- الكامل ج٦ ص١٣٠ .

١٠١- لاسبيل لتصديق قول ابن عذارى بأن بلزمة سقطت في يد الشيعي بالامان .
أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٩١ .

١٠٢- نفسه ص١٩٢ .

١٠٣- نفس المصدر والصفحة.

وبتحول الرعية إلى جانب أبى عبدالله ضاعت جهود زيادة الله سدى، فقد جند اثنى عشر ألفا ، وأسند قيادتهم إلى هرون الطبنى، وتمكن هرون من استرداد مدينة «دار ملوك»، ونكل بأتباع الشيعى فيها، لكنه ما لبث أن ارتد على عقبيه وتبعته جيوش الشيعى فأجهزت عليه[١٠٤].

ولم يجد زيادة الله بدا من الخروج لمواجهة الغزاة بنفسه ، لكنه ما كاد يدرك الأربس حتى تراجع بعد أن أشار عليه أصحابه بالعدول حتى لاتسقط دولته إذا ما حاقت به الهزيمة[١٠٥]، فانصرف عائدا إلى رقادة بعد أن عهد بالقيادة إلى إبراهيم بن الأغلب، وفى رقادة واصل حياة اللهو والمجون[١٠٦] « ومنادمة العيارين والزمامرة »[١٠٧].

ولم يجد الشيعى صعوبة تذكر فى الاستيلاء على مدينة باغاية[١٠٨]، فقد كاتبه أهلها ودعوه لدخولها [١٠٩].

وفكر زيادة الله فى الهرب إلى مصر، لكنه تراجع خشية الثورة عليه [١١٠]، فآثر البقاء ليشهد نهاية ملكه .

لم يدخر الشيعى وسعا فى فتح ما بقى من معاقل الأغالبة وحصونهم فاستولى على مسكيانة[١١١] وتبسة ومدبرة ومرمجنة[١١٢] ومجانة والقصرين[١١٣] بعد أن أمن الناس على

١٠٤- الكامل ج٦ ص١٣ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٠ ، العبر ج٣ ص٣٦٣ ، Vonderheyden : Op. cit. p. 301 .

١٠٥- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٢١ ، . O'Leary : Op. cit. p. 64

١٠٦- إتعاظ الحنفا ص٨٦ .

١٠٧- البيان المغرب ج١ ص١٩٣ .

١٠٨- العبر ج٣ ص٣٦٣ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٠ .

١٠٩- الكامل ج٦ ص١٣٠ .

١١٠- البيان المغرب ج١ ص١٩٥ .

١١١- إتعاظ الحنفا ص٨٦ .

١١٢- الكامل ج٦ ص١٣١ .

١١٣- العبر ج٦ ص١٣١ .

أنفسهم وأموالهم[١١٤]. ثم سقطت قسطيلية وغنم الشيعى ما بها من أموال وعدد [١١٥]، ودانت له قفصة فقفل عائدا إلى ايكجان [١١٦]، وأقام بها قرابة شهرين دون قتال [١١٧].

إنتهز ابراهيم بن الأغلب هذه الفرصة ، فحاول استرداد باغاية[١١٨] دون جدوى، بينما شغل زيادة الله بالاقتصاص من كبار رجال الدولة الذين تفشت فيهم الخيانة[١١٩]، وساد الذعر أهل إفريقية الذين «خافوا على ذراريهم السبى والاسترقاق»[١٢٠]، فتخلى القيروانيون عن حراسة مدينة رقادة [١٢١]، وعادت رسل الأمير من بغداد بخفى حنين .

ويبدو أن اعتكاف الشيعى فى إيكجان كان بقصد الإعداد للمعارك الفاصلة فى قلب إفريقية ذاتها بعد سيطرته على ممرات جبال الأطلس الشرقية [١٢٢]، وقد نجح الشيعى فعلا فى تجنيد مائة ألف مقاتل[١٢٣] توجه على رأسهم إلى مدينة الأربس- على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان[١٢٤] - حيث عسكر الجيش الأغلبى بقيادة إبراهيم بن الأغلب [١٢٥]. وفى أوائل جمادى الأخيرة سنة ٢٩٦هـ التقى الجيشان ، وبكر الجيش الأغلبى بإحراز نصر سريع ، وحاول الشيعى القيام بحركة التفاف حول الجيش الأغلبى فبعث ستمائة من فرسانه للقيام بهذه المهمة[١٢٦]، والتقت هذه الكتيبة بكتيبة أغلبية نكلت بها . وبلغ الخبر ابن الأغلب فأسرع

١١٤- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٣١ .

١١٥- العبر ج٣ ص٣٦٣ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٦٠ .

١١٦- ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة.

١١٧- البيان المغرب ج١ ص١٩٧ .

١١٨- ابن خلدون : المرجع السابق ص٣٦٤ .

١١٩- ابن عذارى : المرجع السابق ص١٩٧ ، ١٩٨ .

١٢٠- نفسه ص١٩٧ .

١٢١- نفسه ص١٩٥ ، ١٩٦ .

١٢٢- Vonderheyden : Op. cit. p. 303 .

١٢٣- العبر ج٣ ص٣٦٣ ، يبالغ المؤرخون حين يقدرون جيش الشيعى بمائتى ألف جندى.

أنظر : الكامل ج٦ ص١٣١ ، اتعاظ الحنفا ص٤١ .

١٢٤- البكرى : المغرب ص٤٦ .

١٢٥- ابن الأثير : المرجع السابق ص١٣١ .

١٢٦- اتعاظ الحنفا ص٨٦ .

بالهرب إلى القيروان [١٢٧]، لكن جيش الشيعى لاحقه وأعمل فى رجاله القتل والأسر والغنيمة [١٢٨]، وانساب الشيعة داخل المدينة، وينسب إليهم ذبحهم الناس فى المساجد «حتى كانت الدماء تسيل من أبواب المسجد كما يسيل الماء من وابل الغيث»[١٢٩]، واستبيحت المدينة لجند الشيعى[١٣٠]، ثم غادرها إلى قمودة [١٣١].

حاول زيادة الله أن يدعى النصر لنفسه فأمر بقطع رؤوس المسجونين وأن يطاف بها فى شوارع القيروان مدعيا بأنها رؤوس الشيعة الذين حلت بهم الهزيمة [١٣٢]، لكن ذلك لم ينطل على الرعية، فقد تيقنت من الحقيقة وسادها الذعر والخوف «وجعلت الخاصة وأهل الخدمة يفرون من رقادة»[١٣٣]، ولم يستطع الأمير الأغلبى أن يلم شمل الجند بالرغم من سخائه، فقد كان يبذل للفارس عشرين «ديناراً وللراجل عشرة[١٣٤]»، ولم يجد زيادة الله مناصا من الهرب، فلم يستجب لنصيحة وزيره ابن الصايغ فى البقاء لمواصلة القتال، واتهمه بالتواطؤ مع الشيعى، وجمع ما خف حمله من المال والجواهر وخرج برفقة وجوه رجاله وفتيانه وعبيده من مدينة رقادة لأربع بقين من جمادى الأخيرة سنة ٢٩٦هـ ميمما وجهه صوب المشرق [١٣٥].

وأحدث هرب زيادة الله هرجًا كبيراً فى إفريقية، فخرج أهل القيروان لنهب قصور بنى الأغلب فى رقادة العامرة بالأسواق والفنادق والقصور [١٣٦]، واستمرت عملية النهب هذه ستة

١٢٧- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٣٠ .

١٢٨- الكامل ج٦ ص١٣٢ .

١٢٩- البيان المغرب ج١ ص١٩٩ .

١٣٠- العبر ج٣ ص٣٦٤ .

١٣١- نفس المصدر والصفحة ، ويذكر ابن عذارى أنه انصرف إلى باغاية .

أنظر : البيان المغرب ج١ ص١٩٩ .

١٣٢- Vonderheyden : Op. cit. p. 309 .

١٣٣- ابن عذارى : المرجع السابق ص٢٠٠ .

١٣٤- نفس المصدر والصفحة .

١٣٥- الحلة السيراء ص٢٩٤ ، العبر ج٣ ص٣٦٤ .

١٣٦- المغرب ص٢٧ .

أيام[١٣٧] جردت فيها المدينة من أبهتها وعظمتها، وانتزعت أبواب القصور الأغلبية وسرقت محتوياتها[١٣٨].

وفي تلك الأثناء حاول إبراهيم بن الأغلب قائد معركة الأربس القيام بجهود يائسة لإحياء الإمارة الأغلبية، فدخل القيروان، ونزل قصر الإمارة، وعمل على تهدئة العامة واستنهاض هممهم، منددا بسوء سياسة زيادة الله الثالث ورجاله، مظهرا ضعف الشيعي وإمكان التفوق عليه. ولما دعاهم لمؤازرته بالمال والرجال انفضوا من حوله، وكادوا يفتكون به لولا إسراعه بالهرب للحاق بزيادة الله[١٣٩].

أما أبو عبدالله الشيعي، فحين ترامى إلى سمعه هرب زيادة الله، أرسل إلى رقادة قائدين من قواده هما عروبة بن يوسف والحسن بن أبي خنزير على رأس ألفين من الفرسان، تمكنا من إقرار أمورها، وتأمين سكانها[١٤٠]، بينما خرج وجوه أهل القيروان وفقهاؤها[١٤١] للترحيب بالشيعي «مداراة له»[١٤٢]، وهنأوه بالفتح، فاستقبلهم استقبالا حسنا وأعطاهم الأمان[١٤٣]. وفي رجب من سنة ٢٩٦ هـ دخل الشيعي رقادة، ونادى أهلها بالأمان، ونكل بمن فيها من موالي الأغالبة وخاصة السودان[١٤٤]، وقسم دورها على أتباعه الكتاميين، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وجواريه وأمر بحفظها[١٤٥].

١٣٧- الكامل ج٦ ص١٣٢ .

١٣٨- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٤٢ .

١٣٩- العبر ج٣ ص٣٦٤ ، اتعاظ الحنفا ص٨٧ .

١٤٠- البيان المغرب ج١ ص٢٠٤ ، العبر ج٣ ص٣٦٤ .

١٤١- اشتهر الفقهاء بعدائهم للشيعي حتى أفتوا بأن «جهاده أفضل من جهاد الشرك». أنظر : الدباغ : معالم الايمان، ج٣ ص١٨٥ . كما لعبوا دورا قياديا في مقاومته وحض الرعية على مناوءته . أنظر : القاضي عياض . ترتيب المدارك القسم الأول من الجزء الثاني ورقة١٤، ابن عذاري : البيان المغرب ج١ ص١٨٥ . ومع ذلك عاملهم الشيعي معاملة طيبة لكسب جانبهم نظرا لما لهم من تأثير ومكانة في نفوس الرعية. أنظر :
Vonderheyden : Op. cit . p. 311 .

١٤٢- القاضي عياض : المرجع السابق ورقة ٦٣ .

١٤٣- الكامل ج٦ ص١٣٢ .

١٤٤- نفس المصدر والصفحة.

١٤٥- العبر ج٣ ص٣٦٤ .

وشرع الشيعى فى تنظيم أمور إفريقية ، وأخرج العمال إلى نواحيها [١٤٦]، فوجه عاملا إلى طرابلس ، كما ولى الحسن بن أحمد ابن أبى خنزير على القيروان، وعين بن أحمد بن على بن كليب على مدينة القصر القديم[١٤٧]، وعول الشيعى على تغير رسوم الحكم وتقاليده تمشيا مع الوضع الجديد، فأمر بذكر «حى على خير العمل» فى الآذان، وأسقط اسم الخليفة العباسى من الخطبة، وولى على السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى[١٤٨]، ونقش عليها عبارتى «بلغت حجة الله» و «تفرق أعداء الله»[١٤٩] وعلى السلاح عبارة «عدة فى سبيل الله»، ووسم الخيل على أفخاذها بقول «الملك لله» [١٥٠]، وأمر بالصلاة على النبى وفاطمة والحسن والحسين وأظهر التشيع ، كما عين قاضيا شيعيا على القيروان ليفتى وفق المذهب الجديد[١٥١] . وحض أبو عبدالله وجوه كتامة على الدعوة لمذهبه [١٥٢]، غير أن جهودهم - فى هذا الصدد- لم تكلل بالنجاح ، فقد تزعم الفقهاء المالكية حركة مقاومة المذهب الشيعى، ونجحوا فى تحويل مشاعر الناس إلى العداء السافر للشيعى ودعوته[١٥٣].

١٤٦- ابن الأثير : ج٦ ص١٣٢ .

١٤٧- البيان المغرب ج١ ص٢٠٧ .

١٤٨- نفسه ص٢٠٦ .

١٤٩- العبر ج٣ ص٣٦٤، وتلك صورة للدينار الذى ضربه الشيعى:

(كتابة دائرية) بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبع وتسعين ومائتين .

(الوجه الأول) تفرق - محمد - رسول - الله- أعداء الله.

(الوجه الآخر) العز - لا إله إلا - الله وحده- حجة الله .

(كتابة دائرية) محمد- رسول - الله- أرسله- بالهدى- ودين- الحق

انظر .: Lavoix : Op. cit. vol . 2 . p. 399

١٥٠- الكامل ج٦ ص١٣٢ .

١٥١- البيان المغرب ج١ ص٢٠٧ .

١٥٢- نفسه ص٢٠٨ .

١٥٣- Vonderheyden : Op. cit. p. 315 .

ثم توجه الشيعي إلى سجلماسة لتحرير المهدى من سجنه ، وتمكن من إطلاق سراحه بعد أن قتل اليسع بن مدرار[١٥٤].

أما زيادة الله، فقد وصل طرابلس وظل بها مدة ينتظر وصول بقية متاعه مع وزيره ابن الصايغ [١٥٥]، ثم توجه إلى مصر، ومنها إلى الشام فى طريقه إلى بغداد، آملا فى مساعدة الخلافة له فى استرداد إفريقية. لكن أمله لم يتحقق ، فلم تستطع الخلافة من جانبها الاضطلاع بعمل جدى فى هذا الصدد ، واكتفى الخليفة المقتدر بأن أمر عيسى النوشرى والى مصر بمساعدته فى إعداد الحملة المنشودة . ولم يقدر لهذه الحملة الخروج إلى إفريقية ليندثر منها حكم بنى الأغلب نهائيا[١٥٦]، فمنذ عام ٢٩٦هـ[١٥٧] انقطعت الخطبة للعباسيين من إفريقية والمغرب عموما بزوال دولة الأغالبة .

* * *

١٥٤- شرح الأخبار ص٣٣ من ملحق كتاب Ivanova سالف الذكر .

١٥٥- ذكر ابن عذارى أن ابن الصايغ توجه إلى صقلية هاربا من بطش زيادة الله لمحاولته تبديد أمواله، لكن السفينة التى أقلته جنحت إلى طرابلس ، فوقع فى يد زيادة الله، فضرب عنقه .

انظر : البيان المغرب ج١ ص٢٠٢ .

١٥٦- ابن أبى دينار: المؤنس ص٥١ .

١٥٧- ذكر السيوطى- خطأ- أن نهاية دولة الأغالبة حدثت سنة ٢٨٢هـ، والملاحظ أن تواريخه المتصلة بالدولة العبيدية عموما تشوبها الأخطاء . أنظر : تاريخ الخلفاء ص٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ .

الملاحـق

ملحق رقم (١)

الإمـارة[١٥٨]

إذا قلد الخليفة أميرا على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين، عامة وخاصة، فأما العامة فعلى ضربين ، إمارة استكفاء بعقد عن اختيار، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار.

فإمارة الاستكفاء التى تنعقد عن اختياره فتشتمل على عمل محدود ونظر معهود، والتقليد فيها أن يفوض إليه الخليفة امارة بلد أو اقليم ولاية على جميع أهله ونظرا فى المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدودا من عمل، ومعهودا من نظر .

ونحن نقدم القسم الأخير وهو حكم الإمارة الخاصة لاشتراكها مع امارة الاستكفاء فى عقد الاختيار ، ثم نذكر القسم الثانى فى إمارة الاستيلاء المعقودة عن اضطرار.

فأما الإمارة الخاصة فهو أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش ، وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام ولجباية الخراج والصدقات (مما هو مسموح به فى إمارة الاستكفاء). وشروط الإمارة الخاصة تقصر عن شروط الإمارة العامة بشرط واحد وهو العلم، لأن لمن عمت إمارته أن يحكم وليس ذلك لمن خصت إمارته، وليس على واحد من هذين الأمرين مطالعة الخليفة بما أمضاه فى عمله على مقتضى امارته إذا كان معهودا، إلا على وجه الاختيار تظاهرا بالطاعة ، فإن حدث غير معهود أوقفاه ، قاما بما يدفع هجومه حتى يرد عليهما إذن الخليفة فيما يعملان به لأن رأى الخليفة لإشرافه على عموم الأمور أمضى فى الحوادث النازلة.

وأما إمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطرار ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها. فيكون الأمير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذا لاحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة ، ومن

١٥٨- الماوردى : الأحكام السلطانية ص٣٠ وما بعدها .

الخطر إلى الاباحة، وهذا وإن خرج عن عرف التقليد المطلق فى شروطه وأحكامه ، ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام الدينية ما لايجوز أن يترك مختلا مدخولا ، ولافاسدا معلولا، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع فى تقليد الاستكفاء والاختيار، لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز. والذى يتحفظ بتقليد المستولى من قوانين الشرع سبعة أشياء، فيشترك فى التزامها الخليفة الولى والأمير المستولى، ووجوبها فى جهة المستولى أغلظ .

أحدها حفظ منصب الإمامة فى خلافة النبوة وتدبير أمور الملة، والثانى ظهور الطاعة الدينية، والثالث اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ، ليكون للمسلمين على من سواهم ، والرابع أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة، والأحكام والأقضية فيها نافذة ، والخامس أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها وليستبيحه آخذها ، والسادس أن تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق ، والسابع أن يكون للأمير فى حفظ الدين ورع عن محارم الله، يأمر بحقه إن أطيع ، ويدعو إلى طاعة إن عصى .

فهذه سبع قواعد فى قوانين الشرع يحفظ بها قوانين الامامة وأحكام الأمة فلأجلها وجب تقليد المستولى. فإن كملت فيه شروط الاختيار كان تقليده حتما استدعاء لطاعته ، ودفعا لمشاقته ومخالفته ، وصار بالأذن له نافذ التصرف فى حقوق الملة وأحكام الأمة. فان لم يكن فى المستولى شروط الاختيار، جاز للخليفة إظهار تقليده استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته ، أو كان نفوذ تصرفه فى الأحكام والحقوق موقوفا على أن يستنيب له الخليفة فيها لمن تكاملت فيه شروطها فى نفسه ، فيصير التقليد للمستولى والتنفيذ فى المستناب . وجاز مثل هذا وإن شذ عن الأصول لأمرين : أحدهما أن الضرورة تسقط ما أعوز من شروط المكنة ، والثانى أن ما خيف انتشاره من المصالح العامة تخفف شروطه عن شروط المصالح الخاصة، فإذا صحت امارة الاستيلاء كان الفرق بينها وبين إمارة الاستكفاء من أربعة أوجه :

أحدها أن امارة الاستيلاء متعينة فى المتولى وإمارة الاستكفاء مقصورة على اختيار المستكفى ، والثانى أن إمارة الاستيلاء مشتملة على البلاد التى غلب عليها المستولى، وامارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التى تضمنها عهد المستكفى، والثالث أن إمارة الاستيلاء تشمل على معهود النظر ونادره ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على معهود النظر دون نادره، والرابع أن وزارة التفويض تصح فى إمارة الاستيلاء ، ولاتصح فى إمارة الاستكفاء ، لوقوع الفرق بين المستولى ووزيره فى النظر، لأن نظر الوزير مقصور على المعهود ، وللمستولى أن ينظر فى النادر والمعهود . وإمارة الاستكفاء مقصورة على النظر المعهود فلم تصح معها وزارة تشتمل على مثلها من النظر المعهود لاشتباه حال الوزير بالمستوزر.

ملحق رقم (٢)

الخطبة على المنابر (١٥٩)

أما ما كان يخطب على المنابر للخلفاء ، فأن يقال فى الخطبة الثانية بعد الجلسة وبعد إعادة حمد الله والصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم «اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبدالله ، ويذكر الإسم واللقب، الإمام أمير المؤمنين بما أصلحت به الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين الذين يقضون بالحق ، وبه كانوا يعدلون . اللهم أعنه على ما طوقته ، وبارك له فيما أعطيته ، واحفظ له ما استرعيته واجعله لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين».

ملحق رقم (٣)

خلع التقليد والولاية (١٦٠)

الذى جرت به العادة فى خلع أصحاب الجيوش وولاة الحروب عمامة مصمتة سوداء، وسوار مصمت بجريان مبطن الأسفل منه، وسوار آخر مصمت بغير جريان، وخز سوسى أحمر، ووشى مذهب وملحم أو مصمت خجى، وقباء دبيقى، وسيف احتباء أحمر حليته فضة بيضاء وقبيعته على القائم طيرزينته ، وعلى جفنه فلك فضة، وعلى حمائله مثلها، وحف أبو العباس وراءه ، والحملان دابة بسرج عربى، وركبه مربعة ، ومركبه على الاختيار ، وزيد أصحاب الفتوح والآثار الطوق والسوارين والسيف والمنطقة ، وصار ذلك رسما لامراء الحضرة.

ملحق رقم (٤)

رسوم المكاتبات عن الخلفاء فى صدورها وعنواناتها والأدعية فيها وما يعاد منها فى أواخرها (١٦١)

من رسوم الكتب عن الخلفاء واليهم، أن تكون بأوضح خط، وأفصح لفظ، وتكون السطور من أول القرطاس، ومن غير تفصيل فى أحد جانبى السطر، ويكون بين كل سطر وسطر سعة.

١٥٩- ابن الصابىء : رسوم دار الخلافة ص١٢٣ .

١٦٠- نفس المصدر ص٩٣ و ٩٤ .

١٦١- نفس المصدر ص١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

وسبيل الكاتب أن يقل المشق والمد، ويتجنب الإرسال والإدغام، ويمتنع من النقط والشكل، فإن فيهما تقصيرا بمن يكاتب ، لأنه يتصور بصورة من تنقص معرفته فيحتاج إليها في مكاتبته .

فأما العنوان ، فالذي جرت العادة به فيه أن يكتب في جانبه الأيمن بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أبي جعفر الإمام القائم بأمر الله، أمير المؤمنين بغير دعاء ولاذكر اسم أب وإن كان خليفة ملقبا .. ومن الجانب الآخر من عبده، أو : عبده وصنيعته. وعلى ما يختار المكاتب فلان بن فلان، باسمه واسم أبيه . وإن كان مكنى من حضرة الخليفة لم يذكر عليه، أو ملقبا مكنى، اقتصر على اللقب والإسم واسم الأب. وإن كان الأب ملقبا مكنى ذكره باللقب والإسم. وقال بعد ذلك مولى أمير المؤمنين إن كان من الأعاجم والموالي، ويكون جميع ما ذكرناه في سطر واحد. وقد كانت العنوانات العامة قديما على مثل هذه الصفة من تقديم اسم الكاتب وتأخير اسم المكتوب إليه، إلا فيما كان إلى امام، أو والد، على ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : إذا كتب أحدكم فليبدأ بنفسه، إلا إلى والد أو إمام. . واستعمل ادعاء على العنوانات من بعد ذلك إلا ما كان والي الخليفة عنه،فإنه بقي على قديم رسمه . ومن الأوامر في الكتب بالألقاب ، بكاتب أمير المؤمنين متلقبا متسميا ، ومن سواه متلقبا متكنيا..

فأما صدر الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، فيكون لعبد الله أبي جعفر عبدالله الإمام القائم بأمر الله ، أمير المؤمنين ، بغير دعاء من عبده فلان، سلام على أمير المؤمنين فإني أحمد إليه الله الذي لا إله إلا هو وأسأله ان يصلي على عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد كان ما يكتب به قديما في الصدور لأبي فلان فلان ، سلام عليك أما بعد ، حتى كان أيام المأمون صلوات الله عليه، فانه زيد بعد سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، واسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم. فيكون الصدر الذي ذكرناه في سطرين . ويقال بعده : أما بعد ، أطال الله بقاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، وأدام عزه وتأييده وكرامته ، وسعادته ، وأتم نعمته عليه وزاد في احسانه وفضله عنده، وجميل بلائه، وجزيل عطائه له، فالحمد لله ، ويوصف الله بصفاته إن كان الكاتب ابتدأ في أخبار بفتح أو مطالعة بأثر ، وإن كان جوابا ، قيل : أما بعد فإن كتاب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ويستتم الدعاء . ورد على عبده كذا، ويقبض الكتاب، وفهمه وفعل وصنع ، وتشرح

الصورة فيما يراه ذكره .. وإذا فرغ من الكتاب وختم بإن شاء الله، قيل أتم الله على أمير المؤمنين نعمته وهنأه وكرامته والبسه عفوه وعافيته وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكتب يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ولايذكر إسمه لأن ذلك يفعل فيما يكتب به عن الخلفاء لا إليهم .. وأما الكتب إلى ولاة العهود فعلى مثل هذا الترتيب . ويقال للأمير واللقب إن كان ملقبا : إلى فلان ولى عهد المسلمين وابن أمير المؤمنين إن كان ولد الخليفة.. ومما كان الرسم جاريا به أن يقتصر في الكتاب إلى الخليفة، أو منه، أو من الوزير إلى عماله ، ومن عماله إليه، على معنى واحد تكون المعانى إذا كثرت فى عدة كتب .

ملحق رقم (٥)

رسالة إبراهيم بن أحمد الأغلبى إلى أبى عبدالله الشيعى [١٦٢]

«.. ما حملك على التعرض لسخطى والوثوب فى ملكى وإفساد رعيتى والخروج عليها. فإن كنت تبتغى غرضا من أغراض الدنيا وجدته عندى، وإن أنت تلاقيت أمرك ورجعت عن غيك ، فصر إلى وأنت آمن. فإن أردت المقام ببلدنا أقمت ، وإن أحببت الانصراف انصرفت . وإن كان قصدك قصد من سولت له نفسه الخلاف على الائمة واستفساد جهلة الأمة، فقد عرفت عواقب من يمنيه نفس أمنيتك، وسولت له ما سولت لك من الهلاك العاجل قبل سوء المصير فى الآجل. ولايغرنك ما رأيت من اقبال هؤلاء الأوباش عليك وإتباعهم إياك، فإنى لو صرفت وجهى إليك لأسلموك وبتروا منك. وأعلم أننى إنما أردت الاعذار إليك لاستظهار الحجة عليك، وهذا أول كلامك وآخره ، لا أقبل لك بعد هذا توبة ، ولا أقيلك عنده، ولا أجعل جواب ما يكون منك إلا النهوض إليك بنفسى وجميع أبطال رجالى وأنصار دولتى وجملة أهل مملكتى ، فعندئذ تندم حين لاينفع الندم ، ولاتقبل منك التوبة وانظر فى يومك لغدك ، وقد اعذر من أنذر..».

١٦٢– النويرى : نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٢٦ مخطوط .

ملحق رقم (٦)

رد أبى عبدالله الشيعى على رسالة إبراهيم بن أحمد الأغلبى [١٦٣]

«.. ما أنا ممن يردع بالايعاد ، ولا ممن يهوله الإبراق والإرعاد. فأما تخويفك إياى برجال مملكتك وأنصار دولتك أبناء حطام الدنيا الذين ينقادون لكل سابق، ويجيبون لكل داع وناعق، فإنا من أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لاتروعهم كثرة أنصار الباطل، مع قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» . فأما ما أطمع به من دنياك وغرضك من دينها وحطامها ، فلست من أهل الطمع فأميل إليك، ولافيمن يرغب فيما عندك وإنما يبعث رسولا لأمر قد حم وقرب، فان سولت لك نفسك ما وعدت به وعدته إليك، فسوف تعلم أن الله عز وجل من ورائه، ولن يغن عنك من الله شيئا ولو كثرت . وإن الله مع المؤمنين ..».

* * *

١٦٣- النويرى : نفس المصدر والصفحة.

المصادر

أولاً : المخطوطات العربية :

١- أبوحنيفة : الإمام أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور (٣٦٣هـ) : أساس التأويل الباطني- مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٢٤٣٤٦ ح .

٢- أبو زكرياء : يحيي بن أبي بكر (القرن الرابع الهجرى) : - كتاب السيرة وأخبار الأئمة - مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٩٠٣٠ح .

٣- الانصاري : أحمد بن الحسين النائب الانصاري (١١١٣هـ) : نفحات القنسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان - مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم ١٠٦٧١ح.

٤- الدرجيني : أبو العباس أحمد (القرن السابع الهجرى»: طبقات الإباضية - ج١ - مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم ١٢٥٦١ ح.

٥- الصفرى : أبو غانم (٢٩٦هـ) - المدونة- مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٢١٥٨٢ح.

٦- عياض : القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٥٤٤هـ) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك- قسم ١ من ج٢ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٧٣٠ ح.

٧- مالك : الإمام مالك (١٧٩هـ) - الموطأ- مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٤٥٤ب.

٨- مجهول : تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والأندلسيين- مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٤٤١٩ ح.

٩- المنصوري : ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار (٧٢٩هـ) - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج٤ و ٥- مخطوط بجامعة القاهرة- رقم ٢٤٠٢٧ .

١٠- النويري : شهاب الدين أحمد (٧٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب ج٢٢ و ٢٦ - مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ثانيا : المراجع العربية :

١١- إبن الآبار : أبو عبدالله محمد (٦٥٨هـ) : الحلة السيراء- نشر مولّلر- فرانز ١٨٦٦م .

١٢- إبن أبى زرع : محمد بن عبد الحليم (٧١٠-٧٢٠هـ) الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- فاس، طبع حجر.

١٤- إبن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (٦٣٠هـ) الكامل ج٥ القاهرة ١٣٥٧هـ، ج٦ القاهرة ١٣٥٣هـ .

١٥- إبن بطريق : البطريرك أفيتشيوس المكنى بسعيد بن بطريق (٣٢٨هـ) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق - بيروت ١٩٠٥م.

١٦- إبن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى (٨٧٠هـ) - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٢ ، ٣ القاهرة ١٩٣٠م.

١٧- إبن حوقل : أبو القاسم بن حوقل (النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك - ليدن ١٨٧٢م .

١٨- إبن خرداذبة : عبيدالله بن خرداذبة (القرن الثالث الهجرى) : المسالك والممالك - ليدن ١٨٧٢م.

١٩- إبن الخطيب : لسان الدين محمد بن الخطيب السليمانى (٩٤٠هـ) - أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق : بروفنسال . بيروت ١٩٥٦م.

٢٠- إبن الخطيب : أعمال الأعلام . نشر : د. أحمد مختار العبادى وزميله تحت عنوان : المغرب العربى فى العصر الوسيط - ج٣- الدار البيضاء ١٩٦٤م.

٢١- إبن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) المقدمة - بيروت .

٢٢- إبن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ بولاق ١٢٨٤هـ .

٢٣- إبن خلكان : شمس الدين أبو العباس (٦٨١هـ) وفيات الأعيان ج١ القاهرة ١٣١٠هـ.

٢٤- إبن الداية : المكافأة . القاهرة ١٩١٤م.

٢٥- إبن سعيد : على بن موسى بن محمد (٦٧٣هـ) سيرة أحمد بن طولون نقلا عن إبن الداية . برلين ١٨٩٤م.

٢٦- إبن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج١ ط٢ القاهرة ١٩٦٤ .

٢٧- إبن الصابىء : هلال بن الحسن الصابىء (٤٤٨هـ) : رسوم دار الخلافة ، بغداد ١٩٦٤م.

٢٨- إبن طيفور : أحمد بن طاهر الكاتب (٢٨٠هـ)، بغداد - القاهرة ١٩٤٩م.

٢٩- إبن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم بن أعين (٢٥٧هـ) ، فتوح مصر والمغرب- القاهرة ١٩٦١م، ليدن ١٩٢٠م.

٣٠- إبن العبرى: غر يغوريوس أبو الفرج بن هارون (١٢٨٦م) ، تاريخ مختصر الدول- بيروت ١٨٩٠م.

٣١- إبن عذارى: أبو عبدالله محمد (نهاية القرن السابع الهجرى)، البيان المغرب فى أخبار المغرب ج١ ، ٢ بيروت ١٩٥٠م.

٣٢- إبن عيسى : محمد بن يوسف بن عيسى (١٣٠٤م) كتاب الامكان فيما جاز أن يكون أو كان - طبع حجر .

٣٣- إبن فرحون : ابراهيم بن على بن فرحون (٧٩٩م) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب القاهرة ١٣٥١هـ، ١٣٢٩هـ .

٣٤- إبن الفرضى : عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدى(٤٠٣هـ) ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ج١، ٢ القاهرة ١٩٥٤م.

٣٥- إبن القوطية : محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم (٢٦٧هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس- القاهرة. ب . ت .

٣٦- أبو العرب : أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمى (٣٣٣هـ) ، طبقات علماء إفريقية - الجزائر ١٩١٤م.

٣٧- الإدريسى : الشريف أبو عبدالله محمد (٥٥٨هـ) ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس - ليدن ١٩٦٤م.

٣٨- إحسان عباس (الدكتور) ، العرب فى صقلية القاهرة ١٩٥٩م.

٣٩- لويس : (أرشيبالد) ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط- ترجمة أحمد عيسى- القاهرة . ب.ت.

٤٠- الإصطخرى : إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكرخى (النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) ، المسالك والممالك- القاهرة ١٩٦١ .

٤١- الأنصارى : أحمد النائب الانصارى (١١١٣هـ) ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ج١ بيروت .

٤٢- إيشهورن : جود فريد ايشهورن (تحقيق) ذكر بلاد المغرب. ب.ت .

٤٣- الباجى: محمد الباجى المسعودى (١٢٥٤هـ) ، الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية - تونس ١٢٨٣هـ .

٤٤- البارونى : سليمان بن عبدالله البارونى النفوسى (١٣٥٩هـ) ، الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ج ٢ ب.ت.

٤٥- برنادلويس : أصول الاسماعيلية - ترجمة خليل أحمد حلو وزميله - القاهرة ١٩٤٧م.

٤٦- بروفنسال : ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس - ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم وزميله، القاهرة ١٩٥٦م.

٤٧- بروفنسال (تحقيق ونشر) - نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى . الرباط ١٩٣٤م.

٤٨- بروفنسال : (تحقيق ونشر) نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى . باريس ١٩٢٩م.

٤٩- البكرى : عبدالله بن عبد العزيز البكرى (٤٦٠هـ) ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب- باريس ١٩١١م.

٥٠- البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (٢٤٨هـ) ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦م.

٥١- البلوى : عبد الله بن محمد المدينى البلوى (حول منتصف القرن الرابع الهجرى) ، سيرة أحمد بن طولون - دمشق ١٣٥٨هـ .

٥٢- بينز : نورمان بينز . الإمبراطورية البيزنطية- ترجمة د. حسين مؤنس وزميله . القاهرة ١٩٥٠م .

٥٣- حسن إبراهيم حسن (الدكتور) ، تاريخ الإسلام السياسى، ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٢م.

٥٤- حسن إبراهيم حسن (الدكتور) : الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٥٨م.

٥٥- حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس- تونس ١٣٧٣هـ.

٥٦- حسن الباشا : (الدكتور) : الألقاب الإسلامية . القاهرة ١٩٥٧م.

٥٧- حسن أحمد محمود : (الدكتور) : حضارة مصر الإسلامية - العصر الطولونى. القاهرة ١٩٦٠م.

٥٨- حسن أحمد محمود (الدكتور) : قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧م.

٥٩- حسن أحمد محمود (الدكتور) : انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٥٧م.

٦٠- حسن أحمد محمود (الدكتور) : مصر فى عصر الطولونيين والاخشديين . القاهرة.

٦١- الحميدى: أبو عبدالله محمد بن أبى نصر الأزدى (٤٨٨هـ) ، جذوة المقتبس ، القاهرة ١٩٦٦م.

٦٢- الخشنى : محمد بن الحارث بن أسد الخشنى (٣٦٦هـ) ، طبقات علماء إفريقية . الجزائر ١٩١٤م.

٦٣- الدباغ : عبد الرحمن محمد بن عبدالله الانصارى (٦٩٦هـ) ، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ج١ ، ٢ تونس ١٣٢٠هـ.

٦٤- زكى محمد حسن (الدكتور) ، فنون الإسلام. القاهرة ١٩٤٨م.

٦٥- السيد عبد العزيز سالم : (الدكتور) ، المغرب الكبير - العصر الإسلامى ج٢ ، القاهرة ١٩٦٦م.

٦٦- السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، القاهرة ١٩٦٢م.

٦٧- سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) ، تاريخ المغرب العربى . القاهرة ١٩٦٥م.

٦٨- السلاوى : أحمد بن خالد الناصرى (١٣١٩هـ) ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج١ - الدار البيضاء ١٩٥٤ م.

٦٩- سيدة الكاشف : (الدكتورة) ، مصر فى فجر الإسلام . القاهرة ١٩٤٧م.

٧٠- سيدة الكاشف : (الدكتورة) مصر فى عصر الولاة ، القاهرة ١٩٦٠م.

٧١- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٩١١هـ) بغية الوعاة ج١ ، ٢ . القاهرة ١٩٦٥م.

٧٢- السيوطى : تاريخ الخلفاء. القاهرة ١٩٦٤م.

٧٣- السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج١ . القاهرة ١٣٢٧هـ، ج٢ القاهرة ١٢٩٩هـ.

٧٤- الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ) ، الملل والنحل ج١ - القاهرة ١٣١٧هـ.

٧٥- الشماخى : أحمد بن أبى عثمان سعيد عبد الواحد (٩٢٨هـ)، كتاب السير (سير علماء ومشايخ جبل نفوسة) طبع حجر القاهرة. ب.ت .

٧٦- الطباع : دكتور عبدالله أنيس (تحقيق) : الحلة السيراء لإبن الأبار بيروت ١٩٦٢م.

٧٧- الطبرى : محمد بن جرير (٣١٠هـ) تاريخ الأمم والملوك ج٦ ، ٧ ، ٨ ، القاهرة ١٩٣٩م.

٧٨- عبد القاهر : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى (٤٢٩هـ) ، الفرق بين الفرق، القاهرة ١٩٦٤م.

٧٩- العدوى : إبراهيم أحمد العدوى (دكتور): الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ١٩٥٧ م.

٨٠- العدوى : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية . القاهرة ١٩٥١م.

٨١- العدوى : المسلمون والجرمان ، القاهرة ١٩٦٠م.

٨٢- عريب بن سعد : عريب بن سعد القرطبى (٣٦٦هـ) : صلة تاريخ الطبرى . القاهرة ١٩٣٩م.

٨٣- العرينى : دكتور السيد الباز : الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٠م.

٨٤- عنان : محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج١ القاهرة ١٩٤٣م.

٨٥- فازيليف : العرب والروم - ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة - القاهرة .

٨٦- أحمد فكري : (الدكتور) ، مسجد القيروان - القاهرة ١٩٣٦م.

٨٧- قدامة بن جعفر: أبو الفرج بن جعفر البغدادى (٢٣٧هـ) الخراج وصنعة الكتابة- ليدن ١٨٨٩م.

٨٨- القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١هـ)، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج٣ ، ٥ - القاهرة ١٩٢٢م.

٨٩- الكتامى أبو عبدالله بن محمد بن جعفر (١٣٤٥هـ) ، الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس - فاس طبع حجر ١٣١٤هـ .

٩٠- الكرملى : الأب أنستاس ماري : النقود اللعربية وعلم النوميات - القاهرة ١٩٣٩م.

٩١- كليليا سازنيللى : مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى فى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى - مصر ١٩٦١م.

٩٢- الكندى : محمد بن يوسف (٣٥٠هـ) ، الولاة والقضاة - بيروت ١٩١٨م.

٩٣- المالكى : عبدالله بن أبى عبدالله (نهاية القرن الرابع الهجرى) ، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ج١ - القاهرة ١٩٥١م.

٩٤- الماوردى : على بن محمد البصرى البغدادى (٤٥٠هـ) ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية - القاهرة ١٩٦٠م.

٩٥- مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار- الاسكندرية ١٩٥٨م.

٩٦- مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس - مدريد ١٧٦٧م .

٩٧- محمد جمال الدين سرور : (الدكتور) ، الدولة الفاطمية فى مصر- القاهرة ١٩٦٦م.

٩٨- محمد كامل حسين : (الدكتور)، أدب مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧م.

٩٩- المراكشى : محيى الدين أبى محمد عبد الواحد (٦٤٧هـ) ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . القاهرة ١٩١٤م.

١٠٠- المسعودى: على بن الحسين (٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ - القاهرة ١٣٤٩هـ.

١٠١- المقدسى: شمس الدين محمد بن أحمد (٣٨٨هـ) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩م.

١٠٢- المقرى : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى (١٠٤١هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج١ ، ٢ ، ٣ القاهرة ١٩٤٩م.

١٠٣- المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥هـ) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ، ٣ القاهرة ١٣٢٤هـ.

١٠٤- المقريزى : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء- القاهرة ١٩٤٨م.

١٠٥- المكتبة الصقلية - نشر أمارى- ج١ ، ٢ ، ٣ - ليبزج ١٨٥٦م.

١٠٦- ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى- ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة - ج١ ، ٢ القاهرة ١٩٤٨م.

١٠٧- اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (٢٨٤هـ) : البلدان - ليدن ١٨٩٢ م.

ثالثا : الموسوعات والدوريات العربية :

١٠٨- إبراهيم على طرخان : (الدكتور) المسلمون فى فرنسا وإيطاليا ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد٢٣ ج٢ ، القاهرة ١٩٦٦م.

١٠٩- باسيه : رينيه باسيه Renea Basset، أنظر : دائرة المعارف الإسلامية مجلد١ مادة ادريس الأول وإدريس الثاني.

١١٠- ديمومبين G. Demombuynes : أنظر : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ مادة بنى الأغلب .

١١١- الشيال : دكتور محمد جمال الدين : الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة

الإسكندرية فى العصر الإسلامى، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية مجلد١٥ سنة ١٩٦١ الاسكندرية ١٩٦٢ .

١١٢- زاهر رياض : الدكتور : اتجاهات مصر الأفريقية فى العصور الوسطى. مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٠ جـ١ ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م.

١١٣- العرينى ، دكتور السيد الباز : بعض معالم عهد شارلمان . المجلة التاريخية المصرية مجلد ٨ سنة ١٩٥٣، القاهرة ١٩٥٩م.

١١٤- مارسيه : G. Marcais : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ مادة بنى رستم .

١١٥- مؤنس : دكتور حسين مؤنس . ثورات البربر فى إفريقية والأندلس . مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول مجلد ١٠ ج١ القاهرة ١٩٤٨م.

١١٦- مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية . المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ . القاهرة ١٩٥١م.

رابعا : المراجع الأفرنجية :

117- Altamira. R; Ahistory of Spain, trans. by Muna Lee, 1949 .

118- Amari . M., Storia dei Musulmani di Cicili vol . 1 .

119- Biquet . F., Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane paris.

120- Brockelman . K., History of the Islamic people . London , 1949 .

121- Brunschvig. R., La Tunisie dans le haut moyen age. Le Caire . 1948.

122- Buckler . M. .A., Horun L-Rasbid and Charles the great , Massachusette. 1931 .

123- Bury J.B., Ahistory of the eastern Roman emprire ; From the fall of Irene to the accession of Basil I. London 1912 .

124- cambridge. medieval history . vols. 2,3,4 . cambridge 1913 .

125- Condé . J. A. History of the dominion of the Arabs in Spain Trans.

by Mrs. Foster . vol 1 . London .

126- Diehl G, Byzantium , Greatness and decline trans . by Walford N. New Jersy , 1957 .

127- Dozy . R.; Spanish Islam . Ahistory of the Moslems in Spain .Trans. by Stokes . F. G. London , 1913 .

128- Fournel . H., Les Berbers . Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes. vols. 1,2. paris, 1875 .

129- Gautier . E. F., Les Siecles obscurs du maghreb. Paris, 1927 .

130- Halphen . L., : Eginhard , Vie de Charlemagne . Paris, 1923 .

131- Halphen : Charlemagne et l'empire Carolingien, paris , 1949 .

132- Heyd . W., Histoire du commerce du levant au moyen âge . vol . 1. leipzig , 1923 .

133- Hittie, P.K., History of the Arabs. London. 1943 .

134- Hole. E., Andalus : Spain under the Mslems. London 1958 .

135- Hopkins . J. F. P. , Medieval Muslim government in Barbary untill the 6th century of Higra. London , 1958 .

136- Huart, G., Histoire des Arabes. vols . 1, 2 , Paris, 1912 .

137- Ivanova . W., Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids. India , 1942 .

138- Latrie . D. M., Traités de paix et de commerce , et documents divers concernant les relation des chretiens avec les Arabes de l'Afriques sep-tentrionale au moyen âge . Paris , 1865 .

139- Lane- Poole . S., Catalogue of the collection of Arabic coins pre-sented in the khedivial Liberery at Cairo . London , 1897 .

140- Laviox . M. H., Cataloque de monnaies Musulmanes de la Biblio-théque Nationale. vol . 1 , 1889 vol. 2. 1891 , vol. 3 , 1896 .

141- Lot F., Les invasions barbares et le peuplement de l'Europe . Paris, 1937 .

142- Marcais . G: L'Afrique du nord francaise dans l'histoire. Paris, 1937.

143- Mercier . E., Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les reculés jusqua la conquete Francaise (1830) vol.1 . Paris , 1888 .

144- Muir. W., The caliphate , its rise , decline, and fall . Edinburgh 1924.

145- O'Leary . D. L., A short history of the Fatimid khalifate London , 1923 .

146- Ostrogorsky . G, History of the Byzantine State. Trans . by Hussey . J. New Jersy , 1957 .

147- Pirenne . H. Mohammed and charlemagne . New Yourk .

148- Provencal . E. L., Histoire de l'Espagne Musulmane . vol . 1 . Alger, 1944 .

149- Reinaud . M., Invasions des Sarrazins en France. Paris , 1836 .

150- Runciman, S : Byzantine civilisation , New York , 1958 .

151- Sardo . E., Moorish Spain. Canada , 1963 .

152- Scott S. P., History of the Moorish empire in Europe. vols. 1. 2. 3 . Philadelphia and London , 1904 .

153- Terrasse . H., L'Art Hispano - Maurisque . Paris . 1932 .

154- Vasilev. A.A History of the Byzantine empir. Trans . by Mrs. Rag-

ozin . S. vol. 1 . Madison 1928 .

155- Vonderheyden . M., La berberie Orientale sous la dynastie des Be-nou L-Arab . Paris, 1927 .

156- Winston . R., Charlemagne from the hammer to the cross. New York , 1954 .

157- Zaki . M. Hassan ., Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane a` la fin du 1 x e siecle. Paris, 1933 .

خامسا : الدوريات الإفرنجية :

158- De Candia . F., Monnaies Aghlabites du Mussé du Bardo Revue Tu-nisienne . Tunis, 1935 .

159- Hassa ibrahim : Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain during the 4 th century A. H. Bulletin of the Faculty of Arts. Cairo University . vol x. Part . 11 . Cairo 1948 .

160- Idris . H. R., Contribution a` l'histoire de l'Ifikiya . Tableau de la vie intellectuelle et administrative a` Kairouan sous les Aglabites et les Fa-timites. Revue des etudes Islamiques. 1935-36 .

161- Setton . R. M., On the Raids of the Moslems in the Aegean in the ninth and tenth ceturies and the alleged occupation of Athens. Amercian Journal of Archaeology . vol . 58 . 1954 .

* * *

الفهرس

صفحة

تقديم ٣

مقدمة الطبعة الثانية ٥

مقدمة الطبعة الأولى ٧

الباب الأول :

قيام دولة الأغالبة

أولا - إفريقية قبيل قيام دولة الأغالبة ١١

ثانيا - تولية إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية ١٩

ثالثا - إستقرار الدولة ٣٢

الباب الثانى :

الأغالبة والمشرق الإسلامى

أولا- علاقات الأغالبة بالخلافة العباسية ٤١

(أ) سلطات الأمراء فى حدود التبعية للخلافة ٤٢

(ب) العلاقات السياسية ٤٧

(جـ) العلاقات الاقتصادية ٥٨

(د) أثر بغداد فى الحياة الثقافية بالقيروان ٦٣

ثانيا - العلاقات بين مصر وإفريقية ٦٧

(أ) العلاقات السياسية ٦٧

(ب) العلاقات التجارية ٦٧

(جـ) العلاقات الثقافية ٨٥

الباب الثالث

الأغالبة ودول المغرب والأندلس

أولا : العلاقات السياسية ٩٣
(أ) الأغالبة وبنومدرار ٩٥
(ب) الأغالبة والرستميون ٩٧
(جـ) الأغالبة والأدارسة ١٠٨
(د) الأغالبة والأمويون بالأندلس.. ١٢٠
ثانيا : العلاقات التجارية ١٣٠
ثالثا : العلاقات الثقافية ١٣٣

الباب الرابع

الأغالبة والعالم المسيحى

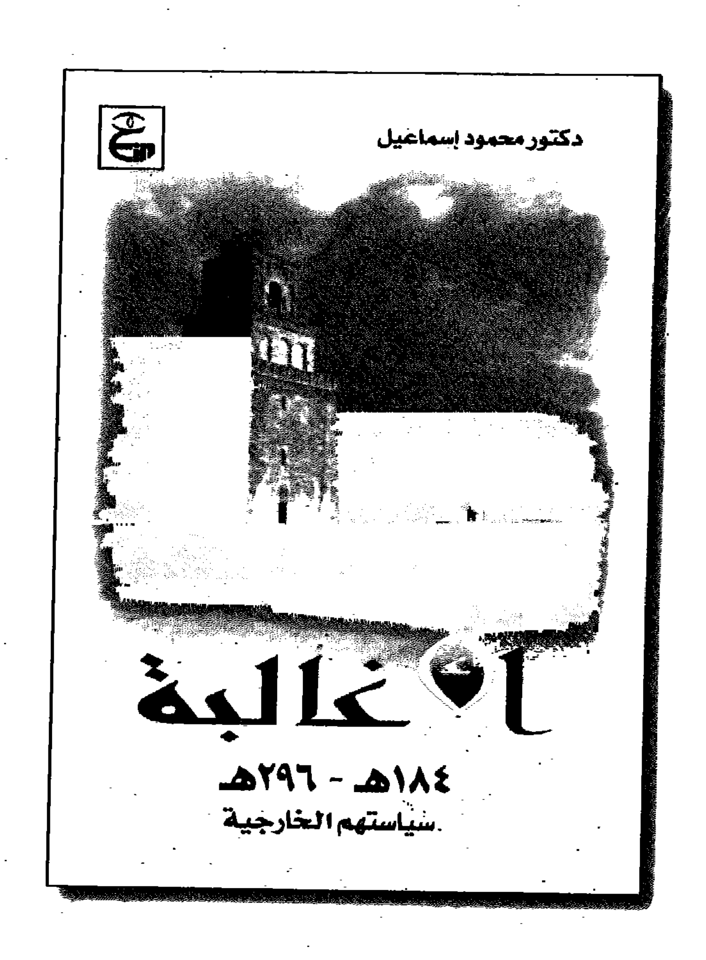
أولا : العلاقات السياسية :.. ١٤٣
(أ) الأغالبة والبيزنطيون ١٤٣
(ب) الأغالبة والفرنجة ١٦٣
ثانيا : العلاقات التجارية ١٨٠

الباب الخامس

نهاية الأغالبة ١٨٧
الملاحق ٢٠٥
المصادر ٢١١

رقم الإيداع ٩٩/١٥٧٨٩
الترقيم الدولى 2 - 022 - 322 - 977
دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق







للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES